

أسس العقيدة



الله .... الموت وخلود الروح .... الدار الآخرة



جمال البنا

أسس العقيدة

اللّه ۞۞۞

الموت وخلود الروح

الدار الآخرة۞۞۞

جمال البنا

فهرس

بسم ا الذى

لا نعبد أحداً سواه

مقدمة

كنت قد كتبت عن هذا الموضوع فى كتابات سابقة أهمها "الإسلام والعقلانية" و"الإيمان با لدى السلف وعند المعتزلة والمعاصرين" إلا إننى رأيت أن الحاجة ماسة لإصدار هذا الكتاب. لأن كتاب الإسلام والعقلانية يصرف النظر عن اسمه الذى لا يجذب بوجه خاص فريقاً من الإسلاميين، فأنه كبير الحجم غالى الثمن، وقد صدر منذ مدة طويلة وكادت نسخه تنفد وأما كتاب "الإيمان با " فإنه يعالج قضية الألوهية فى علم الكلام الإسلامى. ونحن هنا نقدم عرضاً لهذه الموضوعات الثلاثة الهامة.. ا : الروح: اليوم الآخر: من منطلقات جديدة، وبمعالجات جديدة، وبأسلوب جديد أيضاً.. وفى الوقت نفسه يكون بحجم وثمن يطيقه القارئ العادى، وبهذا يتيسر لها الانتشار وبالتالى الانتفاع بما بها من جديد...

وعلى ا قصد السبيل،،، **جمال البنا**

تمهيد

لماذا ترفض الحضارة الأوروبية

عالم الغيب

موضوعات ا : والروح: واليوم الآخر: تمثل أسس العقيدة فى كل الأديان وبوجه خاص فى الإسلام الذى قدم أفضل التصورات لها. واحتفظ فى الوقت نفسه بطابعها الغيبى، ولم يكن عبثاً أن جعل القرآن من أول شروط المتقين ﴿الذِين يؤْمِنُون بِالْغَيبِ﴾. {٣ البقرة}.. هنا يظهر التميز ما بين الدين.. والعلم. فالعلم مقصور على عالم المشاهدة.. ولكنه يقف عاجزاً أمام الغيب. وواضح بالطبع أن عجزه عن التعرف على هذا العالم لا يعنى عدم وجوده، ولكن الذين يقصرون إيمانهم على الوقائع المادية يميلون لتجاهل كل "الغيبيات" ولما كان الإنسان عدو ما جهل، فليس من الغريب أن تنشأ عداوة ما بين الحضارة الأوروبية وما بين عالم الغيب. وتلك من أكبر المآسى فى عالم الفكر ومن المهم لنا – ولهم أيضاً – مناقشة أسباب هذا الموقف الذى يطلقون

عليه العقلانية من هذه القضايا الثلاث. ففى هذه المعرفة فائدة لنا، كما أن فيها فائدة لهم...

إن هذا الموقف يعود إلى:

١- أن العقلانية ترتبط بطريقة معينة في الاستدلال أبرز خصائصها أنها حسية – مادية تعتمد على الحقيقة العملية التي يمكن لمسها باليد، أو رؤيتها بالعين أو سماعها بالأذن، أو ترتكز على بدائه لا خلاف عليها، كما هو الحال في الحساب أو الهندسة. ولا تتعدى وسائل العقلانية في الاستدلال ثلاث: الأولى الحواس. والثانية النظر الرياضي/ الحسابي والثالثة التجريب في المختبرات والمعامل. وبهذا يمكن لها أن تنتهي إلى نتائج محددة ومبادئ ثابتة. كأن يكون مجموع ١ + ١ = ٢ أو أن المعادن تتمدد بالحرارة.. وأن الماء يتجمد بالبرودة إلخ..

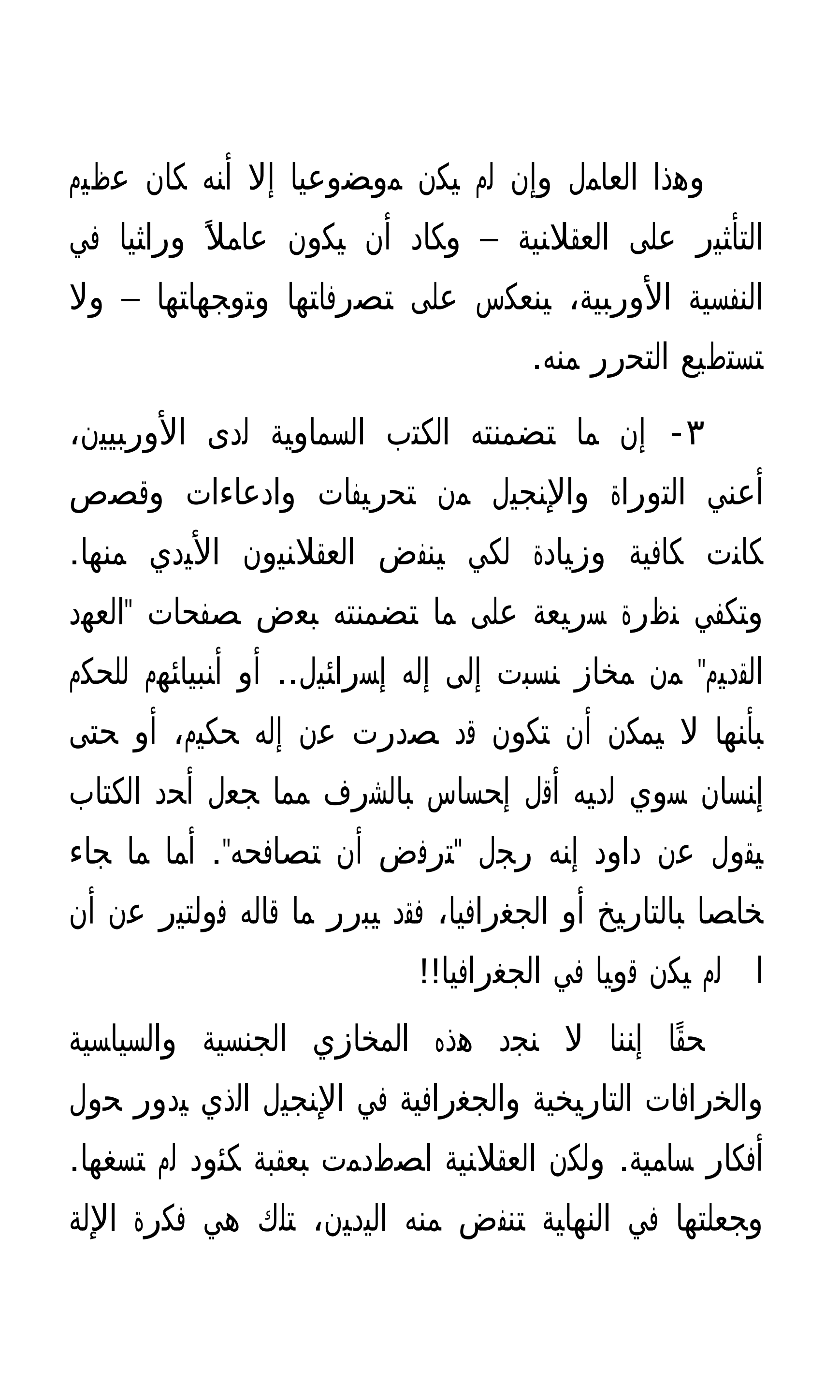
ولا يجدي شيئًا القول إن العقلانيين أنفسهم قد استبانوا قصور الحواس وخداع النظر، وأن وسائلهم العلمية والرياضية تنتهي إلى نتائج تختلف أو تتناقض مع ما تظهره الحواس، لأن المنهج العقلاني ارتبط بالمحسوس منذ نشأته.

وأصبح عنصرا مطبوعا به. ورد الفعل التلقائي لديها هو رفض كل ما وراء ذلك. وعندما عرض مكتشف الفرملة الهوائية اختراعه على "الكومدور" "فاندربلت" قطب صناعة السكك الحديدية صاح به "هل تريد أن تقول إن الهواء يستطيع أن يوقف قاطرة بخارية تسير بسرعة ثلاثين كيلو مترا؟ ومن قبل طلب فرعون من وزيره أن يبني له برجا يبلغ به أسباب السماوات ليطلع على إله موسى، وبهذا المنطق نفسه قال رائد الفضاء الروسي إنه لم يجد ا ... ولو كان لديه فكرة عن "الجنة" لقال إنه لم يجدها في أي مكان من السماوات العلا.

وما دام "ا " و "الروح" وعالم ما بعد الموت... ليس محسوسا أو مما يمكن أن يوزن أو يقاس أو يقبض باليد أو يبرهن عليه بمعادلة رياضية، فسترفض العقلانية التقليدية الاعتراف به. وعندما تلتزم الدقة فإنها تقف موقف "اللاأدرية". لأنها لا تستطيع أن تنفي وجوده على سبيل القطع. وسيغلب عليها المقولة التي نقلها القرآن عن أشباه لهم. ﴿وقَالُوا ما هِي إِلا حياتُنَا الدنْيا نَموتُ ونَحيا وما يهلِكُنَا إِلا الدهر﴾.

٢- كانت أوربا التي انبثقت منها العقلانية الحديثة – "وثنية" فلم تعرف من أيام اليونان والرومان "ا " الذي تنزلت به الأديان السماوية... وإنما كان آلهتها أناسا... وأبطالها آلهة. وهي نزعة تتفق مع اتجاه التجسيم الحسي. قدر ما تبتعد عن التجريد المطلق وعبر عنها فلاسفة اليونان أصدق تعبير "الإنسان معيار الأشياء". وكانت هذه النزعة في أصل الإضافة التي قدمتها الحضارة الأوربية ألا وهي الحرية لأن تأليه الإنسان يفسح المجال أمام إرادته.. ويجعلها قانونًا ويبعد كل الضوابط أو التوجيهات التي يوجبها الإيمان با ، والحرية إحدى متطلبات العقلانية التي تحققها الوثنية – بمعنى تأليه الإنسان – أكثر مما يحققها أي دين سماوي.

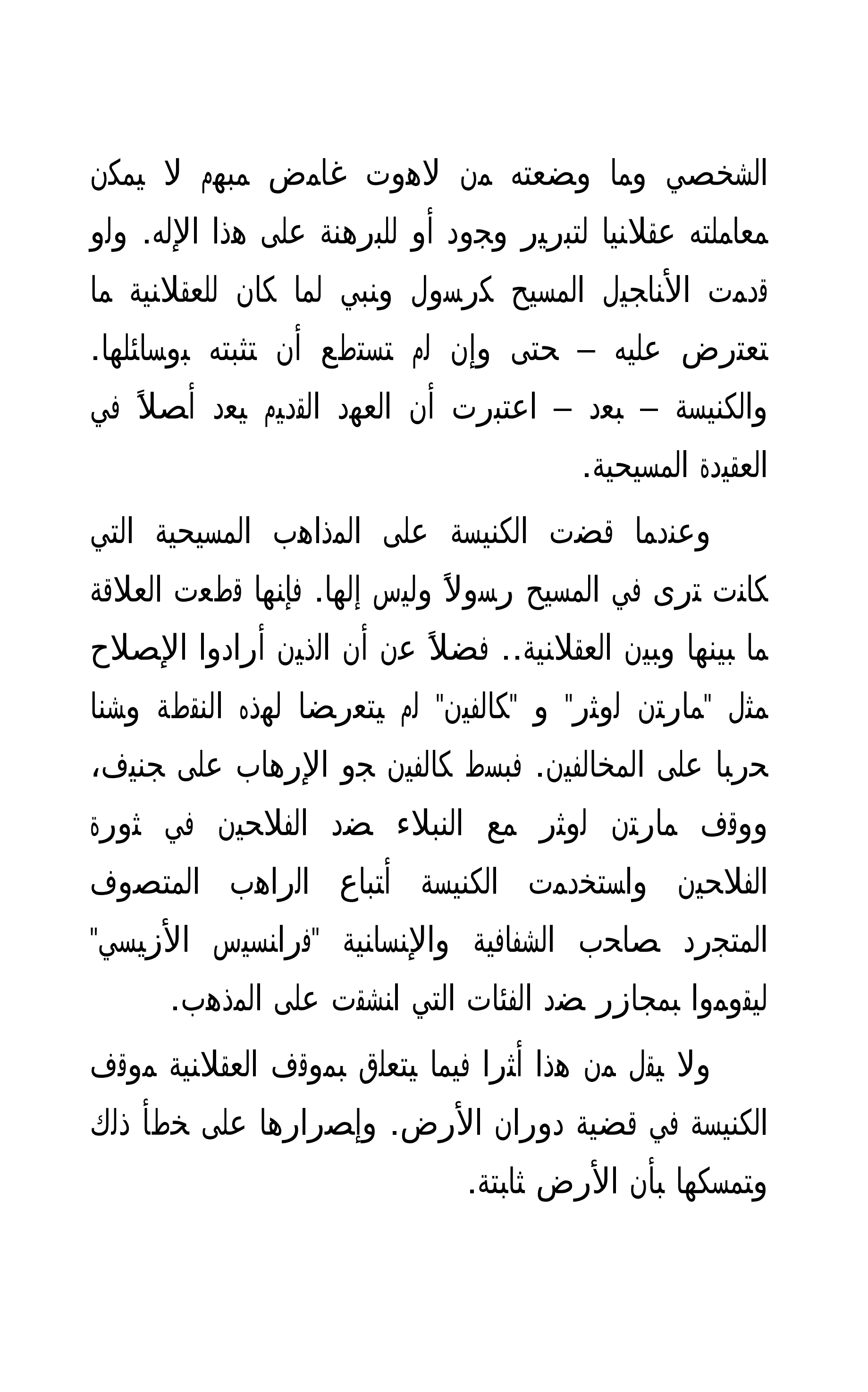
ويقترن بهذا، ولو في اللاشعور الخفي، إحساس الإنسان الأوربي بأن الدين قيد على حريته في الانطلاق على أهوائه سواء كانت الأهواء استمتاعا بالشهوات أو الاستخدام الطليق للقوة وهذه وتلك من أبرز سمات الحضارة الأوربية المعاصرة التي نجد جذورها في الحقبة اليونانية/ الرومانية للحضارة الأوربية وتظلل فروعها المجتمع الأوربي في الحديث.



وهذا العامل وإن لم يكن موضوعيا إلا أنه كان عظيم التأثير على العقلانية – وكاد أن يكون عاملاً وراثيا في النفسية الأوربية، ينعكس على تصرفاتها وتوجهاتها – ولا تستطيع التحرر منه.

٣- إن ما تضمنته الكتب السماوية لدى الأوربيين، أعني التوراة والإنجيل من تحريفات وادعاءات وقصص كانت كافية وزيادة لكي ينفض العقلانيون الأيدي منها. وتكفي نظرة سريعة على ما تضمنته بعض صفحات "العهد القديم" من مخاز نسبت إلى إله إسرائيل.. أو أنبيائهم للحكم بأنها لا يمكن أن تكون قد صدرت عن إله حكيم، أو حتى إنسان سوي لديه أقل إحساس بالشرف مما جعل أحد الكتاب يقول عن داود إنه رجل "ترفض أن تصافحه". أما ما جاء خاصا بالتاريخ أو الجغرافيا، فقد يبرر ما قاله فولتير عن أن ا   لم يكن قويا في الجغرافيا!!

حقًا إننا لا نجد هذه المخازي الجنسية والسياسية والخرافات التاريخية والجغرافية في الإنجيل الذي يدور حول أفكار سامية. ولكن العقلانية اصطدمت بعقبة كئود لم تسغها. وجعلتها في النهاية تنفض منه اليدين، تلك هي فكرة الإلة



الشخصي وما وضعته من لاهوت غامض مبهم لا يمكن معاملته عقلانيا لتبرير وجود أو للبرهنة على هذا الإله. ولو قدمت الأناجيل المسيح كرسول ونبي لما كان للعقلانية ما تعترض عليه – حتى وإن لم تستطع أن تثبته بوسائلها. والكنيسة – بعد – اعتبرت أن العهد القديم يعد أصلاً في العقيدة المسيحية.

وعندما قضت الكنيسة على المذاهب المسيحية التي كانت ترى في المسيح رسولاً وليس إلها. فإنها قطعت العلاقة ما بينها وبين العقلانية.. فضلاً عن أن الذين أرادوا الإصلاح مثل "مارتن لوثر" و "كالفين" لم يتعرضا لهذه النقطة وشنا حربا على المخالفين. فبسط كالفين جو الإرهاب على جنيف، ووقف مارتن لوثر مع النبلاء ضد الفلاحين في ثورة الفلاحين واستخدمت الكنيسة أتباع الراهب المتصوف المتجرد صاحب الشفافية والإنسانية "فرانسيس الأزيسي" ليقوموا بمجازر ضد الفئات التي انشقت على المذهب.

ولا يقل من هذا أثرا فيما يتعلق بموقف العقلانية موقف الكنيسة في قضية دوران الأرض. وإصرارها على خطأ ذلك وتمسكها بأن الأرض ثابتة.

واضطهاد كل العلماء والمفكرين الذين آمنـوا بـ دوران الأرض طوال ثلاثة قرون. وقصة دوران الأرض أو ثباتهـا ليست من الدين في شيء، ولا يعني تمسك الكنيسة بهـا إلا الغباء الذي كان لا بد وأن ينال ازدراء العقلانية.

أضف إلى ذلك محاكم التفتيش البابوية الرهيبة – والأحكام بالموت حرقًا على الألوف المؤلفة بدعوى الهرطقة أو السحر، وما مارسته الكنيسة من وسائل التعذيب المروعة وإقناعها الرهبان بأنهم يؤدون مهمة مقدسة إلى الدرجة التي جعلت أحدهم يشعر بتأنيب الضمير لأنه أعفى بعض الأطفال الصغار من التعذيب وما مارسته الكنيسة على الفكر والبحث وتأليف الكتب من رقابة حديدية.

إن المحرقة التي نصبتها الكنيسة لعشرات الألوف من المخالفين وفنون التعذيب المروعة في سجون محاكم التفتيش وقفت سدا بين العقلانيين – والإيمان بدين تمارس مؤسسته هذه الجرائم، وأصبح هذا العداء تقليدا تتوارثه أجيال العقلانية جيلاً بعد جيل، وكان من العمق بحيث استحال أن ينسى أو يغتفر.

لقد أخترت الكنيسة التقدم عدة قرون، وضللت وحيرت عقول كثير من المفكرين بما قدمته من مقولات توراتية وافتراضات لاهوتية وبسطت نفوذها على المجتمعى الأوروبى، ولم يستطع التحرر منها إلا بعد الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م.

٤- لم تجد العقلانية في دراساتها للأديان الأخرى – خلاف اليهودية والمسيحية – ما يمكن أن يصحح فكرتها عن الدين. فالديانة المصرية القديمة وديانة الآشوريين وديانة اليونانيين والرومان.. كلها تقدم ا في صورة الأجداد أو الحيوانات المقدسة أو القوى الطبيعية أو تنسب إليه كل النزق الإنساني والضعف البشري.

ولم تكن الديانات الهندية التي ظفرت ببعض العناية بأفضل من سابقاتها ففيها طبقية قاتلة أو صوفية مغرقة وربطت دراسات أخرى ما بين الدين و "الفولكلور" في المجتمعات البدائية فأكدت لهم هذه الدراسة ما وجدوا أنفسهم مدفوعين للإيمان به من أن الأديان كلها أقرب إلى الخرافة.. منها إلى الحقيقة.

ومن سوء حظ أوروبا أن الدين الوحيد الذي كان يمكن أن يصحح لهم المفاهيم، وهو الإسلام. كان مجهولاً لديهم. فقد نجحت الكنيسة من أيام الحروب الصليبية في أن تسدل ستارا كثيفًا عليه وأن تحجبه عن الفكر الأوربي، وتلاقت السياسة والكنيسة والأطماع الاستعمارية والغرور الأوربي الذي يعتبر الحضارة إرثًا أوربيا بدأ مع اليونان ثم الرومان ثم "الرينسانس" فالقوميات والفترة المعاصرة وأدت في النهاية لحصر الوعي الحضاري لدى الأوربيين في أنفسهم وفي الحضارة الأوربية وحدها:

وبهذا لم ير العقلانيون الأوربيون دينًا دون كنيسة أو صورة تجمع بين التجريد والحياة والكمال والإطلاق. ولم يسمعوا بمواقف محمد إزاء المخالفين له في العقيدة أو حتى المحاربين له. ولم يخطر ببالهم نظام كالبيعة أو سياسات كسياسات الخلفاء الراشدين أو "ديمقراطية الجامع" في المدينة المنورة التي فاقت "ديمقراطية السوق" في أثينا. لأنها ضمت الرقيق والنساء. وعندما سمحت ظروف العصر الحديث للأوربيين بالتعرف على الإسلام – كانت المجتمعات الإسلامية قد وصلت إلى درك الانحطاط والتخلف فكانت

أسوأ دعاية للإسلام. وأعطت الفكر الأوربي – مع قلة المراجع والكتابات أو ندرتها – انطباعا سيئًا – لم ينج منه إلا القلة التي تحررت من التحيزات وتحملت مشقة البحث عن الحقيقة وبادر بعض هؤلاء إلى إعلان إسلامهم بينما صرح آخرون أنهم – وإن آمنوا بالإسلام فإن القطار قد فاتهم أو أنهم لا يستطيعوا إعلان ذلك لأسباب تتعلق بالظروف العامة أو الأوضاع الخاصة.

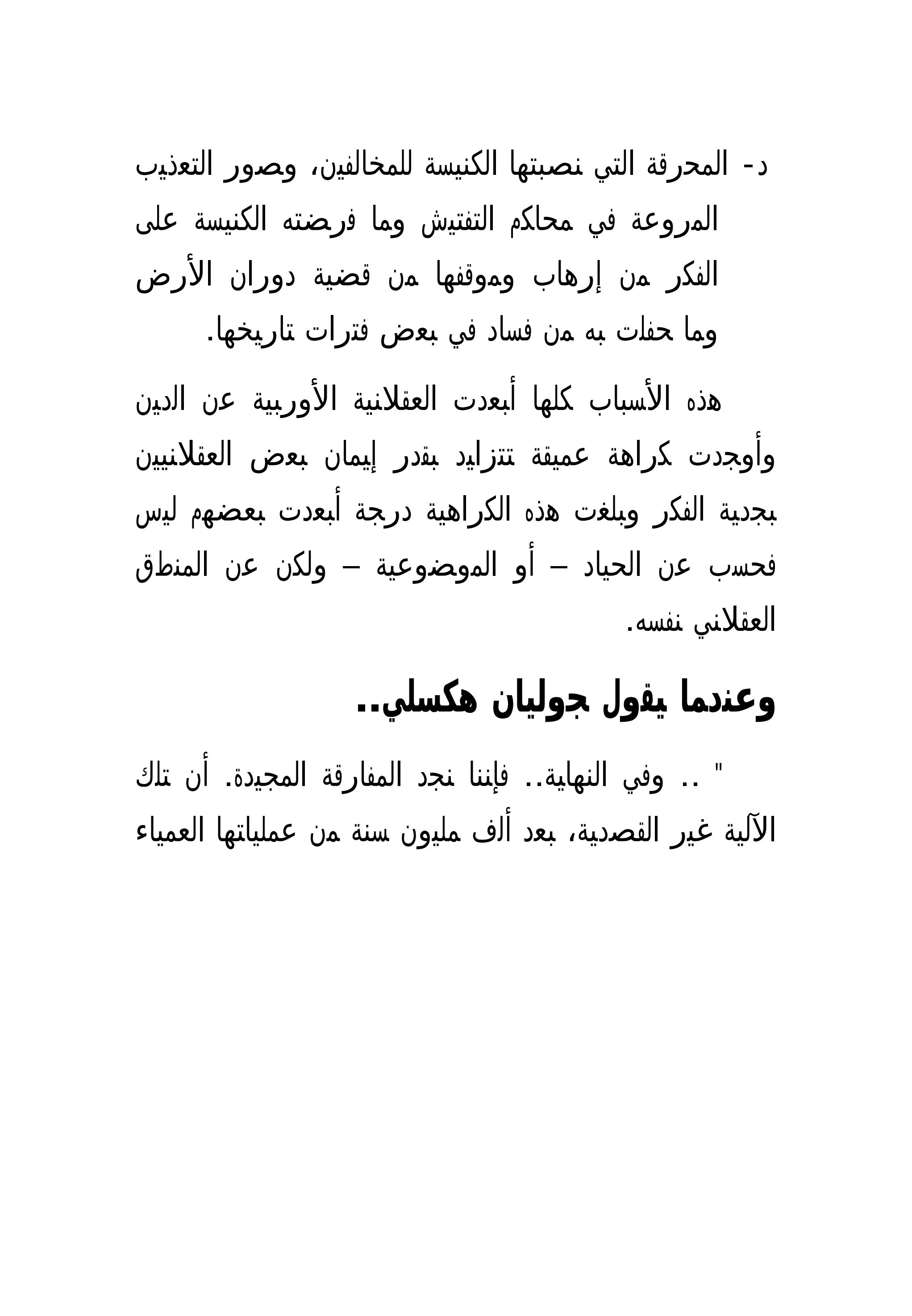
* * *

إن هذه العوامل كلها – أعني:

أ- ارتباط العقلانية بالنزعة الحسية أو الرياضية التي تبعدها عن عالم ا .. والروح.. وما وراء الموت.

ب- التحريفات والمخازي والمخالفات الفاحشة، فيما يتعلق بالخلق والتاريخ والجغرافيا التي تضمنها "العهد القديم" والتعقيد اللاهوتي في فكرة الثالوث والإله الشخصي.

ج- ما حفلت به الأديان الوثنية القديمة من خرافات وترهات، وجهل العقلانية الأوربية بالدين الذي كان يمكن أن يصحح لها الصورة – وهو الإسلام.



د- المحرقة التي نصبتها الكنيسة للمخالفين، وصور التعذيب المروعة في محاكم التفتيش وما فرضته الكنيسة على الفكر من إرهاب وموقفها من قضية دوران الأرض وما حفلت به من فساد في بعض فترات تاريخها.

هذه الأسباب كلها أبعدت العقلانية الأوربية عن الدين وأوجدت كراهة عميقة تتزايد بقدر إيمان بعض العقلانيين بجدية الفكر وبلغت هذه الكراهية درجة أبعدت بعضهم ليس فحسب عن الحياد – أو الموضوعية – ولكن عن المنطق العقلاني نفسه.

وعندما يقول جوليان هكسلي..

" .. وفي النهاية.. فإننا نجد المفارقة المجيدة. أن تلك الآلية غير القصدية، بعد ألف مليون سنة من عملياتها العمياء

والآلية ولدت "القصد" كأحد الصفات الخاصة التي تنسب إلى نوعنا – وبأدائها لهذا، كأنها جاوزت نفسها"[1].

فإن هذا الكلام – يلقي حكما على عواهنه خلال "ألف مليون سنة "دون أي إثبات، بل باعترافه هو بأنها "مفارقة مجيدة" و "جاوزت نفسها".

وأسوأ من هذا.. وأبعد.

"لو جلست ستة من القردة على الآلة الكاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين – فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير. فكذلك كان الكون الموجود نتيجة لعمليات عمياء تدور حول المادة لملايين السنين".

فهذا الافتراض الذي تكذبه كل قوانين الاحتمالات ما كان يمكن أن يتقدم به هكسلي، لولا أن الصورة التي قدمتها الكنيسة، وما حفل به العهد القديم من مخاز كانت أسوأ، وأن

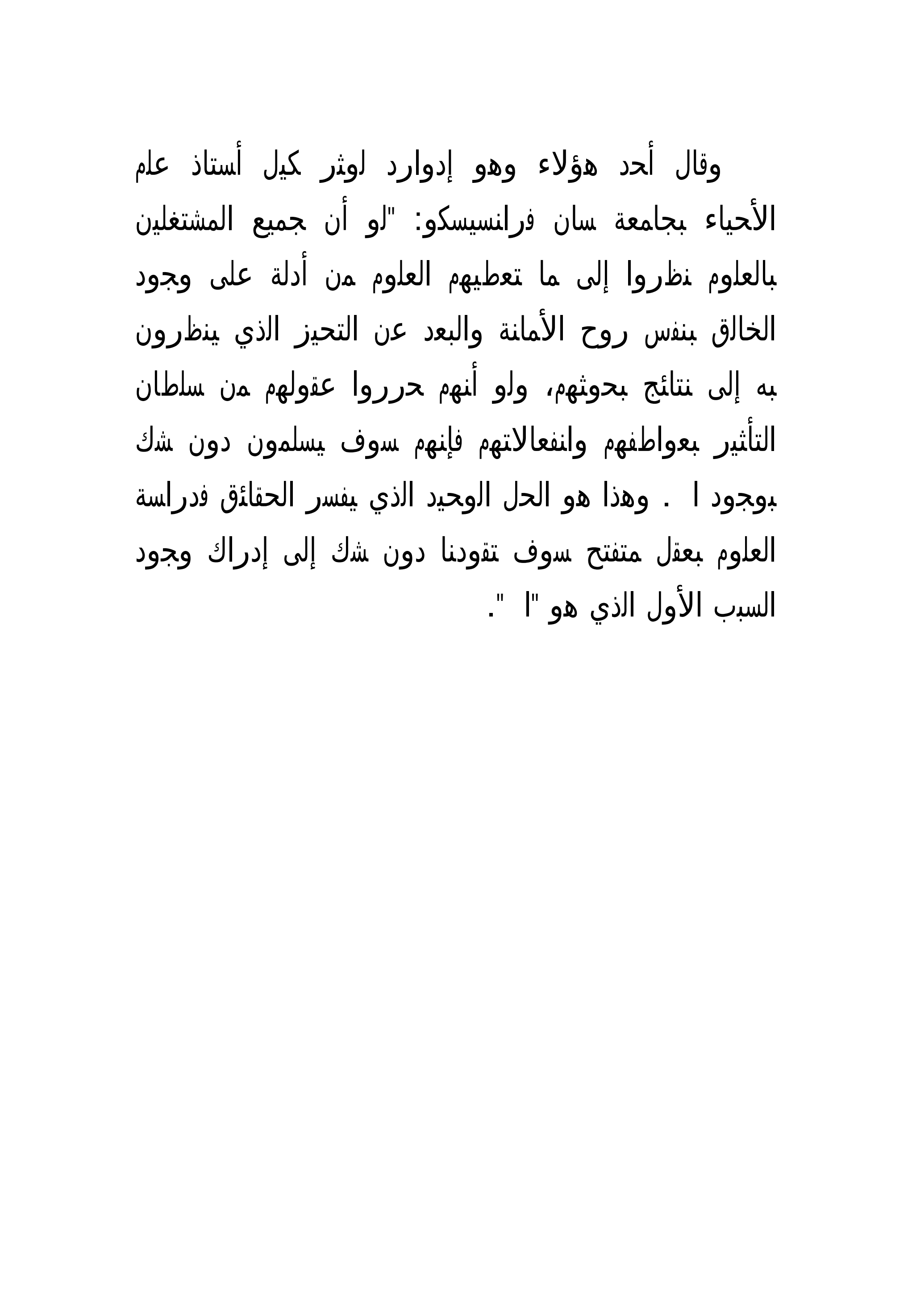
---

(١) أنظر مقالاً في مجلة the Rationalist Annual بقلم جوليان هكسلي بعنوان "تبرئة الدارونية The vindication of Darwinsm ص ٨٧ عدد ١٩٤٦.

جوليان هكسلي هنا يكرر ما فعله جده "توماس هكسلي " ١٨٢٥ – ١٨٩٥. صديق داروين ونصيره في المناظرة الشهيرة التي جرت بينه وبين ويلبر فورس ممثل الكنيسة عندما سأله "إلى أي فصيلة من القرود ينتمي ؟ فقال هكسلي: " إنه يفضل أن يكون سليلاً لأي فصيلة من القرود على أن يكون دجالاً يستخدم ذكاءه في التضليل والخداع".

وكان الحفيد وهو رأس من رءوس العقلانية في غنى عن افتراض المستحيل، كما كان الجد في غنى عن أن يتقبل أن يكون سليلاً للقرود لو انفسح المجال لمعالجة القضية معالجة موضوعية، ولكن وجود الكنيسة ومواقفها نقلت الموضوع نقلة ذاتية أصبح النكران فيه أفضل الأمرين.

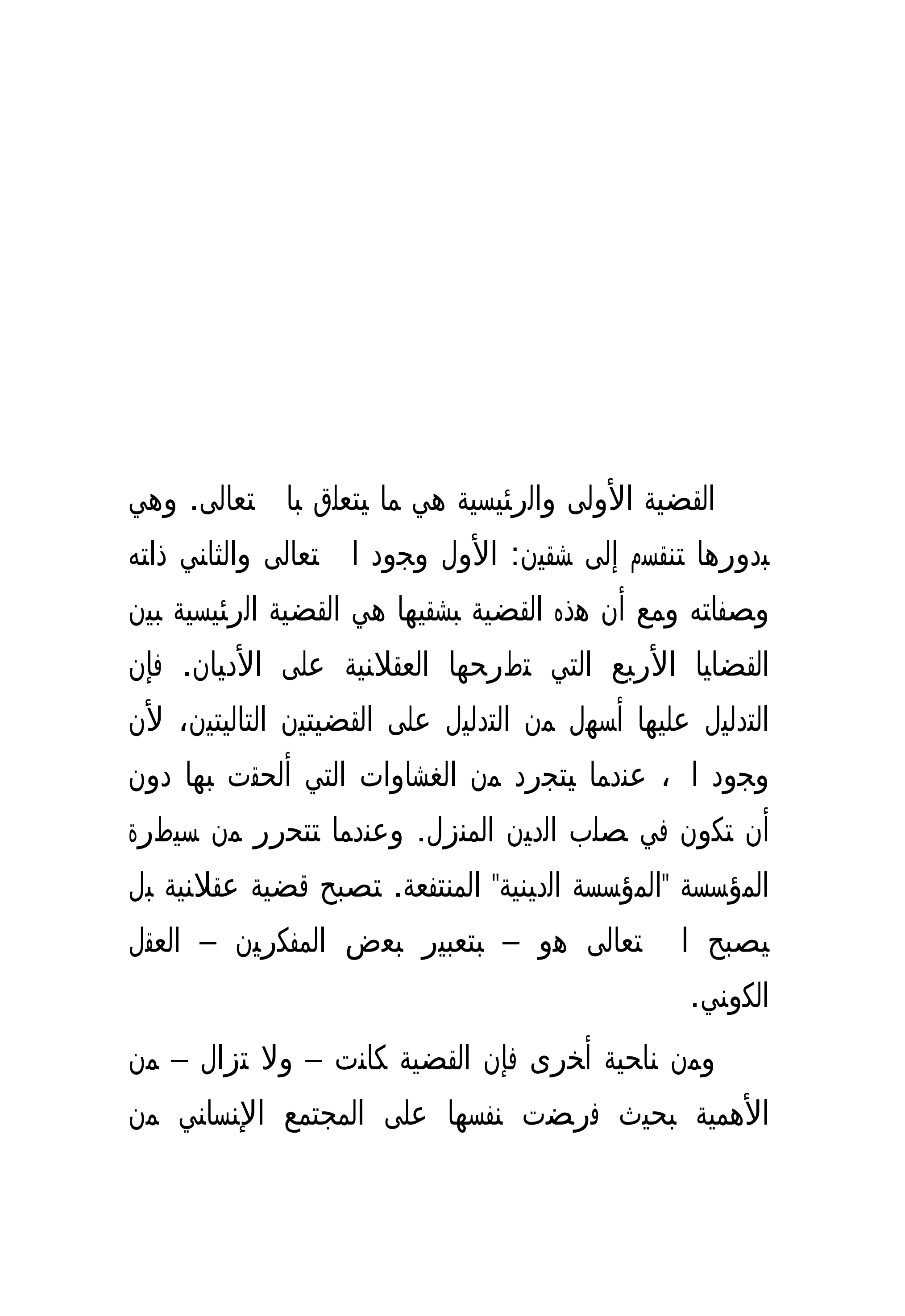
ولم يقتصر هذا المسلك على هكسلي، إذ أصبح التحيز ضد الدين صفة لصيقة بالعلماء في فترة ما.. لأن مواقف الكنيسة أصبحت في حكم الأمر المقرر والدائم، ولأن الكنيسة هي صوت الدين والممثلة له، وبالتالي لم يجد العلماء خيارا ولم تستطع أن تتحرر من هذا المسلك إلا قلة تحملت عناء ومشقة البحث عن الحقيقة، فلما بلغتها اعترفت بتحيزها السابق "التقليدي" ضد الدين.



وقال أحد هؤلاء وهو إدوارد لوثر كيل أستاذ علم الأحياء بجامعة سان فرانسيسكو: "لو أن جميع المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز الذي ينظرون به إلى نتائج بحوثهم، ولو أنهم حرروا عقولهم من سلطان التأثير بعواطفهم وانفعالاتهم فإنهم سوف يسلمون دون شك بوجود ا . وهذا هو الحل الوحيد الذي يفسر الحقائق فدراسة العلوم بعقل متفتح سوف تقودنا دون شك إلى إدراك وجود السبب الأول الذي هو "ا ".

الفصل الأول

وجود الله تعالى وذاته



القضية الأولى والرئيسية هي ما يتعلق با تعالى. وهي بدورها تنقسم إلى شقين: الأول وجود ا تعالى والثاني ذاته وصفاته ومع أن هذه القضية بشقيها هي القضية الرئيسية بين القضايا الأربع التي تطرحها العقلانية على الأديان. فإن التدليل عليها أسهل من التدليل على القضيتين التاليتين، لأن وجود ا ، عندما يتجرد من الغشاوات التي ألحقت بها دون أن تكون في صلب الدين المنزل. وعندما تتحرر من سيطرة المؤسسة "المؤسسة الدينية" المنتفعة. تصبح قضية عقلانية بل يصبح ا تعالى هو – بتعبير بعض المفكرين – العقل الكوني.

ومن ناحية أخرى فإن القضية كانت – ولا تزال – من الأهمية بحيث فرضت نفسها على المجتمع الإنساني من

نشأنه الأولى حتى الآن ويصعب الزعم أن موضوعا له هذه الصفة لا يكون له أصل حقيقي، إذ ما الداعي، إذا لم يكن له أصل، أن يفرض نفسه على الإنسان البدائي وعلى الفيلسوف المعاصر... وبأي تفسير نبرر تسليم الثالوث الفلسفي القديم سقراط وأفلاطون وأرسطو. والثالوث الفلسفي الحديث – ديكارت وكانت وهيجل.

لقد ظن بعض الكتاب أن هذه النقطة نفسها يمكن أن تكون أساسا للادعاء بأن ا "مخلوق إنساني". إذ نجد أن صورة ا لدى الإنسان البدائي تتلاءم مع مستوى فكره وأن الصور التي نجدها في الحضارات القديمة – كالحضارة المصرية – والحضارة اليونانية حتى الحضارة الرومانية، بما في ذلك الحضارة الهندية... كلها صور وثنية تتجسم في حيوانات أو أجداد أو طبيعة (شمس – بحر إلخ...) ولكن هذا الظن يخلط بين شقي القضية –أي وجود ا تعالى... وتصور ذاته وصفاته. فكل المجتمعات توصلت إلى وجود ا واهتدت إلى فكرة وجود خالق، واستبعدت، على سذاجتها، فكرة الوجود التلقائي أو الوجود مصادفة ولكنها أخطأت في تصوير ذات ا . وكان لا بد أن تخطيء في هذا

إذ لم يكن ممكنًا أن تتوصل إلى تصور أعلى من مداركها.. فضلا عن أن العقل الإنساني وإن رفض – في مرحلة نضجه – هذه التصورات البدائية ، إلا أنه يعجز عن التصور "الإيجابي" الكامل لذات ا . وكان لا بد من "وحي" ينقل إلى الإنسان شعاعا من شمس الألوهية الباهرة التي لا يستطيع الإنسان التوصل إليها.

ولو جاز أن يتوصل العقل الإنساني إلى ذات ا ، لما كان هناك حاجة إلى الأديان السماوية... أو إلى الرسل.. أو الوحي ولأصبح من الممكن أن يقوم الفلاسفة بهذا – ولكن الفلاسفة عجزوا من سقراط حتى هيجل عن تقديم صورة تماثل ما جاء به الوحي حتى وإن اقتربت كثيرا منه.

وهكذا تتضح القضية – فإن فكرة وجود ا كانت ولا تزال مغروسة في الفطرة الإنسانية – وقد صاحبت الإنسان من ظهوره – وتضمنتها كل الحضارات منذ ظهور المجتمع الإنساني وعلى اختلاف أوضاعها ومواقعها ونظمها وطرق إنتاجها... إلخ. ولا يمكن تعليل هذه الظاهرة إلا بأن لها أصلاً – وما أخطأته هذه الحضارات هو تصور ذات ا تعالى وصفاته. وهو أمر لا نجادل فيه. بل نسلم به ونرى أنه

المبرر لظهور الديانات السماوية التي تقدم ما يمكن للعقل البشري استيعابه من تصور لذات ا . فإذا قيل إن السذاجة أو حتى الخرافة قد صاحبت تصور ذات ا في بعض الأديان السماوية كاليهودية أو المسيحية قلنا إن هذا ليس من حقيقة اليهودية أو المسيحية، ولكنه التحريف الذي زحف عليها. وهو تحريف ثبت يقينًا بما لا يمكن الشك فيه واعترف به كل الدارسين للتوراة والأناجيل. أن هذا التحريف ويمكن أن نقول إن هذا التحريف فرضته طبائع الأشياء قبل ظهور التوثيق الذى يؤخذ به ومع تعدد الترجمات، ومع وجود المؤسسة الدينية المنتفعة التى أعطت نفسها حقاً فى التحليل والتحريم، وهو الأمر الطبيعي في أي دين يوجد به "المؤسسة الدينية المنتفعة" وهو ما ينطبق على المسيحية واليهودية. ونحن هنا لا نقول إلا ما أكده الباحثون الأوربيون أنفسهم – وما تقضي به طبائع الأشياء – إذ ليس من المعقول أن يحتفظ نص بحروفه ومضمونه الدقيق على مدار ثلاثة آلاف سنة أو يكون ما كان عليه عندما يتعرض للترجمة لا مرة واحدة، ولكن عدة مرات. وقد اتهمت الكنيسة الكاثوليكية لوثر بأنه أجرى قرابة ثلاثين تحريفًا في نصوص الكتاب المقدس

ليتفق مع مذهبه، بل إننا نقرأ فى طبعات جديدة إشارة إلى تعديلات عما كان فى طبعات قديمة.

الفلاسفة يثبتون وجود ا :

كانت نقطة انطلاق الفلاسفة التي أدت بهم إلى التسليم بوجود ا هي الخالق واستبعادهم أن يوجد هذا الكون تلقائيا أو مصادفة ومن ثم عليهم أن يسلموا بوجود "علة أولى" بلغة المناطقة أو "قوة خفية" بتعبير هربرت سبنسر، أو "التطور الخالق" كما يقول برجسون. ولم يسمح لهم منطقهم أو فلسفتهم بأن يذهبوا إلى ما وراء ذلك.

وفي الوقت نفسه فقد شذ بعض المفكرين، وظنوا أن الإيمان با عند عامة الناس إنما يعود إلى جهالتهم بالأسباب فينسبون إلى ا الإصابة بالأمراض أو إسقاط المطر أو إحداث الرعد والبرق والصواعق... فإذا أثبت العلم أن الأمراض تعود إلى "ميكروبات" وأن الأمطار والرعد والبرق والصواعق لها أسبابها التي كشف عنها علم الفلك انتفت الحاجة إلى "إيجاد" إله يعزى إليه القيام بها.

وعبر عن هذا المعنى أوجست كونت عندما قال:

"إن الاعتقاد في إرادات أو ذوات عاقلة لم يكن إلا تصورا باطلاً نخفي وراءه جهلنا بالأسباب الطبيعية. أما الآن وكل المتعلمين من أبناء المدنية الحديثة يعتقدون بأن كل الحوادث العالمية والظاهرات الطبيعية لا بد أن تعود إلى سبب طبيعي وأنه من المستطاع تعليلها تعليلاً مبناه العلم الطبيعي – فلم يبق من فراغ يسده الاعتقاد بوجود إله – ولم يبق سبب يشوقنا إلى الإيمان به..."[2].

وهو المعنى الذي صوره "الزهاوي" فترة إلحاده.

لما جهلت من الطبيعة أمرها	وأقمـت نفسك من مقام معلل
أثبت ربـا تبتغى حـلا به	للمشكلات – فكان أكبر مشكل!

ولكن اكتشاف الأسباب الطبيعية لا يغلق الكتاب ولا يحل المشكلة كما تصور أوجست كونت – لأن العقل البشري سيسأل عن السر وراء هذا التصرف من الطبيعة – فضلاً عن أن كلمة "الطبيعة" تجريد – فيه من الإبهام ما لا يمكن

---

(١) انظر بحثًا للأستاذ إسماعيل مظهر في افتتاحية العدد الصادر في ١٥ يوليو ١٩٤٧ عن مجلة المقتطف بعنوان "ا وفكرة الألوهية أو الربوبية" ص ٨٥.

تعليق الأحكام. وكما قال أحد الكتاب في تعليق على كلام أوجست كونت إن موضع الضعف فيه.

"ينحصر في الاعتقاد بأنه لا يوجد في الكون من شيء يحتاج إلى تعليل أكثر من وصل الحلقات المتفرقة في سلسلة الظاهرات الطبيعية التي يتألف منها الكون المادي في مجموعة بعضها ببعض في حين أن السلسلة في مجموعها – باعتبارها كلا متواصل الأسباب لم يعرف سببها الأول[٣] ".

ولما كانت الأسباب الطبيعية قد عجزت عن تعليل ذلك. فإن الاحتمال الوحيد أمام العقل هو وجود إرادة يعود إليها السبب، ولا بد أن تكون هذه الإرادة من القوة والحكمة بحيث تكون قادرة على خلق هذه الظواهر – أي لا بد من "ا " "فألفة العقل" تقتضي وجود الألوهية.

ولا يمكن التساؤل عن السبب في وجود ا لأن هذا سيؤدي بنا إلى ما يسميه المناطقة "الدور" الذي لا ينتهي ولا

---

[٢] المرجع السابق ص ٨٧.

يحل المشكل ويصبح أقرب إلى العبث لأنه يضحي بالواقع في سبيل جدل منطقي مظنون.

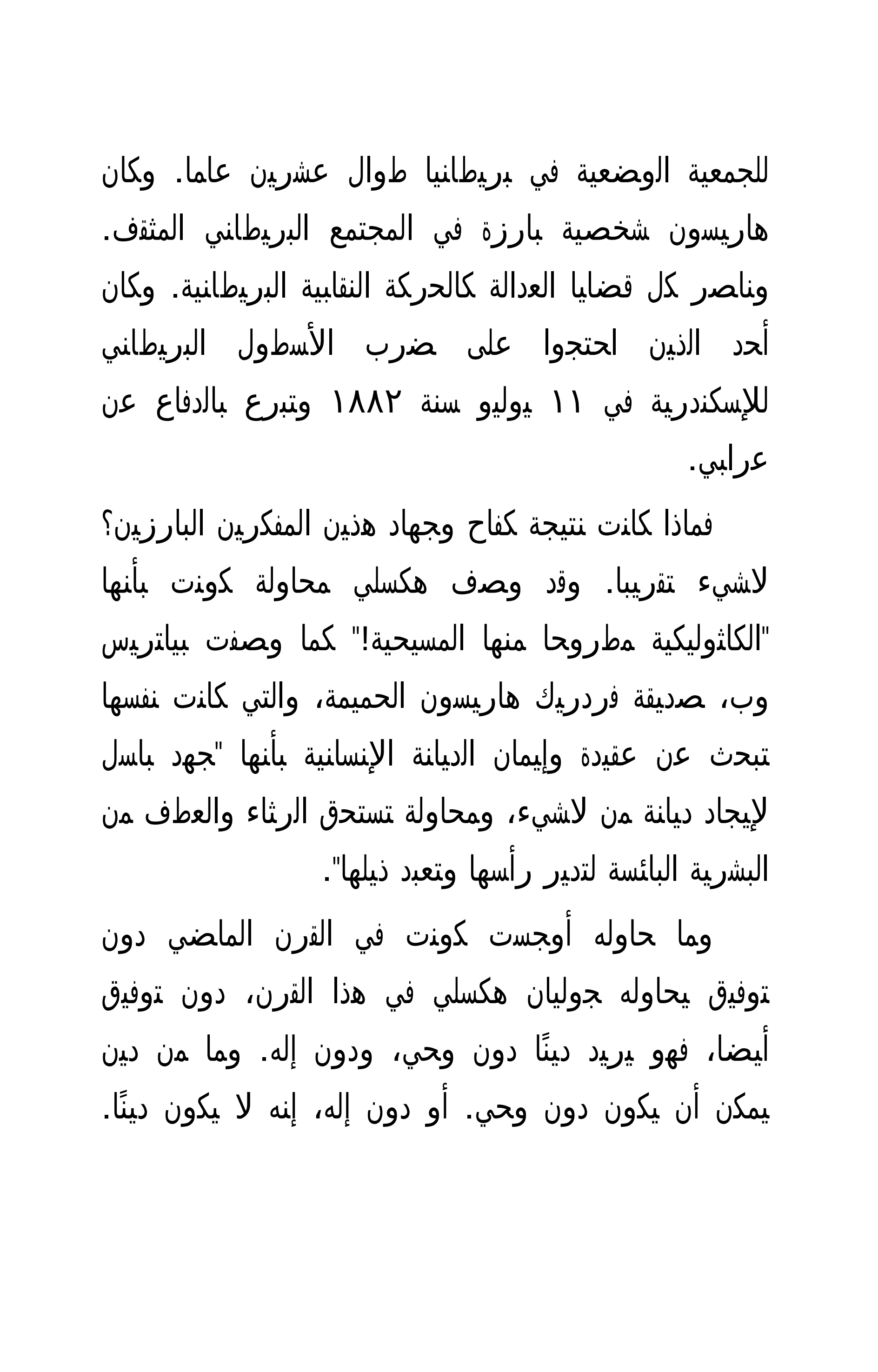
ورأى شارلس كنجسلى وهو رجل فكر ودين ومعاصر لداروين أن ا تعالى قد فعل ما هو أروع من خلق مباشر، حين خلق عالما يمكن أن يخلق ذاته، وعبر معاصره مور **Moore** عن ذلك عن ذلك بقبوله أنه (أى داروين) قدم للإيمان خدمة صديق فى ثوب عدو حين عدل عن نظرية التدخل الإلهى بالخلق المباشر إلى خلق متواصل[٤].

وحاول أوجست كونت وضع أسس ديانة إنسانية تقوم على المعنويات والمحبة وتستهدف التقدم ولا تدين لكنيسة أو تؤمن بإله فوق البشر[٥]. وحاول أن يطبق هذه الفكرة في بريطانيا تلميذه المخلص فردريك هاريسون الذي ظل رئيسا

---

[١] كتاب ما وراء العلم جون بوكنجهام ترجمة على يوسف ص٧٨- ٧٩.

[٢] قيل إن أوجست كونت انتهى إلى أن الإسلام أقرب الديانات إلى العقلانية، ولم يكن لهذا مردود عملي، لأن الجو الذي أحاط به لم يكن ليسمح بذلك، وشأنه شأن، بورجيه، الذي ألم بامتياز الإسلام آخر عمره، وبعد أن فاته القطار.



للجمعية الوضعية في بريطانيا طوال عشرين عاما. وكان هاريسون شخصية بارزة في المجتمع البريطاني المثقف. وناصر كل قضايا العدالة كالحركة النقابية البريطانية. وكان أحد الذين احتجوا على ضرب الأسطول البريطاني للإسكندرية في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وتبرع بالدفاع عن عرابي.

فماذا كانت نتيجة كفاح وجهاد هذين المفكرين البارزين؟ لاشيء تقريبا. وقد وصف هكسلي محاولة كونت بأنها "الكاثوليكية مطروحا منها المسيحية!" كما وصفت بياتريس وب، صديقة فردريك هاريسون الحميمة، والتي كانت نفسها تبحث عن عقيدة وإيمان الديانة الإنسانية بأنها "جهد باسل لإيجاد ديانة من لاشيء، ومحاولة تستحق الرثاء والعطف من البشرية البائسة لتدير رأسها وتعبد ذيلها".

وما حاوله أوجست كونت في القرن الماضي دون توفيق يحاوله جوليان هكسلي في هذا القرن، دون توفيق أيضا، فهو يريد دينًا دون وحي، ودون إله. وما من دين يمكن أن يكون دون وحي. أو دون إله، إنه لا يكون دينًا.

وإنما نظرية إنسانية ولا بد – في هذا المجال – أن يكون مصيرها الفشل.

وفي الاتحاد السوفيتي أيضا وجدت مع أوائل القرن جماعة باسم "الباحثين عن ا " بذلت جهدها للتوفيق بين فكرة ا والماركسية، ولكن الجماعة اختلفت وانبثقت عنها مجموعة جديدة لا تعمل للبحث عن ا ... ولكن لبناء ا !.

والفرق بين الاتجاهين هو في مفهوم ا في كل اتجاه، فالباحثون عن ا ظلوا مرتبطين بالفكرة المسيحية، أما البناة فإن ا – في نظرهم – لم يوجد بعد.. ولكن جهد الإنسانية الجماعي يجب أن يبني إلها جماعيا اشتراكيا ساميا، ووجدت هذه النظرية في المفكر الاشتراكي "بوجدانوف" رفيق لينين القديم ظهيرا وفيلسوفًا، كما فتنت عددا آخر من الشيوعيين القدماء وأيدها الكاتب مكسيم جوركي"الذي كان قد آثر الاعتكاف في كابري عندما صدمه العنف الذي اتسمت به الثورة، وكان تأييد جوركي لهذه النزعة من القوة بحيث أكسبها اسم "مدرسة كابري".

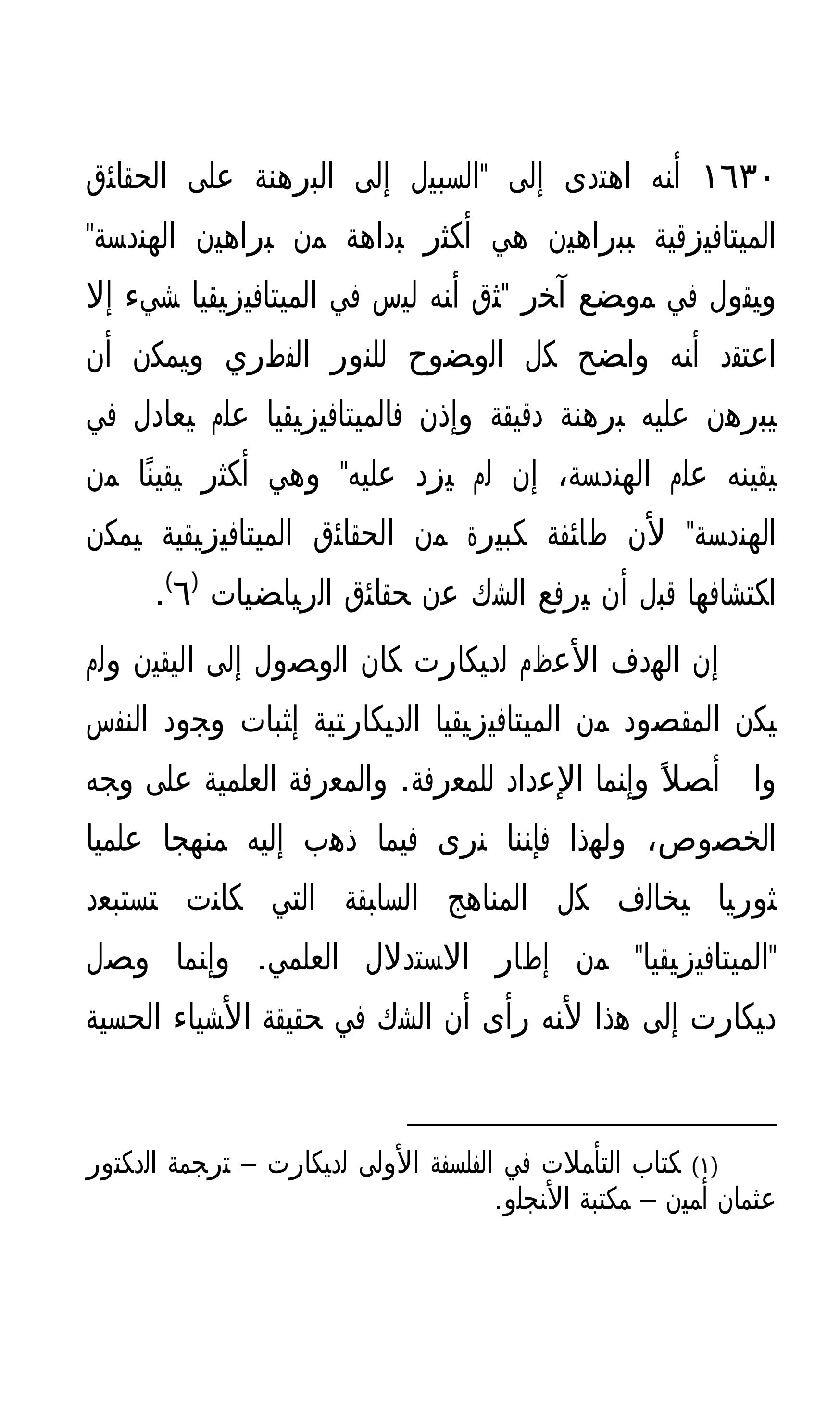
وباستعراض قائمة الفلاسفة من سقراط حتى الفترة المعاصرة، نجد أنه لم يشذ عن الإيمان با إلا قلة وقفت

حائرة، ترجع البصر ليعود إليها البصر وهو حسير. أما الأغلبية فآمنت، فقد آمن سقراط وأفلاطون وأرسطو، كما آمن روسو، با وخلود الروح والثواب والعقاب، ولم يجد "لوك" تنافرا ما بين الوحي والعقل وارتأى أن التوفيق بين الدين والفلسفة أمر ميسور، وكان "هوبز" مسيحيا ملتزما. وكان كانت مؤمنًا با ، ووضع دليله المشهور لذلك، كما قامت فلسفة هيجل على أساس وجود ا . وسنعالج في الفقرات التالية أفكار بعض الفلاسفة بالنسبة لقضية وجود ا .

مدخل ديكارت:

يستحق ديكارت اهتماما خاصا باعتباره المفكر الذي نهج الوصول إلى الحقيقة نابذًا وراء ظهره كل الموروثات، وجاعلاً الشك طريق اليقين ورائدا للعقلانيين جميعا.

وفي كتابه "التأملات" جاء ديكارت بمدخل جديد يقلب رأسا على عقب كل دعاوى العقلانيين المزعومة، فقد ذهب إلى أن "الميتافزيقيا" علم دقيق يمكن إثبات قضاياه بيقين رياضي وصرح في الرسالة التي كتبها في ١٥ أبريل سنة



١٦٣٠ أنه اهتدى إلى "السبيل إلى البرهنة على الحقائق الميتافيزقية ببراهين هي أكثر بداهة من براهين الهندسة" ويقول في موضع آخر "ثق أنه ليس في الميتافيزيقيا شيء إلا اعتقد أنه واضح كل الوضوح للنور الفطري ويمكن أن يبرهن عليه برهنة دقيقة وإذن فالميتافيزيقيا علم يعادل في يقينه علم الهندسة، إن لم يزد عليه" وهي أكثر يقينًا من الهندسة" لأن طائفة كبيرة من الحقائق الميتافيزيقية يمكن اكتشافها قبل أن يرفع الشك عن حقائق الرياضيات [٦].

إن الهدف الأعظم لديكارت كان الوصول إلى اليقين ولم يكن المقصود من الميتافيزيقيا الديكارتية إثبات وجود النفس وا أصلاً وإنما الإعداد للمعرفة. والمعرفة العلمية على وجه الخصوص، ولهذا فإننا نرى فيما ذهب إليه منهجا علميا ثوريا يخالف كل المناهج السابقة التي كانت تستبعد "الميتافيزيقيا" من إطار الاستدلال العلمي. وإنما وصل ديكارت إلى هذا لأنه رأى أن الشك في حقيقة الأشياء الحسية

---

(١) كتاب التأملات في الفلسفة الأولى لديكارت – ترجمة الدكتور عثمان أمين – مكتبة الأنجلو.

معناه العدول عن كل معرفة لا تكون قائمة على حدس من حدوس العقل. والحدس عند ديكارت عبارة عن الرؤية العقلية المباشرة التي يدرك بها الذهن بعض الحقائق فتذعن لها النفس – وتوقن بها يقينًا لا سبيل إلى دفعه.

فالحدس نظرة من نظرات العقل بلغت من الوضوح مبلغًا يزول معه كل شك. والحدس عقلي لا يتعلق بالحواس ولا بالخيال، إنما يتعلق بالذهن – بل الذهن الصافي. وبهذا المنهج فإن ديكارت الرياضي وجد أن فكرة ا في مثل وضوح قاعدة هندسية "مجموع زوايا المثلث يساوي قائمتين، وا موجود – هما قضيتان متعادلتان في اليقين"[٧].

وحدد ديكارت تصوره تعالى
"أقصد بلفظ ا جوهرا لا متناهيا أزليا – منزها عن التغيير – قائما بذاته محيطًا بكل شيء قادرا على كل شيء، خالدا – ثابتًا قد خلقني أنا وجميع الأشياء ويستطرد – وهذه الصورة قد بلغت من العلو قدرا

---

[٢] المرجع السابق ص ٢٥ .

يجعل من المستحيل أن أكون قد اكتسبت
من نفسي الفكرة التي لدي عنها – ولذلك
فإن هذه الفكرة لا يمكن أن يكون قد
وضعها إلا جوهر لا متناه حقًا وإذن فا
موجود[٨].

ويرفض ديكارت فكرة "وحدة الوجود " لأن ا هو خالق لمخلوقاته لا متحد بها – ويتجلى حضوره فينا بما نستشعره من حاجة دائمة إلى بلوغ الكمال[٩].

إن كتاب التأملات "لديكارت" يمكن أن يكون أفضل إثبات لوجود ا يأتي به فيلسوف العقلانية الحديثة وهو يفضل كثيرا الأسلوب الذي انتهجه فقهاء علم الكلام الإسلاميين الذي يعود إلى أصول المنطق الأرسطي ولهذا يصدق عليه ما قاله ديكارت على الكنيسة "لقد كان رأيي دائما أن مسألة ا والنفس أهم المسائل التي من شأنها أن تبرهن بأدلة فلسفية خيرا مما تبرهن بأدلة اللاهوت "حتى

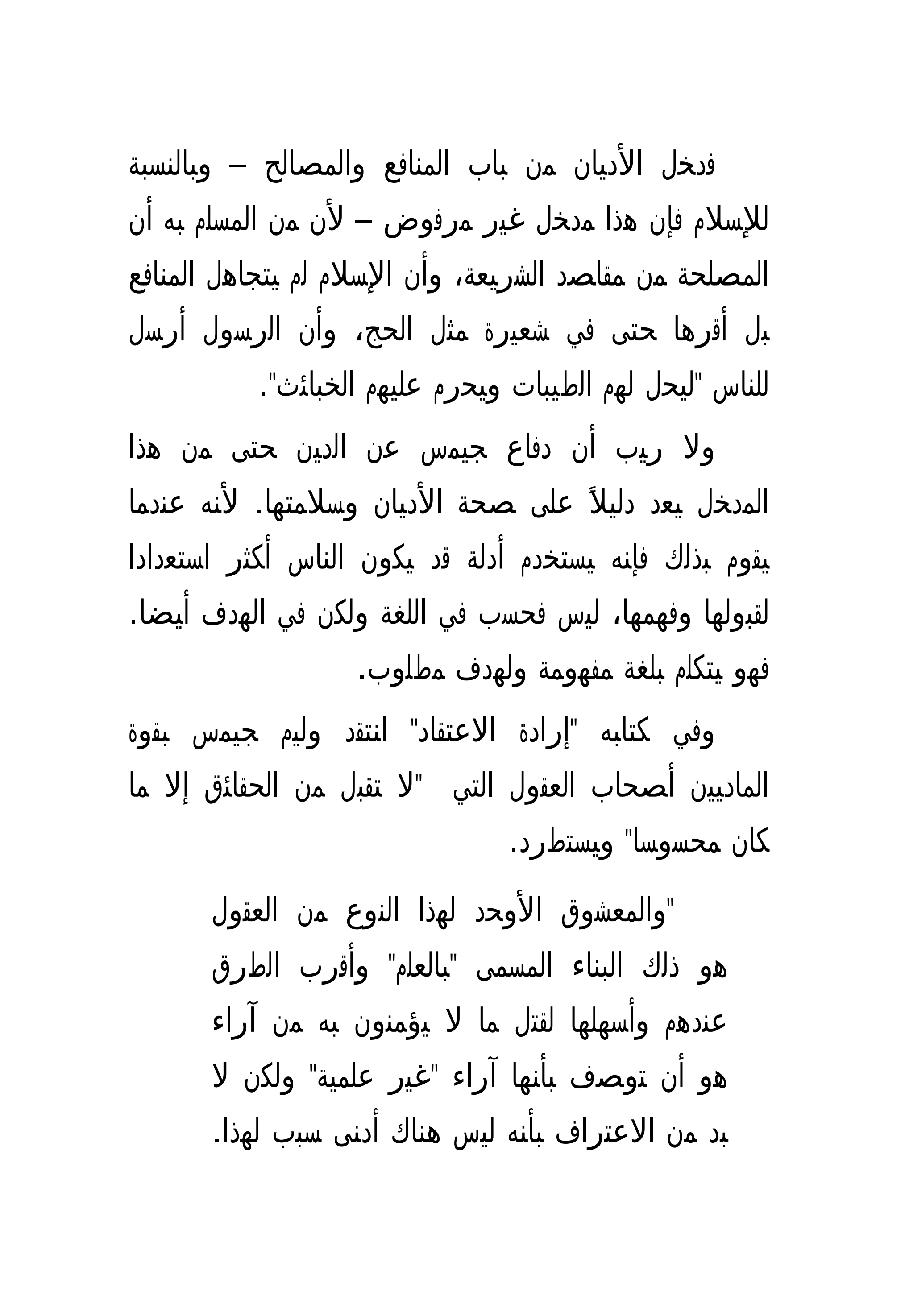
---

[١] المرجع السابق ص ١٢٤ .
[٢] المرجع السابق ص ٢٢ .

وإن لم يكن علم الكلام "لاهوتًا" خالصا كاللاهوت المسيحي، وإنما يفضل المنهج الديكارتي غيره لأنه اتسم بالبساطة التي كثيرا ما تصطحب بالحقيقة عندما اعتبر الحدس العقلي والبداهة بالنسبة لوجود ا . فاقترب بذلك كثيرا من فكرة "الفطرة" التي اعتبرها الإسلام أصلاً من أصول الاعتقاد وسبيلاً للإيمان با .

منطق وليم جيمس:

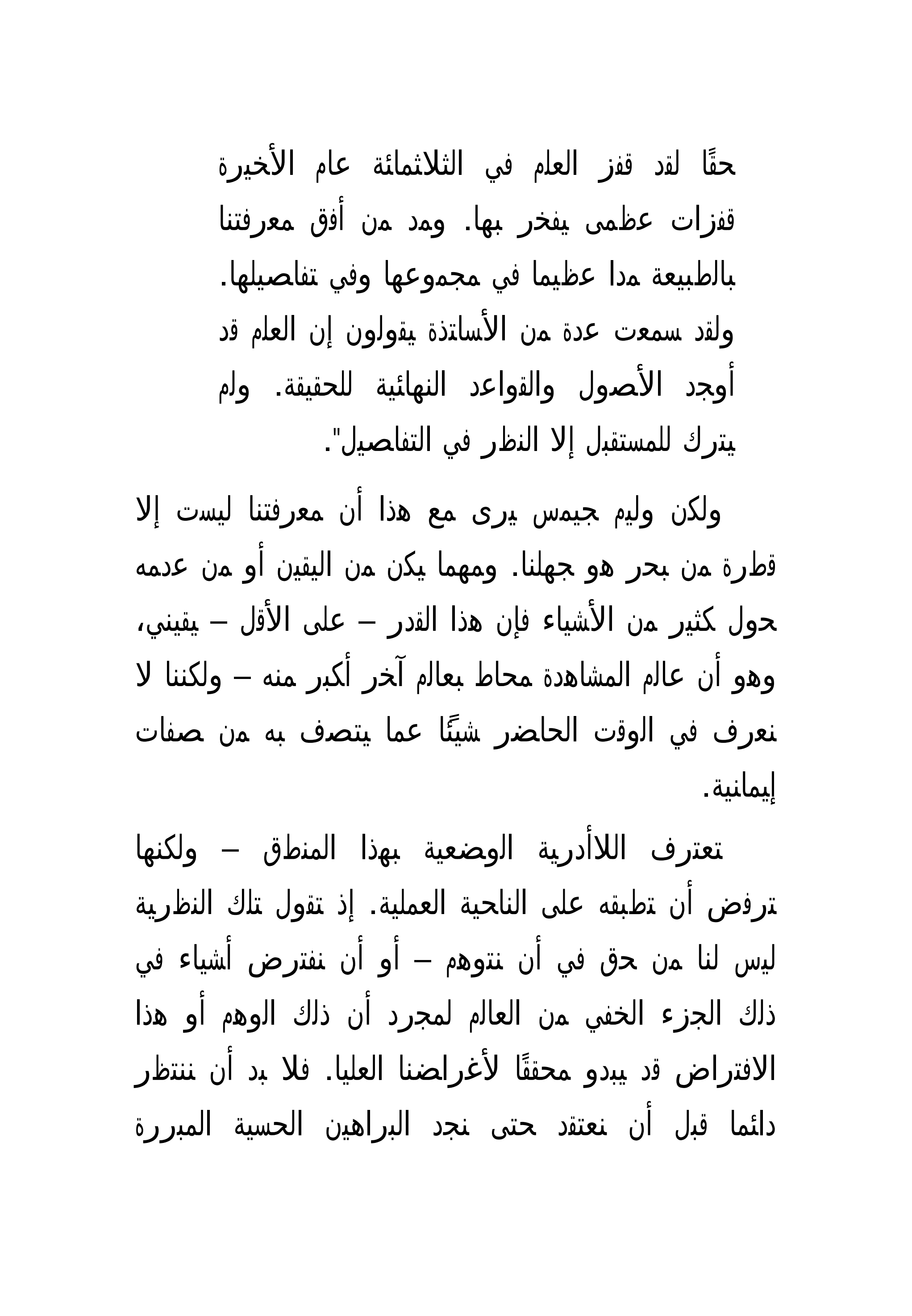
وليم جيمس (١٨٤٢ – ١٩١٠) كما هو معروف مبدع نظرية "البراجماتيزم" أو "الذرائع" وهي تذهب إلى أن جدوى الأفكار والنظم إنما تقاس بمدى فعاليتها العملية. فما يثبت أنه مفيد وعملي فهو صالح والعكس بالعكس. وقد تعرضت هذه الفكرة لنقد قاس – خاصة من أنصار "المبدئية" أي الذين لا يقيسون المبادئ بنفعيتها، ولكن بأصالتها وحقيقتها. وقد يظن أن وليم جيمس سيكون آخر من يدافع عن الأديان، وبالذات فكرة "الاعتقاد" و "الإيمان" ولكن الواقع غير ذلك. فإن منطقه العملي أدى به إلى التسليم بأن الفائدة العملية للاعتقاد بصفة عامة والاعتقاد في ا بوجه خاص لا بد وأن يكون وراءه أصل حقيقي لا مزعوم أو متخيل.


فدخل الأديان من باب المنافع والمصالح – وبالنسبة للإسلام فإن هذا مدخل غير مرفوض – لأن من المسلم به أن المصلحة من مقاصد الشريعة، وأن الإسلام لم يتجاهل المنافع بل أقرها حتى في شعيرة مثل الحج، وأن الرسول أرسل للناس "ليحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث".

ولا ريب أن دفاع جيمس عن الدين حتى من هذا المدخل يعد دليلاً على صحة الأديان وسلامتها. لأنه عندما يقوم بذلك فإنه يستخدم أدلة قد يكون الناس أكثر استعدادا لقبولها وفهمها، ليس فحسب في اللغة ولكن في الهدف أيضا. فهو يتكلم بلغة مفهومة ولهدف مطلوب.

وفي كتابه "إرادة الاعتقاد" انتقد وليم جيمس بقوة الماديين أصحاب العقول التي "لا تقبل من الحقائق إلا ما كان محسوسا" ويستطرد.

> "والمعشوق الأوحد لهذا النوع من العقول هو ذلك البناء المسمى "بالعلم" وأقرب الطرق عندهم وأسهلها لقتل ما لا يؤمنون به من آراء هو أن توصف بأنها آراء "غير علمية" ولكن لا بد من الاعتراف بأنه ليس هناك أدنى سبب لهذا.



حقًا لقد قفز العلم في الثلاثمائة عام الأخيرة قفزات عظمى يفخر بها. ومد من أفق معرفتنا بالطبيعة مدا عظيما في مجموعها وفي تفاصيلها. ولقد سمعت عدة من الأساتذة يقولون إن العلم قد أوجد الأصول والقواعد النهائية للحقيقة. ولم يترك للمستقبل إلا النظر في التفاصيل".

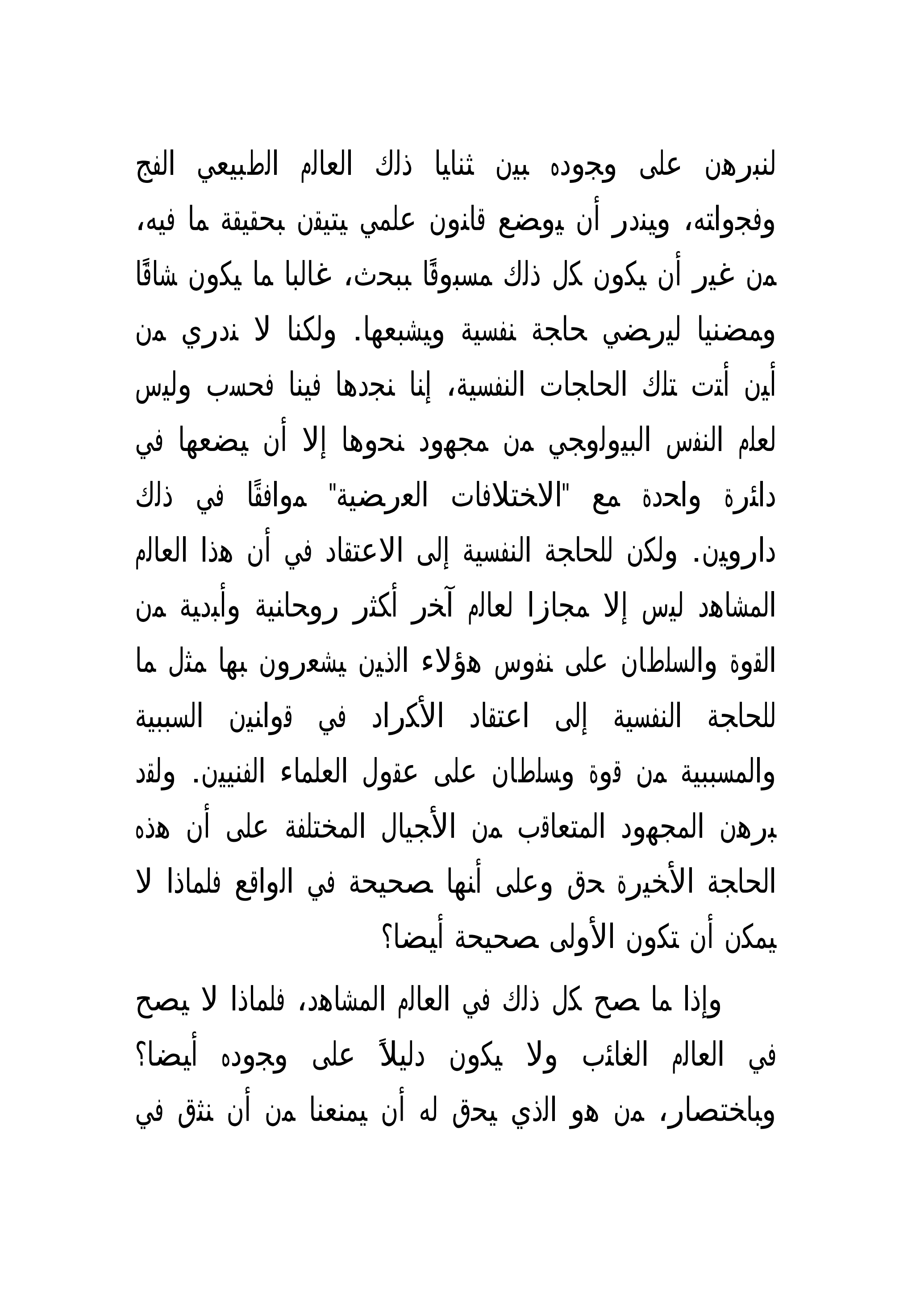
ولكن وليم جيمس يرى مع هذا أن معرفتنا ليست إلا قطرة من بحر هو جهلنا. ومهما يكن من اليقين أو من عدمه حول كثير من الأشياء فإن هذا القدر – على الأقل – يقيني، وهو أن عالم المشاهدة محاط بعالم آخر أكبر منه – ولكننا لا نعرف في الوقت الحاضر شيئًا عما يتصف به من صفات إيمانية.

تعترف اللاأدرية الوضعية بهذا المنطق – ولكنها ترفض أن تطبقه على الناحية العملية. إذ تقول تلك النظرية ليس لنا من حق في أن نتوهم – أو أن نفترض أشياء في ذلك الجزء الخفي من العالم لمجرد أن ذلك الوهم أو هذا الافتراض قد يبدو محققًا لأغراضنا العليا. فلا بد أن ننتظر دائما قبل أن نعتقد حتى نجد البراهين الحسية المبررة

للاعتقاد وإذا لم يكن لمثل هذه الأدلة من وجود، فليس لنا أن نفترض فرضا ما. ذلك طبعا موقف سليم على وجه عام. فإنه إذا لم يكن للمرء غرض ما من وراء العالم الخفي، وإذا كان لا يجد إليه من حاجة ماسة، ولا يعنيه أن ينسجم أو لا ينسجم معه، فإن خير الطرق وأحكمها بالنسبة له هو حالة الحياد وعدم الاعتقاد لا في هذا ولا في ذلك، ولكن الحياد على الرغم من أنه صعب المراس من ناحية نفسية، هو كذلك غير ممكن التحقيق في هذه الحالة، حيث أن الأمر المخير فيه أمر حيوي وعملي بالنسبة لنا. وذلك لأن الاعتقاد والشك كما يخبرنا علماء النفس أمران حيويان يستلزمان منا عملاً. فمثلاً طريقنا الوحيد للشك أو لرفض الاعتقاد في وجود شيء ما هو أن نستمر في حركاتنا وتصرفاتنا كأنه لا وجود له. فإذا رفضت أن أعتقد أن جو الغرفة أصبح باردا فإني أترك النوافذ مفتوحة ولا أوقد فيها نارا كما أفعل لو كنت أعتقد أن جوها لا يزال دافئًا. وإذا شككت في أنك من الأشخاص الذين لا يوثق بهم. فإني أكتم عنك جميع أسراري، كما أفعل لو علمت أنك لست مجالاً للثقة، وإذا ترددت في أن منزلي يحتاج أن يؤمن عليه فإني أدعه غير مؤمن عليه. كما أفعل

لو علمت يقينًا أنه ليس هناك من حاجة للتأمين. كذلك إذا لم أعتقد أن هذا العالم عالم إلهي، فليس لذلك من مظهر إلا الامتناع عن التصرف على أنه إلهي، وليس لهذا من معنى إلا التصرف بالنسبة للأمور الخطيرة المهمة كأنها ليست بالخطيرة أو التصرف على نحو غير ديني. من هذا يتبين لك أن عدم الفعل هو نفسه فعل في بعض الأحيان. ولا بد أن يعتبر كذلك وإذا لم يكن الفعل من أجل شيء فإنه لا بد أن يكون من ناحية عملية ضد ذلك الشيء، وفي جميع هذه الحالات، لا يمكن وجود حياد تام غير متردد فيه.

وبعد كل هذا أليس القول بوجوب الحياد في حين أن ميولنا النفسية تؤدي بنا إلى الاعتقاد، قولاً في غاية من الحماقة؟ أو ليس القول بأنه لا يمكن أن تكون هناك صلة بين أغراضنا النفسية وقوانا وبين القوى الموجودة في العالم الخفي مجرد يقين خاطئ لا دليل عليه؟ فلقد برهن التنبؤ المبني على الاتجاهات والميول النفسية على صحة نفسه في كثير من الأمثلة الأخرى. انظر إلى العلم نفسه، فمن غير أن تكون لنا ميول نفسية تستدعي بالضرورة انسجاما منطقيا ورياضيا في هذا العالم فإنه يكون من العسير علينا أن نذهب



لنبرهن على وجوده بين ثنايا ذلك العالم الطبيعي الفج وفجواته، ويندر أن يوضع قانون علمي يتيقن بحقيقة ما فيه، من غير أن يكون كل ذلك مسبوقًا ببحث، غالبا ما يكون شاقًا ومضنيا ليرضي حاجة نفسية ويشبعها. ولكنا لا ندري من أين أتت تلك الحاجات النفسية، إنا نجدها فينا فحسب وليس لعلم النفس البيولوجي من مجهود نحوها إلا أن يضعها في دائرة واحدة مع "الاختلافات العرضية" موافقًا في ذلك داروين. ولكن للحاجة النفسية إلى الاعتقاد في أن هذا العالم المشاهد ليس إلا مجازا لعالم آخر أكثر روحانية وأبدية من القوة والسلطان على نفوس هؤلاء الذين يشعرون بها مثل ما للحاجة النفسية إلى اعتقاد الأكراد في قوانين السببية والمسببية من قوة وسلطان على عقول العلماء الفنيين. ولقد برهن المجهود المتعاقب من الأجيال المختلفة على أن هذه الحاجة الأخيرة حق وعلى أنها صحيحة في الواقع فلماذا لا يمكن أن تكون الأولى صحيحة أيضا؟

وإذا ما صح كل ذلك في العالم المشاهد، فلماذا لا يصح في العالم الغائب ولا يكون دليلاً على وجوده أيضا؟ وباختصار، من هو الذي يحق له أن يمنعنا من أن نثق في

ميولنا ومطالبنا الدينية ونصدقها؟ ليس للعلم كعلم أن يزعم هذه السلطة لنفسه، لأنه لا يتحدث إلا عن الموجود بالفعل، وليس له شأن بغيره، وأما قول اللاأدريين "ليس لك أن تعتقد غير أن تكون لك أدلة حسية قاطعة" فليس إلا تعبيرا (لكل امرئ الحق في أن يعبره) عن اتجاه خاص ورغبة شخصية في أدلة من نوع خاص.

ويستطرد وليم جيمس "ولكن إذا افترضنا ألا نقدر أن نتأكد من ذلك فهل معنى ذلك أنه ليس لنا أن نثق، وأن الثقة أو التصديق ليست إلا أحلاما وخديعة من أحلام البله والمغفلين، أو ليست إلا مكانًا يلجأ إليه الكسالى من الناس، أو أنها بالعكس لا تزال اتجاها حيويا قويا لكل منا أن يتجه إليه وينغمس فيه؟ إننا طبعا أحرار في أن نثق وفي أن نصدق ما نشاء، ما دام غير محال في نفسه وما دمنا نجد من الأشباه والنظائر ما يؤيده. والآن كل ما يشهد للمذهب المثالي من الأدلة المختلفة يبرهن على أن العالم المادي ليس هو العالم المطلق وأن القول بأن حياتنا المادية كلها لا بد أن تكون

مشربة بجو روحي، ومختلطة بنوع من الوجود ليس لدينا الآن من القوى ما نعرفه بها، تمكن البرهنة عليه"[1].

إن المنطق النفعي لوليم جيمس في البرهنة على وجود ا لا يبخس من قيمته، لأن هذا المنطق – كما ذكرنا مقبول من وجهة نظر الإسلام – ولأنه سائغ مقبول ولأنه أحد المداخل التي يمكن منها الوصول إلى موضوع لا يمكن معاملته "عدا ونقدا" أو بمنطق الحواس من رؤية أو لمس... لأننا إذا سددنا مثل هذا المنفذ الفلسفي والعلمي، فلا يبقى إلا ما طالب به المشركون وما يتناقض مع جوهر الموضوع "أرنا ا جهرة!!".

وخلاصة فكر وليم جيمس فيما يتعلق با تعالى تحمله الكلمات التالية "إنه يبدو لي أيضا – وتلك هي نتيجتي النهائية – أن العالم الخلقي المستقر المنظم الذي يبحث عنه الفيلسوف الخلقي لا يمكن أن يوجد كاملاً إلا حيث توجد قوة مقدسة

---

[1] إرادة الاعتقاد ترجمة الدكتور محمود حب ا مطبوعات الجمعية الفلسفية المصرية – ص ١القاهرة ١٩٤٦ صفحات ١٢٩ – ١٣٣ بتصرف.

ذات مطالب عامة شاملة. فإذا وجد مثل هذه القوة. فإن منهجه [١١] في إخضاع أحد المثل للآخر يكون المنهج الصحيح لتقدير القيم، وتكون مطالبه أبلغ أثرا ويكون عالمه المثالي أكثر العوالم ممكنة التحقيق شمولاً وإذا كان موجودا الآن فلا بد أن يكون قد علم بالفعل تلك الفلسفة الخلقية التي نبحث عنها، وعلم أنها النموذج الذي يجب أن نعمل للوصول إليه دائما لذلك ينبغي لنا، كفلاسفة ومن أجل تحقيق غاياتنا من إيجاد نظام أخلاقي واحد أن نفترض وجود الإله، وأن نتمنى انتصار الدين على اللادينية".

ومن رحمة ا بالبشرية أنه لم يدع الأمر وفقًا على إرادة الفلاسفة وتمنياتهم التي كان يمكن ألا تجد اهتماما، أو أن تعصف بها الريح. إن ما تمناه وليم جيمس كان هو – بالفعل – الأمر الواقع. وقد استهدفت ثورتان كبيرتان، مدفوعتان بمختلف الدوافع التي ارتؤي وقتئذ أنها تمثل التقدم الأمثل – الإطاحة بالأديان. وأثبت التاريخ أن ما ظن تقدما لم يكن إلا وهما من أوهام المنظرين – وأنه أساء إلى البشرية

---

[١] تعود إلى "العالم الخلقي" – ص ١٠٦.

أضعاف ما نسب إلى الدين من إساءة. فقد أوجد آلهة مزيفة. وادعى كتبا مقدسة وأوجد كنيسة من نوع خاص. ثم انتهى بالفشل. وعادت الكاثوليكية إلى فرنسا بعد أن خبت الثورة الفرنسية، وعادت الأرثوذكسية والإسلام إلى الاتحاد السوفيتي بعد أن أعلن إفلاس الماركسية اللينينية و "ثورة أكتوبر المجيدة".

العلم الحديث يثبت وجود ا :

كان الفيلسوف هوايت قد تنبأ بأن العلم الذي سحق اللاهوت المتعسف في الماضي سيسير في المستقبل مع الدين جنبا إلى جنب، وبينما يتضاءل نفوذ اللاهوت يقوى الدين وينمو في ثبات [١٢] وقد صدقت هذه النبوءة ربما بدرجة أكثر بكثير مما تصور هوايت.

ذلك أن البحوث العلمية والاكتشافات الفلكية والتجارب الذرية والفسيولوجية قد وصلت إلى درجة تثير الذهول،

---

[٢] قصة النزاع بين الدين والفلسفة للدكتور توفيق الطويل – مكتبة الآداب. ص ٢٥٦.

درجة يفوق الواقع فيها الخيال وتجاوز الحقيقة الخرافة وتصيب المتابع لها بنوع من الدوار أو "الدوخة" التي تعقب تلقيه ضربة على أم رأسه ! فما أبعد صورة الكون اليوم عن الصورة القديمة الساذجة التي كان الشاعر يصور فيها النجوم المتوهجة على صفحة السماء بحبات ماس على صدر غانية... أو عندما يشتط به الخيال فيبدع عمالقة وأقزام مثل عمالقة وأقزام "سويفت" أو يتصور عوالم أسطورية مثل عوالم السندباد البحرية وسيف بن ذي يزن... إن هذه الصور كلها أصبحت ساذجة، بدائية أمام تقدم العلوم في المجالات الثلاثة الهامة: الفلك والطبيعة النووية... والفسيولوجيا.. وها هي ذي صورة مبسطة جدا.

"إن كوننا هذا فسيح جدا. ولكي نفهمه نتصور طائرة خيالية تسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل في الثانية الواحدة – وإن هذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجود الآن. إن هذه الرحلة الخيالية سوف تستغرق ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة يضاف إلى ذلك أن هذا الكون ليس بمتجمد. وإنما هو يتسع كل لحظة حتى أنه بعد ١,٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة تصير هذه المسافات الكونية ضعفين وهكذا لن تستطيع هذه الطائرة

الخارقة في سرعتها الخيالية أن تكمل دورتها حول الكون أبدا – وإنما سوف تظل تواصل رحلتها في نطاق هذا التوسع الدائم في الكون.

ويقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم مضروبا هذا العدد في ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ وفي كل مجموعة منها يوجد مائة مليار من النجوم – أو أكثر أو أقل ويقدرون أن أقرب مجموعة من النجوم – وهي التي نراها في الليل كخيوط بيضاء دقيقة – تضم حيزا مداه مائة ألف سنة ضوئية ونحن سكان الأرض – نبعد عن مركز هذه المجموعة بمقدار ثلاثين ألف سنة ضوئية. وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من سبع عشرة مجموعة، وقطر هذه المجموعة الكبيرة (ذات السبع عشرة) مليونًا من السنين الضوئية...[١٣].

فإذا انتقلنا من عالم الجسامة الفلكية اللانهائية التي تقاس مسافاتها بألوف السنوات الضوئية (الضوء يقطع ١٨٦ ألف

---

[١] الإسلام يتحدى–وحيد خان – الطبعة الثامنة من ٥٢ إلى ٥٤.

ميل في الثانية) إلى عالم الذرات، وجدنا ما يقابله في التركيب والانتظام.. ولكن في حدود من الضآلة لا يمكن أن نشاهدها بمنظار يكبرها ملايين المرات.. هي الذرة وهذه الذرة المتناهية في الضآلة يدور بداخلها نظام كنظام المجموعة الشمسية، فهي تضم مجموعة من الإلكترونات التي تشغل من مساحة الذرة ١ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ (التى لا ترى بأكبر مجهر إنساني) والإلكترون يدور حول البروتون – الذي هو الجزيء الإيجابي في الذرة – بنفس النظام الذي تتبعه الأرض في مدارها حول الشمس[١٤].

فإذا انتقلنا إلى الأعضاء البشرية... من مخ أو عين أو يد... إلخ ففي المخ عشرة مليارات خلية عصبية تستطيع أن تسجل ٨٦ مليون معلومة كل يوم وتتبع الذاكرة خلال فترة حياة الإنسان إلى مائة ألف مليار معلومة.

فهذه النتف التي أخذت عرضا من كتاب غير فني بغرض التبسيط – قد أثبتت للإنسان المعاصر أن الكون أعظم وأكثر تعقيدا وإعجازا من كل مدى كان يمكن لخيال

---

[٢] المرجع السابق من ٥٢ إلى ٥٤ .

الإنسان القديم أن يصل إليه. بحيث لا يمكن أبدا افتراض المصادفة أو التكوين العشوائي. والتفسير الوحيد لوجود مثل هذا الكون المعجز هو وجود ا   تعالى.

فقد كان هناك – كما قال فرانك ألن – عالم الطبيعة البيولوجية – أربعة احتمالات. الأول أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال... وهو ما يتعارض مع الوجود الماثل. والثاني أن يكون الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم. وهو كذلك لا يقل عن سابقه سخفًا. وقد صور القرآن في إيجازه وإعجازه سخافة ذلك ﴿أَم خُلِقُوا مِن غَيرِ شَيءٍ أَم هم الْخَالِقُون﴾ (٣٥ الطور) الاحتمال الثالث أن يكون هذا الكون أزليا – ليس لنشأته بداية وهذا احتمال يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون. وذلك في عنصر واحد هو الأزلية. وإذن فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق – وليس هناك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد هذين الاحتمالين أكثر مما في

الآخر[١٥]. لكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا. وأنه سائر حتما إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق – ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة، وهذا دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة. فهو إذًا حدث – ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، وأنه عليم محيط بكل شيء – قوي ليس لقدرته حدود ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه.

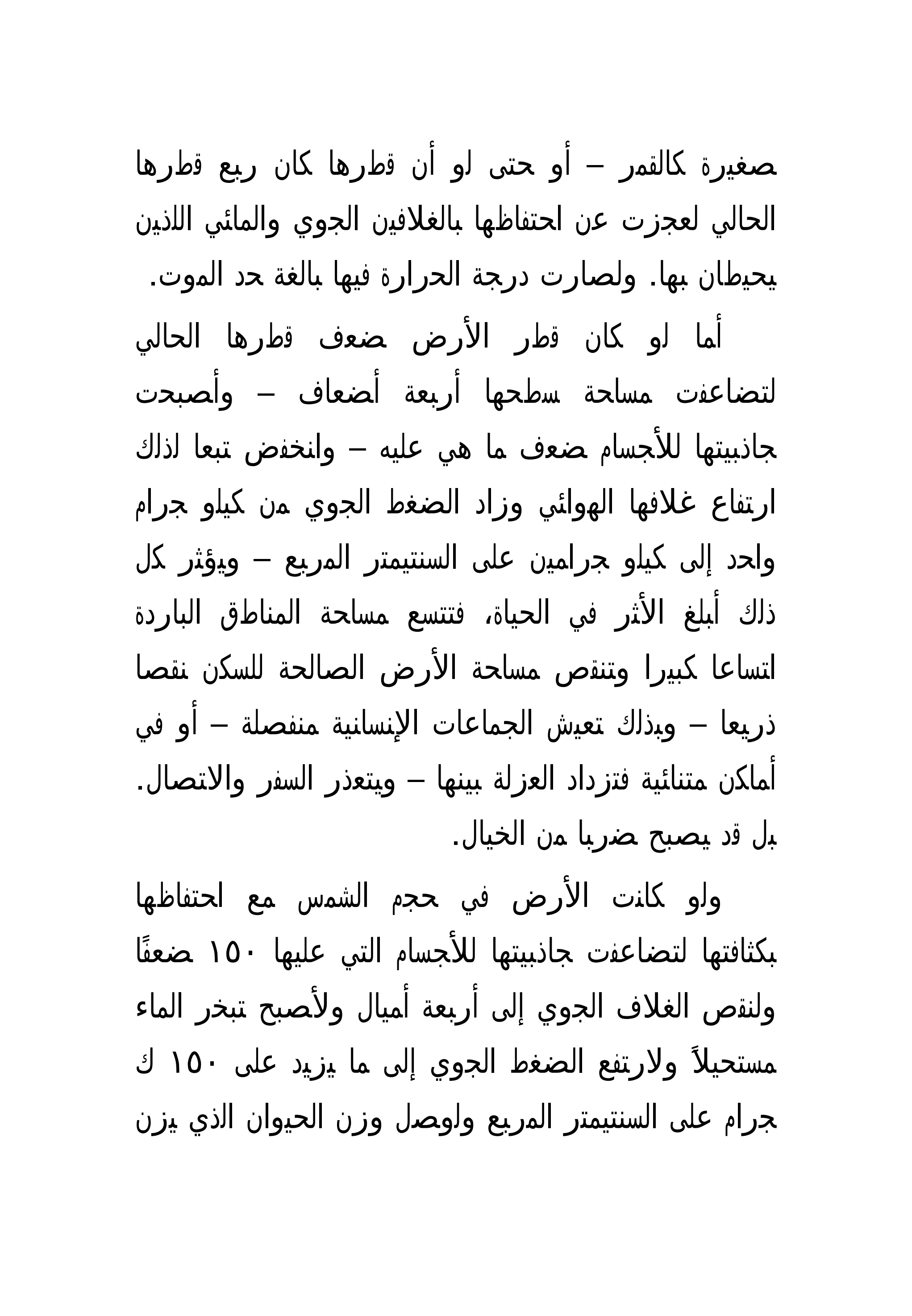
---

[١] ا يتجلى في عصر العلم: ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان ص ٧ وفي قول الكاتب "وليس هناك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد هذين الاحتمالين تساهل كبير" ويبدو أنه لم يشأ أن يعالجه بادئ ذي بدء، وترك للأدلة العملية تفنيد فكرة أزلية للكون. وهو ما دلل عليه بفكرة فناء الكون لأن النشاط الحيوي يؤدي إلى نضوب الطاقة. ومعنى هذا أن الكون ليس أزليا وإلا لاستهلكت طاقته من زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود. وهكذا توصل العلم – دون قصد – إلى أن لهذا الكون بداية ... وهو بذلك يثبت وجود ا . لأن ماله بداية – لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه – ولا بد له من مبدئ أو محرك أولي ... أي خالق.

ويعدد الكاتب الخصائص التي يتميز بها الكون ولا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية.

فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها – فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار – وهي تسبح حول الشمس مرة كل عام فيكون في ذلك تتابع الفصول – الذي يؤدي بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكن. ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية... ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير (يزيد على ٥٠٠ ميل) ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يوميا إلينا. منقضة بسرعة ثلاثين ميلاً في الثانية. والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يتكاثف مطرا يحيي الأرض بعد موتها – والمطر مصدر الماء العذب – ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية.

وكثيرا ما يسخر البعض من صغر حجم الأرض بالنسبة لما حولها من فراغ لا نهائي – ولو أن الأرض كانت



صغيرة كالقمر – أو حتى لو أن قطرها كان ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائي اللذين يحيطان بها. ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت.

أما لو كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالي لتضاعفت مساحة سطحها أربعة أضعاف – وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه – وانخفض تبعا لذلك ارتفاع غلافها الهوائي وزاد الضغط الجوي من كيلو جرام واحد إلى كيلو جرامين على السنتيمتر المربع – ويؤثر كل ذلك أبلغ الأثر في الحياة، فتتسع مساحة المناطق الباردة اتساعا كبيرا وتنقص مساحة الأرض الصالحة للسكن نقصا ذريعا – وبذلك تعيش الجماعات الإنسانية منفصلة – أو في أماكن متنائية فتزداد العزلة بينها – ويتعذر السفر والاتصال. بل قد يصبح ضربا من الخيال.

ولو كانت الأرض في حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التي عليها ١٥٠ ضعفًا ولنقص الغلاف الجوي إلى أربعة أميال ولأصبح تبخر الماء مستحيلاً ولارتفع الضغط الجوي إلى ما يزيد على ١٥٠ ك جرام على السنتيمتر المربع ولوصل وزن الحيوان الذي يزن

حاليا رطلاً واحدا إلى ١٥٠ رطلاً. ولتضاءل حجم الإنسان حتى صار في حجم السنجاب ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات.

ولو أزيحت الأرض إلى ضعف بعدها الحالي عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية. وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول وتضاعفت تبعا لذلك طول فصل الشتاء – وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض. ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن، لبلغت الحرارة أربعة أمثالها وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس ولآلت الفصول إلى نصف طولها الحالي.

وعلى ذلك فإن الأرض بحجمها وبعدها الحاليين عن الشمس وسرعتها في مدارها تهيئ للإنسان أسباب الحياة والاستمتاع بها في صورها المادية والفكرية والروحية، على النحو الذي نشاهده اليوم في حياتنا.

ويعود المؤلف إلى مناقشة فكرة المصادفة التي طرحها البعض بديلاً عن ا .

".. فإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكم وتصميم سابق فلا بد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة – فما هي تلك المصادفة إذن حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة".

إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم. ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدما كبيرا حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول إنها تحدث بالمصادفة والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى (مثل قذف الزهر في لعبة النرد).

وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة. وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في ميدان معين من الزمان.

ولننظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة.

إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتكون من خمسة عناصر هي الكربون والأيدروجين والنتروجين والأكسجين والكبريت. ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد ٤٠٠٠٠ ذرة – ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة ٩٢ عنصرا موزعة كلها توزيعا عشوائيا فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزئيا من جزئيات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطًا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزيء ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاني بحساب هذه العوامل جميعا. فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة ١ إلى ١٠ ^{١٦٠} أي بنسبة ١ إلى رقم ١٠ مضروبا في نفسه في ١٦٠ مرة. وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات وينبغي أن تكون المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له هذا الكون بملايين المرات – ويتطلب تكوين هذا الجزيء على

سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة عددا لا يحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين (١٠ ^٢٤٣^ سنة).

إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات ؟ إنها إذا تألفت بطريقة أخرى غير التي تألفت بها تصبح غير صالحة للحياة. بل تصير في بعض الأحيان سموما.

وقد حسب العالم الإنجليزي ج. ب ليسز **j.b. Leathes** الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ الملايين(١٠ ^٤٨^) وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبني جزئيا بروتينيا واحدا.

ويستطرد الكاتب:

ولكن البروتينات ليست إلا موادا كيماوية عديمة الحياة ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب

الذي لا ندري من كنهه شيئًا. إنه العقل اللانهائي – وهو ا وحده... (١٦) .

ويعالج عالم آخر هو جون كليفلاند كوثران القضية نفسها من زاوية البروتونات الموجبة والإلكترونات السالبة. والنيوترونات التي يعتبر كل منها ناشئًا عن اتحاد بروتون واحد مع إلكترون واحد – والنظام الذي يحكمها، والذي يجعل جميع البروتونات التي بالذرة الواحدة تقع في نواة مركزية – أما الإلكترونات فإنها تدور حول محاورها في مدارات مختلفة حول النواة وعلى أبعاد شاسعة منها مكونة ما يشبه مجموعة شمسية مصغرة... وهي كلها تخضع لقوانين دقيقة لا يتصور أن تأتي نتيجة للعشوائية أو المصادفة [٢].

ويرى رسل تشارلز أرنست وهو أحد علماء الأحياء أن أبسط الخلايا – نباتية أو حيوانية – تعمل بدرجة من الدقة يتضاءل بجانبها أقصى ما وصل إليه الإنسان من دقة في صناعة الساعات ولا يمكن للعقل البشري أن يتصور وجود آلة دقيقة كالساعة بمحض المصادفة ودون الاستعانة بالعقل

---

(١)، (٢) المرجع السابق من ٨ إلى ١٢ .

المفكر واليد الماهرة وبالتالي يصعب – أو يستحيل – أن يتصور أن أبسط خلية تعمل بدقة تفوق الساعة – وجدت بنفسها أو نتيجة للمصادفة [١٧].

وأثار عالمان أسهما في وضع كتاب: "**ا يتجلى في عصر العلم**" الذي استشهدنا به في الفقرات السابقة نقطة هامة هي استخدام العجز عن إدراك الظواهر الكونية أو البيولوجية للتدليل على وجود ا ومع هذا فقد قال أحدهما – تشارلز أرنست وهو عالم أحياء "لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر لنا كيف نشأت الحياة من عالم الجمادات. فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين أو من الفيروس أو من تجمع بعض الجزيئات أو البروتينية الكبيرة. وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء. وعالم الجمادات. ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بخذلان وفشل ذريعين.

---

[٣] المرجع السابق ص ٢٦.

وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة فهذا شأنه وحده. ولكنه إذ يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود ا الذي خلق هذه الأشياء[١٨].

وحذر العالم الثاني – وهو جون أدولف بوهلر وهو أستاذ كيماوي من "أن نقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه الأقدمون. عندما اتخذوا آلهة لكي يجدوا تفسيرا لما غمض عليهم وحددوا لكل إله قدرته – وعينوا له وظيفة ودائرة تخصصه – وعندما تقدمت العلوم وأمكن فهم كثير من الظواهر الغامضة ومعرفة القوانين التي تخضع لها – لم يعد هؤلاء الناس في حاجة إلى الآلهة التي أقاموها. بل إن كثيرا من البشر أنكروا وجود ا لنفس هذا السبب، والواجب أن نتلمس قدرة ا في النظام الذي خلقه والقوانين التي أخضع لها جميع الظواهر والأشياء. فقد يستطيع الإنسان أن يفسر ما كان غامضا عليه باكتشاف القوانين التي تحكمها. ولكن الإنسان عاجز عن أن يسن تلك القوانين فهي من صنع ا

---

[١] المرجع السابق ص ٧٩ .

وحده. ولا يفعل الإنسان أكثر من أن يكتشفها ثم يستخدمها في محاولة إدراك أسرار هذا الكون. وكل قانون يكتشفه الإنسان يزيده قربا من ا وقدرة على إدراكه فتلك هي الآيات التي يتجلى بها ا علينا[١٩].

وما قاله الباحث هو ما يمكن أن توحي به إلينا الآية:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حتى يتَبين لَهم أَنه الْحق﴾ فبقدر ما تتكشف للناس من آيات ا بقدر ما يزداد إيمانهم با . وقد تصور البعض أن اكتشاف العلم الحديث لكثير من الظواهر التي اختص ا بها نفسه مثل معرفة نوع الجنين أو سر نزول الأمطار أو كسوف الشمس... إلخ يزلزل الإيمان. ولكن الآية تعلن بصريح اللفظ أن ا تعالى "سيري" الناس هذه الآيات في الكون وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. فليس هناك تعارض بين اختصاص ا تعالى بهذه المعرفة وقت نزول القرآن...

---

[٢] المرجع السابق ص ١٠٥ .

أو بعده بأجيال. ثم إطلاعه الناس عليها وكشفه عنها بعد فترة ليزدادوا إيمانًا.

ويعد تقدم العلم مصداقًا لذلك فيما سبق أن أوردنا وما كشفت عنه آخر مباحث العلم. فبعد نشر نظرية النسبية العامة توصل العلماء إلى أن الكون يتمدد وأن المجرات تتباعد بعضها عن بعض. وهذا يدل على أنها كانت في الماضي السحيق متحدة مما يدل على أن للكون بداية.

ثم جاءت إشارة ثانية من مجال الفيزياء النووية فلقد كان كيميائيو القرن التاسع عشر يعرفون أن الشمس لا يمكن أن تحرق وقودا تقليديا. فالاحتراق الكيميائي العادي لم يكن يصلح تفسيرا لطاقة الشمس. إذ لو كانت كتلة الشمس كلها فحما لأحرقت نفسها في غضون ثلثمائة عام. وظلت الشمس لغزا إلى حين اكتشاف الطاقة النووية – في السنوات الأولى من القرن العشرين. وأخيرا تمكن الفيزيائيان هانز بيته **Hans Bethe** وكارل فون فايتنرساكر **Carl Von Weizsacker** في عام ٣٨ من تقديم تفسير كامل لكيفية إنتاج الشمس للطاقة من خلال تحول العناصر النووية. ففي قلب الشمس يتحول الهيدروجين إلى هليوم منتجا الطاقة والضوء وعلى ملايين

السنين كانت العمليات التي تتم داخل كل نجم تكون شيئًا فشيئًا لا الهليوم فحسب بل جميع العناصر الأثقل: الكربون، الأكسجين والسيلكون والحديد وسائر العناصر، وكان معنى ذلك أنه إذا كانت كل العناصر الثقيلة في الكون قد تكونت من الهيدروجين في قلوب النجوم، فلا بد إذًا من أن الكون كله تقريبا كان مركبا في البداية من الهيدروجين، وهذا يدل مرة أخرى على أن للكون بداية.

وأخيرا تقدم الفيزيائي جورج جاموف  **George Gamowf** عام ١٩٤٨ بعد أن جمع الأدلة المستمدة من تباعد المجرات ومن دورة حياة النجوم برأي مفاده أن الكون نفسه نشأ من تمدد بدئي للمادة أطلق عليه "الانفجار العظيم" ويفترض أن كرة النيران فائقة الحرارة قد تمددت بسرعة كالانفجار ثم بردت وباستخدام الفيزياء النووية بين جاموف كيف أن الجسيمات دون الذرية التي كانت موجودة في أسبق المراحل أنتجت – بتأثير درجات الحرارة والضغوط اللاحقة، ذرات الكون حديث النشأة، وفضلاً عن ذلك بين أنه نتيجة التمدد والتبريد، لا بد من تشتت وهج خافت من الإشعاع الأساسي بشكل منتظم في جميع أرجاء الكون.

وظل تنبؤ جاموف معلقًا طوال عدة أعوام ثم اكتشف آرنو بنزياس **Arno Penzias** وروبرت ويلسون **Robert Wilson** في عام ١٩٦٥ بمحض الصدفة وباستخدام جهاز ضخم لالتقاط الموجات الصغرى إشعاعا ضعيفًا منبعثًا من الفضاء. وبعد أن قاس بنزياس وويلسون هذا الإشعاع بدقة لم يسبق لها مثيل وجد أنه يقرب من ٣,٥ فوق الصفر المطلق. ولم يكن الإشعاع أشد كثافة في اتجاه الشمس أو في اتجاه مجرة درب التبانة **(Milky way)** ولذا لا يمكن أن تكون المجموعة الشمسية أو المجرة مصدر هذا الإشعاع فلم يبق إلا تفسير واحد وهو أنه بقيه من الإشعاع الأصلي الناتج من "الانفجار العظيم" وهذا الدليل القائم على المعاينة أكد نظرية "الانفجار العظيم".

فعالمنا إذًا تولد في أعقاب تمدد هائل في المادة ويشير حجم التمدد ومعدل سرعته الحاليان إلى أن الكون بدأ منذ ما يتراوح ما بين ١٢ و ٢٠ مليار سنة. وفي جزء من السكستليون **sextillion** (١,٠٠٠,٠٠٠ ٦) من الثانية بعد البداية كانت كل المادة الموجودة في الكون معبأة في مساحة أصغر كثيرا من الحيز الذي يشغله بروتون واحد. وكانت

الكثافة في تلك المرحلة تهول الخيال، فتصور أن الكواكب والنجوم والمجرات بكاملها وكل المادة والطاقة في الكون كانت جميعها محتواه في حيز لا يكاد حجمه يعادل شيئًا وفي لحظة الصفر من بداية الزمن كانت الكثافة غير متناهية دون حدوث أي تمدد في المكان على الإطلاق. وكانت تلك اللحظة بداية المكان والزمان والمادة[٢٠]. وتحققت في "ومضة ضوء وطاقة"، أو بتعبيرنا الإسلامي "كن فيكون".

وهذا العرض لتتابع البحث العلمي منذ اكتشف أينشتين نظرية النسبية في أوائل القرن. حتى تناولها عشرات العلماء. وكل واحد يكتشف جانبا يسلمه إلى آخر ليقدم إضافته ويدفعه لثالث حتى ينتهي العالم إلى ما عبر عنه القرآن في كلمتين "كن فيكون" ولو وجدت في الألفاظ ما هو أكثر اختزالاً من هذا لعبر بها القرآن. ولكن الناس ما كانوا ليؤمنوا به ولا يستوعبوا بعد "كن فيكون".

---

[١] العلم في منظوره الجديد – تأليف روبرت .م. أغروس . جورج . ن . ستانسيو – ترجمة كمال خلايلي – عالم المعرفة – الصفحات ٦٠ – ٦٤ .

وقد توصل العلم الحديث إلى أدلة أخرى عديدة بيد أنها أكثر فنية. أثبت بها أن الانفجار العظيم وما تلاه وتكوين الكون إنما أريد به وجود الإنسان... وأن يكون صالحا للإنسان وهي اكتشافات تعيد للإنسان مرة أخرى مكانته المجيدة بين المخلوقات التي قررتها له الأديان السماوية. ثم جاءت علوم القرن التاسع عشر ونظريات نيوتن وداروين لتبددها... فجاءت أبحاث القرن العشرين لتعيدها وتقيمها على أسس علمية.

إن مسيرة العلم الحديث ليعرض لنا قصة أكثر روعة وأبعد في إثارة الدهشة والعجب من كل ما توصل إليه الخيال القديم في ألف ليلة وليلة وما تضمنته الأساطير القديمة أو ما تحفل به بعض موسوعات التفسير والحديث من الإسرائيليات ومزاعم الوضاعين.

ويستطرد مؤلفا "العلم في منظوره الجديد".

فهل من مكان لإله في كون مثل هذا؛ إن الفيزيائي إدموند ويتاكر **Edmund Whittaker** يعتقد كذلك فهو يقول ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانا موجودتين قبل الانفجار العظيم وأنه حدث بينهما تفاعل

فجائي فما الذي يميز تلك اللحظة عن غيرها من اللحظات في الأزلية؟ والأبسط أن نفترض خلقًا من العدم، أي إبداع الإرادة الإلهية للكون من العدم وينتهي الفيزيائي إدوار مين Edward Miene بعد تفكيره في الكون المتمدد إلى هذه النتيجة: أما العلة الأولى للكون في سياق التمدد فأمر إضافتها متروك للقارئ، ولكن الصورة التي لدينا لا تكتمل من غير ا .

ولما كان لا يمكن تصور عدم وجود أي شيء على الإطلاق من قبل الانفجار العظيم كما أنه لا يمكن أن يكون ماديا، لأن للمادة بداية، ولما كانت الحقيقة غير المادية الوحيدة هي العقل (وتلك نقطة سنعود إليها [1]) فالفرض الوحيد أمامنا أن المادة هي من خلق عقل أزلي، أي باختصار ا .

دليل الجمال :

هناك دليل لم ينل ما يستحق من أهمية. وقد لا نجد إشارة إليه في كل الكتب الإسلامية التي وضعت للبرهنة على

---

[1] انظر الفصل الثالث فقرة "خلود الروح من منظور طبي".

وجود ا كما قد يكون الأمر كذلك في معظم الكتب الأوربية التي صدرت لهذا الغرض. هذا العامل هو الجمال الذي يتبدى للعين في الكائنات جميعا. في الزهور وألوانها الساحرة والفراشات وأجنحتها المزركشة وفي ندف الثلج التي تأخذ أشكالاً يستلهمها مصممو المنسوجات وصانعو الحلي والمجوهرات... دع عنك جمال الإنسان... ذكرا وأنثى... وخلقه في "أبدع تكوين".

إننا نؤمن أن ما نلحظه من مشاهد الجمال في الطبيعة والحيوان والنبات والإنسان – دلالة لا تخطئ على وجود خلاق هو أصل هذا الجمال ومصدره... قدر ما هو دعوة للاعتبار والعظة والاستلهام ومنة من ا تعالى على الإنسان للاستمتاع به وتذوقه.

والجمال بهذه الصفة أي باعتباره شعاعا من الأصل الإلهي الجميل له صلة بعالم الحقيقة والقيم وهو يتجلى في النظريات العلمية – والمنشآت المعمارية وتقتضي أصول الجمال إبعاد كل ما يعد فضولاً، أو ما يسيء إلى التناسق أو البساطة أو الحقيقة.

وليس هناك من مبرر مادي أو نفعي لوجود الجمال فمن الناحية النفعية يمكن لأداة بشعة المنظر أن تكون أفضل – عمليا – من أداة جميلة المنظر، ومع هذا فقد يفضل الإنسان الأداة الجميلة لأنها تشبع حاسة الجمال وتتجاوب مع نزعة تذوقه بالمخالفة لمنطق المنفعة. كما لا يمكن أن نفسر وجود مشاهد الجمال بالمصادفة لأن مشاهد الجمال تتبدى في كل مظاهر الطبيعة وتصدر عن قوانينها وطريقة عملها. فالجمال لا يمكن أن يفسر بالضرورة أو المصادفة لأنه قيمة من القيم ووجود صور عديدة مجسمة للجمال لا ينفي أن يكون له في بعض الحالات جانبه المبدئي الذي يجعله قيمة كالعدل والخير والصدق إلخ...

وقد عجز داروين عن أن يعلل الجمال في الصوت الإنساني، وما حبي به الإنسان من موهبة موسيقية وقال: ".. وحيث أن الاستمتاع بالأنغام والقدرة على إطلاقها ليسا من الملكات التي تعود على الإنسان بأدنى منفعة في عاداته

اليومية الحياتية، فلا بد أن نضيفها في عدد أكثر الملكات التي حبي بها غموضا [(٢٢)].

قد يقول البعض إن الجمال يرتبط بالغريزة الجنسية في الإنسان، والحيوان، بل والنبات أيضا. وهو يستثير الحواس لتنشيط أداء هذه الوظيفة، ولكن هذا القول ليس حجة علينا، بل هو حجة لنا، لأن الجمال يضفي هالة من العاطفة على الغريزة ويزجيها في غلاف رقيق منمق جميل بحيث تؤدي أداء تسمو به من مجرد الميكانيكية الغريزية إلى العاطفة الإنسانية.

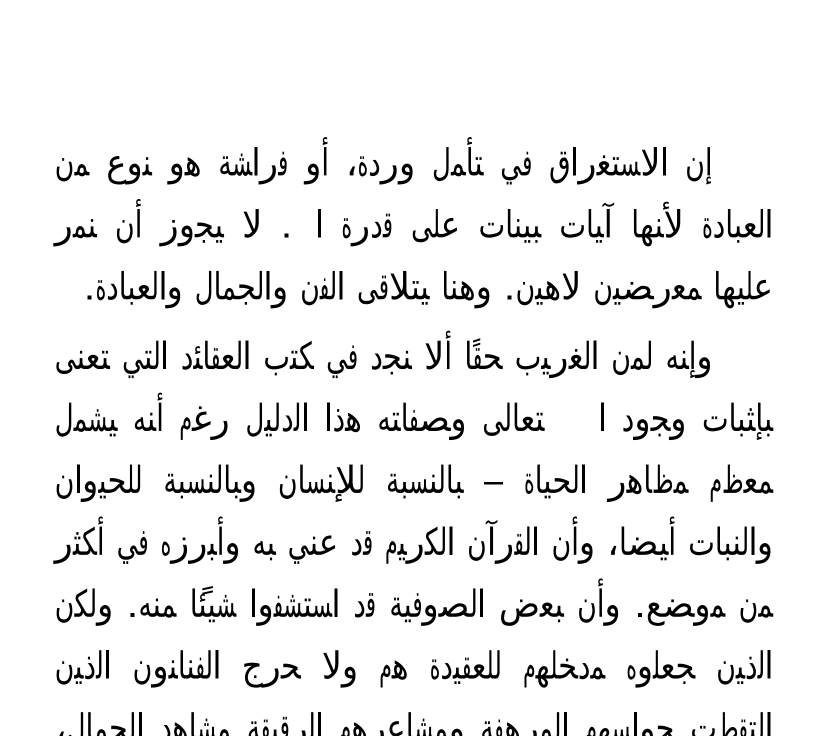
على أننا نجد الجمال في غروب الشمس، وفي تماوج الموج، وفي الوردة ذات الأوراق الناعمة الملتفة بألوان ساحرة، وشذى عاطر، وكأنها ترتدي ثوبا من القطيفة لا يخفى، بل يعلن نضارتها، كما لو أنها درة ثمينة أو جوهرة مكنونة، وليست وردة على عرض الطريق أو سفوح الجبال مبذولة للجميع، ويوجد منها الملايين.

[(١)] استشهد بها في كتاب – العلم في منظوره الجديد – مرجع سابق – ص ٧٢ .

وهذه كلها بعيدة كل البعد عن معاني الجنس والغريزة... وهي متاحة في كل وقت، وفي كل مكان ما لم تشوهه يد الإنسان.

والحق أن الجمال من أكبر نعم ا على الإنسان. وهو يثبت – بالإضافة إلى وجود ا تعالى كرمه وقدرته على خلق كل هذه الصور من الجمال الفائق الرائع في الطبيعة والنبات والإنسان نفسه فمن ذا تكون له القدرة على هذا الخلق والإبداع؟ من ذا يكون له الكرم والاستغناء والتفضل بحيث يقدم كل هذه المشاهد مجانًا ودون مقابل، ودون ثمن تذكرة لمشاهدتها غير ا تعالى. وهو أيضا ينم على أن ا تعالى أراد للإنسان وجودا حضاريا يتحقق له فيه هذا العنصر الثمين وسخر له مشاهده في الكون وفي الأرض. ولولا تلك اللمسة من الجمال التي غرسها ا تعالى في الإنسان ويسرها له في الأرض لعاش الإنسان كالحيوان، ولما كان هناك حاجة إلى اللبس الأنيق أو السكن الجميل أو عالم الفنون والآداب الفسيح بما فيه من موسيقى، وشعر ورسم... إلخ.

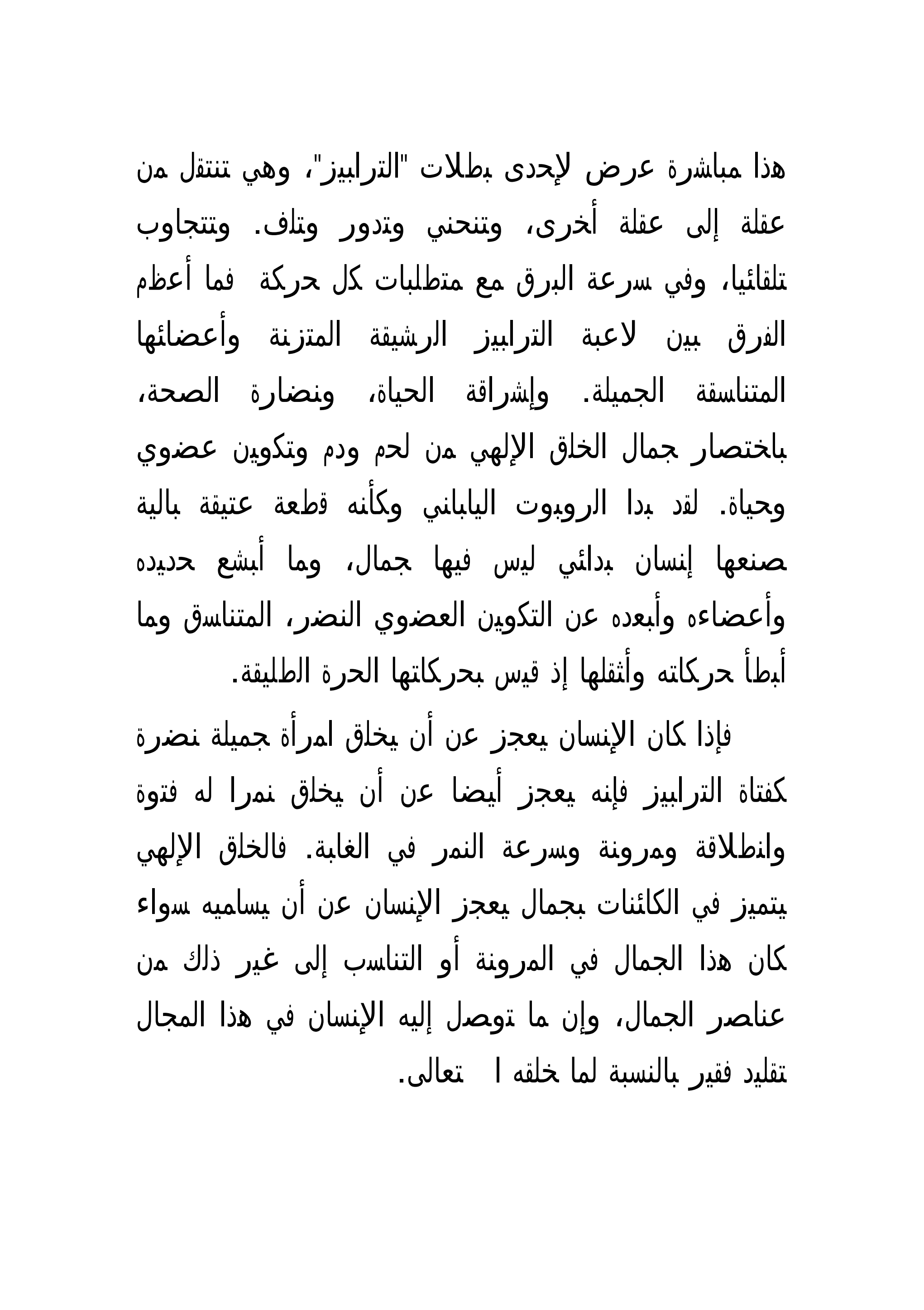
ولما كان هناك العاطفة جنبا إلى جنب الغريزة.



إن الاستغراق في تأمل وردة، أو فراشة هو نوع من العبادة لأنها آيات بينات على قدرة ا . لا يجوز أن نمر عليها معرضين لاهين. وهنا يتلاقى الفن والجمال والعبادة.

وإنه لمن الغريب حقًا ألا نجد في كتب العقائد التي تعنى بإثبات وجود ا تعالى وصفاته هذا الدليل رغم أنه يشمل معظم مظاهر الحياة – بالنسبة للإنسان وبالنسبة للحيوان والنبات أيضا، وأن القرآن الكريم قد عني به وأبرزه في أكثر من موضع. وأن بعض الصوفية قد استشفوا شيئًا منه. ولكن الذين جعلوه مدخلهم للعقيدة هم ولا حرج الفنانون الذين التقطت حواسهم المرهفة ومشاعرهم الرقيقة مشاهد الجمال، فآمنوا با ... وهم في هذا كالعلماء الذين آمنوا با باعتباره "العقل الكوني"، أو علماء الاجتماع والنظم والفلاسفة الذين رأوا فيه المثل الأعلى والأصل الموضوعي الأعظم والمطلق للحق، والعدل والحكمة وللسنن التي يسير عليها المجتمع.

والفرق بين خلق ا الذي يتسم بالجمال، وخلق الإنسان كبير، وأذكر أني رأيت على شاشة التليفزيون آخر نمط للروبوت صنعه اليابانيون بفضل أحدث تكنولوجيا. وكان الروبوت يتقدم ويتأخر، وينحني وهو يقدم وردة لسيدة، وتلي



هذا مباشرة عرض لإحدى بطلات "الترابيز"، وهي تنتقل من عقلة إلى عقلة أخرى، وتنحني وتدور وتلف. وتتجاوب تلقائيا، وفي سرعة البرق مع متطلبات كل حركة فما أعظم الفرق بين لاعبة الترابيز الرشيقة المتزنة وأعضائها المتناسقة الجميلة. وإشراقة الحياة، ونضارة الصحة، باختصار جمال الخلق الإلهي من لحم ودم وتكوين عضوي وحياة. لقد بدا الروبوت الياباني وكأنه قطعة عتيقة بالية صنعها إنسان بدائي ليس فيها جمال، وما أبشع حديده وأعضاءه وأبعده عن التكوين العضوي النضر، المتناسق وما أبطأ حركاته وأثقلها إذ قيس بحركاتها الحرة الطليقة.

فإذا كان الإنسان يعجز عن أن يخلق امرأة جميلة نضرة كفتاة الترابيز فإنه يعجز أيضا عن أن يخلق نمرا له فتوة وانطلاقة ومرونة وسرعة النمر في الغابة. فالخلق الإلهي يتميز في الكائنات بجمال يعجز الإنسان عن أن يساميه سواء كان هذا الجمال في المرونة أو التناسب إلى غير ذلك من عناصر الجمال، وإن ما توصل إليه الإنسان في هذا المجال تقليد فقير بالنسبة لما خلقه ا تعالى.

وقد افتتن اليونانيون القدامى بجمال الجسم الإنساني فغلبت "فينوس" إلهة الجمال، "هيرا" إلهة الحكمة... كما توله بعض الكتاب والفنانين الأوربيين والأمريكيين، بنساء فائقات الجمال، ولكن فارغات العقول. وقد أخطأوا جميعا فإنما الجمال آية من آيات ا ، مثله كالشمس والقمر، وبالإضافة فإن جمال الجسم الإنساني لا يفترض – ضرورة – توفر الحكمة. بل قد يكون – بتركيزه على الشكل – مناف لها – بطريقة ما، ومن ثم فلا يتصف هذا الجمال بالكمال الذي يجب أن يتوفر في الإله المعبود، وهذه الواقعة هي من أدلة تفرد ا تعالى بالكمال، وأن ما عداه إنما هي مشاهد من قدرته، وأدلة على حكمته.

دليل القرآن الكريم:

يظل دليل القرآن في النهاية أنصع الأدلة، وأكثرها بساطة ونفاذًا إلى النفوس، وفي الوقت نفسه أقواها وأكثرها منطقية. وهو يبرأ من كل شوائب النقص والقصور فيما أوردناه من اجتهادات للمفكرين والفلاسفة ومن صور التعقيد والفنية التي يعسر على بعض الناس فهمها أو تتطلب ثقافة خاصة. إن دليل القرآن يفهمه أبسط الناس ممن لا يلم بقراءة

أو كتابة ويرتضيه أكثر الفلاسفة والعلماء تبحرا وتعمقًا... وقد جاوز في تأكيده وقوته مرحلة الإثبات إلى مرحلة التحدي. وذلك لأنه يقوم على حقيقة أساسية لا يستطيع أحد أن ينكرها وهي "الخالق". فهل يعقل أن تكون هذه السماوات، هذا السقف السماوي الجميل الباهر من غير عمد، وهذه الشموس والنجوم التي تجري لمستقر لها ﴿ لاَ الشمس ينبغِي لَها أَن تُدرِك القَمر ولاَ الليلُ سابِقُ النهارِ وكُل فِي فَلَكٍ يسبحون ﴾ وهل يعقل أن تكون الحيوانات والحشرات من النملة إلى الفيل والطيور صافات أجنحتها.. وهل يعقل أن يكون هذا الإنسان ذكرا أو أنثى في أبدع تكوين.. هل يعقل أن يكون هذا كله.. قد خلق دون خالق، أو أوجد نفسه بنفسه. ومتى حدث ذلك وكيف حدث.. فإذا كان هناك من ينكر أن ا هو الخلاق العظيم فليرنا قدرته، وليخلق ذبابة وهي أهون الحشرات ﴿ لَن يخْلُقُوا ذُبابا ولَوِ اجتَمعوا لَه﴾ ﴿ وإِن يسلُبهم الذباب شَيئًا لا يستَنقِذُوه مِنْه﴾ .

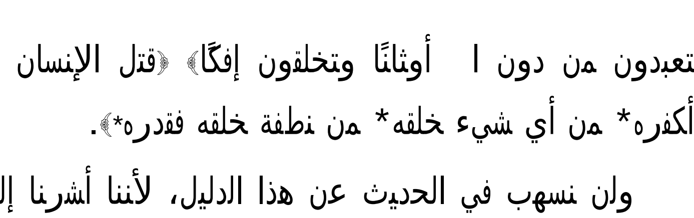
ومن أسرار قسم القرآن وضربه المثل بالبعوض والذباب والعنكبوت والنمل والنحل، أن هذه تمثل أصغر المخلوقات ومع هذا فإن تكوينها معجز بالنسبة لحجمها، فمن

المستحيل أن يخلق الإنسان طائرة في حجم البعوضة تطير مثلها بتلقائية ونعومة، وقل مثل ذلك على النحل أو النمل ونظامها العجيب، ولو استطاع أن يصنع بعوضة أو نملة بتكلفة لا حد لها، فهل يطيق صنع الملايين والملايين منها التى تعج فى الطبيعة.

ولا يكتفي القرآن بمنطقية دليل "الخالق" الذي يكاد يكون مغروسا في الفطرة، بل إنه يسوقه في أسلوب أخاذ لا يمكن أن يدفع من النظم فهو حينًا يرق حتى يصبح حريرا موشى.

﴿ أَفَلَم ينْظُروا إِلَى السماءِ فَوقَهم كَيفَ بنَينَاها وزيناها وما لَها مِن فُروجٍ* والأَرض مددنَاها وأَلْقَينَا فِيها رواسِي وأَنْبتْنا فِيها مِن كُل زوجٍ بهيجٍ* تَبصِرةً وذِكْرى لِكُل عبدٍ منِيبٍ* ونَزلْنَا مِن السماءِ ماء مباركًا فَأَنْبتْنَا بِهِ جناتٍ وحب الْحصِيدِ* والنخْلَ باسِقَاتٍ لها طَلْع نضِيد* رِزقًا للْعِبادِ وأَحيينَا بِهِ بلْدةً ميتًا كَذَلِك الْخُروج ﴾.

وفي أحيان أخرى يكون قاطعا كالسيف البتار أو البرق الخاطف ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ ﴿قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقًا مما يكبر في صدوركم﴾ ﴿إنما



تعبدون من دون ا أوثانًا وتخلقون إفكًا﴾ ﴿قتل الإنسان ما أكفره* من أي شيء خلقه* من نطفة خلقه فقدره*﴾.

ولن نسهب في الحديث عن هذا الدليل، لأننا أشرنا إليه آنفًا في الفصل الرابع من هذا الكتاب، وحسبنا القول إن دليل القرآن هو أكثر الأدلة صدقًا ووضوحا وحسما في إثبات وجود ا تعالى وتنزيهه.

الشكاكون واللاأدريون:

لقد كان يفترض والأمر هكذا ألا يوجد من ينكر وجود ا بين ذوي الحجى – ولكن القضية أكثر تعقيدا. ومن السنن التي وضعها ا تعالى لهذا الكون وجود النقائض والأضداد. وأن المجتمع لا يأخذ وضعه ولا تسير أموره دون وجود "وجهة النظر الأخرى" ولو شاء ا تعالى لجعل مجتمعنا مجتمعا ملائكيا لا عمل له إلا التسبيح والتهليل. ولكن ا تعالى جعل مجتمعنا إنسانيا وألهم النفوس فجورها وتقواها وسمح بوجود قوى الشر والضعف بل إن القرآن الكريم يقرر أن الهداية هي حظ الأقلية. أما الأكثرية فإما لاهية.. أو

مفتونة بآراء الحياة الدنيا من سلطة أو جاه أو فتنة أو شهوات إلخ...

فليس من الغريب والأمر هكذا أن يوجد الذين يشترون الذي هو أدنى بالذي هو خير، والذين يتفادون كلمة "ا " ليلوذوا بتعبيرات غامضة – متهافتة ليس لها مدلول حقيقي وإنما تحيل على شيء آخر مثل "الطبيعة" لدى علماء الفيزياء أو "التطور" لدى علماء الأحياء أو "اليد الخفية" لدى علماء الاقتصاد السياسي.

وقد يصور اتجاههم كلمة جوليان هكسلي "إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة" وهؤلاء وجدوا في القديم كما وجدوا في الحديث وقد صورهم القرآن فأحسن تصويرهم ﴿ وإِذَا ذُكِر ا ُ وحده اشْمَأَزتْ قُلُوب الَّذِين لاَ يؤْمِنُون بِالآخِرةِ وإِذَا ذُكِر الَّذِين مِن دونِهِ إِذَا هم يستَبشِرون﴾ (٤٥ الزمر)، فإذا لم تكن الشقوة الغالبة هي التي جعلت هؤلاء يلوذون بذلك. فقد يعود سلوك بعضهم هذا المسلك إلى أنهم أرادوا ألا يقعوا تحت وصاية كنيسة أو أن يوضعوا في معسكرات مذهب... أو أن

يتحكم فيهم السدنة ويفرضوا عليهم خرافاتهم المقررة (وهذا ما اعترف به بعضهم).

ومن المحتمل أن بعضهم أراد التحرر مما يوجبه عليهم الاعتراف با من سلوك اجتماعي ومستوى في الحياة لا يقدرون عليه أو لا يريدونه، لأن جانب الاستمتاع بالحياة الطليقة أفضل لديهم.

وهناك بعد من آثر أن يقف على باب الشك أو يعترف بالجهل.. فإن معظم الذين لم يعترفوا بوجود ا – لم يقطعوا بعدم وجوده فشكهم في الوجود لا يرقى إلى مستوى اليقين في عدم الوجود. وهو موقف يذكر لهم ويفهم عند دراسة حالة كل واحد. والتعرف على الملابسات التي أحاطت به والظروف التي دفعته لهذا الموقف. وقد لا يهمنا كثيرا رأي فولتير الهازل الذي كان "يفترض" وجود ا ليحمي له أمواله وليضمن له ولاء خادمه وإخلاص زوجته ! ولا نرى فيه الحسنة الوحيدة التي ينسبونها إليه وهي "حرية الفكر" لأنه أثبت جهله بكتابه "محمد" الذي افترى فيه الأكاذيب على الرسول ثم زاد فأهداه متملقًا إلى البابا فأضاف النفاق إلى الجهالة، كما لا يهمنا كلام ماركس عن الدين كأفيون للشعوب

لأنه ينظر إلى القضية من زاوية محدودة هي علاقات الإنتاج وهي زاوية لا علاقة لها بالفلك ولا الفيزياء، ولا القيم ولا الجمال وليست إلا ناحية واحدة من النشاط المتعدد للكائن الإنساني، وهذا أيضا ما ينطبق على كلمات "فرويد" "إن أديان البشر يجب أن تصنف باعتبارها وهما من أوهام الجماهير وأن الأفكار الدينية نشأت من ضرورة حماية الإنسان لنفسه من قوة الطبيعة المتفوقة والساحقة" وأن البشر لا بد لهم من أن يعترفوا لأنفسهم بكامل عجزهم وتفاهة دورهم في آلية الكون – فهم لا يستطيعون بعد اليوم أن يكونوا محور الخليقة أو موضع عناية إلهية خيرة.

ونبوءته عن أن هذه الطفولية **infantilism** مقدور لها أن تتجاوز بالتأكيد، ويتحتم على الإنسان أن يتحلى بالشجاعة للاعتراف بأنه وحيد في هذا الكون الفسيح واللاشخصي، ففرويد طبيب وعندما يترك مجال الطب بل حتى نظريته الخاصة، يتوه، ومن الظلم أن تطبق مدرسة التحليل النفسي على آليات الكون أو الإليكترون وكلمة اللاشخصي توحي بأنه يتصور – أو أن الناس يتصورون – إلها شخصيا وهذا أمر مستبعد بالطبع، حتى سارتر الذي يقول "لأني أعتقد

وأؤمن بالحرية فإني لا أستطيع أن أكون مؤمنًا معتقدا با لأنه لو قبلت ا فلا محالة من قبول القضاء والقدر ولو قبلت القضاء والقدر لم يمكن أن أختار حرية الفرد ولأني أريد اختيار الحرية وأؤمن بها فلست مؤمنًا با " لا ينكر أنه ولد "قضاء وقدرا" لم يستشر قبل أن يولد لا في جنسه ولا في وطنه ولا في نفسه وأنه سيموت ما في ذلك شك حتى لو آثر أن يموت بيده منتحرا (فقد مات قضاء وقدرا) وهذه الحقائق هي ما يمكن أن يتعلق بها القضاء والقدر... ولا يجديه شيئًا أن ينكرها وله بعد هذا أن يعيش حرا دون أن يعاق رغبته في الحرية بقضية وجود ا أو حكمته، كما لن يكون الإيمان با قيدا على حريته لأن إله الفيلسوف لا بد وأن يكون أكثر فلسفة من الفيلسوف وأكثر حكمة منه وتقديرا له، ويحق له إن لم ينصفه العدل أن يأمل الغفران.

نقول إن هؤلاء لا يهمونا كثيرا وإنما نهتم برأي مفكر نحترمه مثل برتراند رسل يعد في الذروة من الفكر والمواقف الإنسانية والحضارية منذ الحرب العالمية الأولى حتى الحرب العالمية الثانية. وهو وريث صادق للحضارة الأوربية. تأثر بكل ما فيها من عناصر الوثنية الإنسانية التي

بدأت مع حقبتها اليونانية الرومانية. وحافظت عليها في الحقبة الرأسمالية الاشتراكية وأنه كذلك ورث ذكرى الكنيسة ومحاكم التفتيش والتحكم في الرأي وكلها كانت تبعده عن الدين قدر ما تقربه من عالم الإنسان والدنيوية.

إن رسل عندما جوبه بالمشكلة التي جابهت كل الفلاسفة من قبله. وهي مشكلة "العلة الأولى" التي ترتبط عادة بحقيقة وجود الكون.. قال إن مشكلة وجود ماض غير متناه مشكلة مرعبة إنه يستعصي على الفهم أن نتصور أنفسنا ورثة لزمان تمهيدي غير محدود كما أن مسألة وجود لحظة لم تسبقها لحظة أخرى بدورها ليست بأقل استعصاء على الفهم، وفي النهاية يصل..

"إما ألا يصدق القانون الثاني للترموديناميك في كل زمان ومكان أو أننا نكون قد أخطأنا في تصورنا لمحدودية عالم الوجود من الزاوية المكانية ولكن مادامت هذه الاستدلالات رائجة. فإني أرجح أن نقبل – بشكل مؤقت أن العالم من خلال زمانه المتناهي –

ابتدأ ولكن من نقطة مجهولة لدينا ترى هل نستطيع من هنا أن نستنبط أن العالم خلقه خالق...

إننا إذا لجأنا إلى القوانين القائمة على أسلوب الاستنباط العلمي الموجه فإن الجواب سيكون بالنفي طبعا. فليس هناك من دليل على أن العالم لم يوجد دفعة واحد غير مسألة الاستغراب من مثل هذا الأمر.. ولكنه ليس هناك في الطبيعة أي قانون يدل على أن ما يبدو بتصويرنا أمرا غريبا يجب ألا يقع.

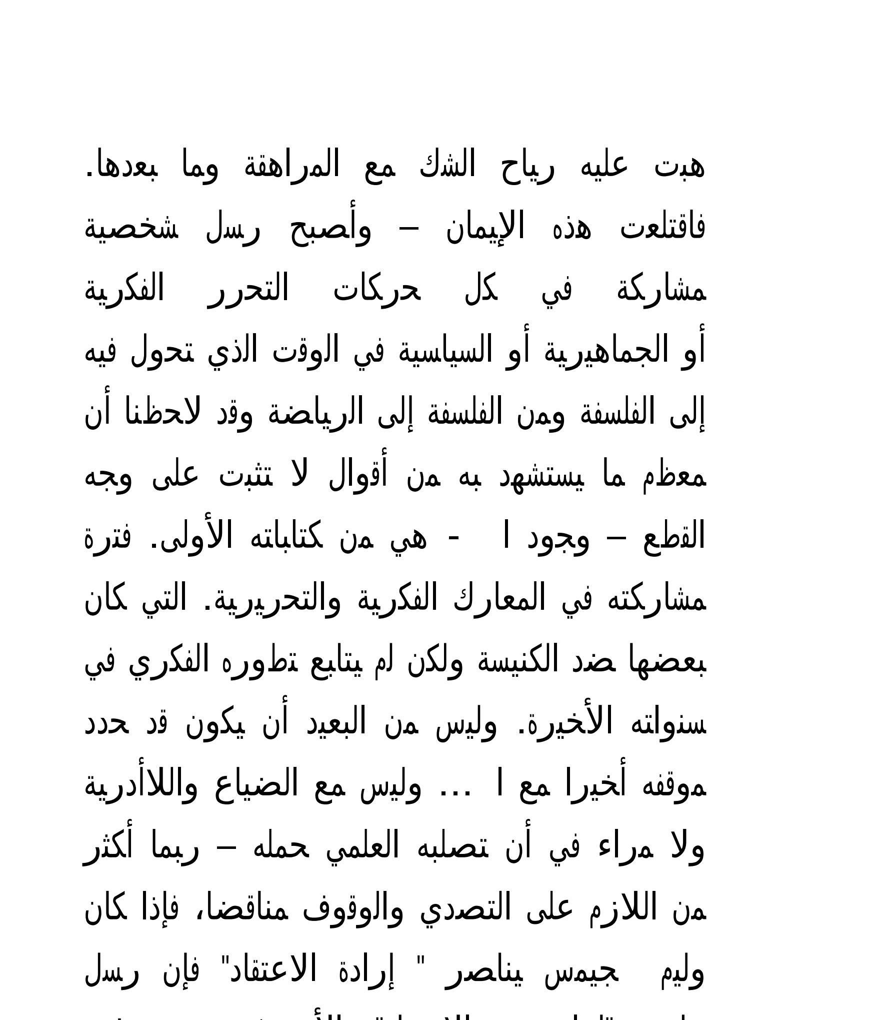
إن استنباطًا عن الخالق يساوي استنباط علة ما والاستنباطات العلية إنما يسمح بها في المجال العلمي إذا بدأت من القوانين العلية (الخلق من العدم شيء يمتنع بالتجربة)، ومن هنا فإن تصور أن يكون هناك خالق للعالم ليس بأية حال أكثر منطقية من فرض أن العالم وجد من غير علة ذلك أن كلا الفرضين ينقضان قوانين العلية التي تقدر على مشاهدتها بقوة معينة".

ورسل يعني بالجملة الأخيرة أنه إذا كان وجود ا يقوم على أن التسلسل العلمي لا يمكن أن يمضي

بلا نهاية ولا بد أن توجد العلة الأولى التي هي علة العال فإن وجهة النظر الثانية التي ترى أنه لا بد لكل علة من علة تنفي الافتراض الأول فكل افتراض من هذين ينفي الآخر.

وأرجحية الافتراض الأول وهو أن التسلسل العلمي لا يمكن أن يمضي بلا نهاية أقوى بكثير من الالتزام الصارم بضرورات المنطق الصوري. وإذا وسع رسل - كعالم يؤثر اللاأدرية – ترجيح افتراض على افتراض. ما لم يكن ذلك بدليل قاطع. فإن موقف اللاأدرية لا تستقيم عليه الأمور ويصبح من الضروري لرسل أن يحزم أمره... ولكن رسل نفض يديه من الأمر وتحول إلى عالم الرياضيات حيث وجد سلاما شبهه بسلام الإيمان الديني.

إن دراسة شخصية رسل وتطوره الفكري قد توضح لنا شيئًا ما مسلكه هذا. فهذا المفكر الذي ينحدر من إحدى الأسر البريطانية العريقة التي شغل بعض أفرادها رئاسة الوزارة في القرن التاسع عشر بدأ حياته متمسكًا أو حتى متعصبا.. بالمسيحية حتى



هبت عليه رياح الشك مع المراهقة وما بعدها. فاقتلعت هذه الإيمان – وأصبح رسل شخصية مشاركة في كل حركات التحرر الفكرية أو الجماهيرية أو السياسية في الوقت الذي تحول فيه إلى الفلسفة ومن الفلسفة إلى الرياضة وقد لاحظنا أن معظم ما يستشهد به من أقوال لا تثبت على وجه القطع – وجود ا - هي من كتاباته الأولى. فترة مشاركته في المعارك الفكرية والتحريرية. التي كان بعضها ضد الكنيسة ولكن لم يتابع تطوره الفكري في سنواته الأخيرة. وليس من البعيد أن يكون قد حدد موقفه أخيرا مع ا ... وليس مع الضياع واللاأدرية ولا مراء في أن تصلبه العلمي حمله – ربما أكثر من اللازم على التصدي والوقوف مناقضا، فإذا كان وليم جيمس يناصر " إرادة الاعتقاد" فإن رسل يناصر "إرادة عدم الاعتقاد" والأمر في حقيقته غير ذلك وأكبر من ذلك. وقد تناول وليم جيمس بالنقد موقف الحياد. واللاأدرية التي يرى بعض العقلانيين الالتزام بها وهي على كل حال أخف من موقف

"إرادة عدم الاعتقاد" "لأن هذه الأخيرة مرفوضة عقلاً وعملاً ولا أعتقد أن رسل نفسه يقرها، فهي حتى بالنسبة لمفكر جاد ترف أو سقطة. وقد آمن رسل بأهداف نبيلة عديدة تجعله مؤمنًا من حيث لا يحتسب ولا بد من اعتقاد في ا أفضل من الاعتقاد في الشيطان، وأفضل من اللااعتقاد.

خاتمة الفصل:

كانت فكرة ا تعالى متغلغلة في الفطرة البشرية والبداهة تجاه خالق الكون بحيث لم يمكن تجاهلها. فآمنت أغلبية العلماء والفلاسفة بوجود ا وشذت أقلية فوقف بعضها عند الشك واللاأدرية.. بينما لاذ البعض الآخر بتعبيرات بديلة عن تعبير ا مثل الطبيعة أو التطور... إلخ. حتى ينجو من الملابسات والتداعيات والأوضاع التي أحاطت بفكرة ا . وربطتها بالأديان والمؤسسات الدينية ومع هذا فإن منطلق الفلاسفة والعلماء نحو ا تعالى جعلهم يسلمون – بطريقة ما – بوجوده فالمناطقة سلموا بوجود إله ليس له من عمل إلا أنه العلة الغائية للكون. لأنه كان يتعين عليهم أن يخلصوا من التسلسل إلى ما لا نهاية، بينما آمن علماء

الطبيعة والكون بإله كوني أبدع الأفلاك وأحكم تحريكها وتنظيمها بحيث يكون هو المهندس الكوني الأعظم، وابتدع بعض المفكرين نظرية الساعة فقالوا إن ا تعالى خلق هذا الكون كما يخلق ساعاتي قدير ساعة محكمة ثم يدعها وتنقطع صلته بها وتدور الساعة بفضل قوتها الذاتية وتصميمها. وظنوا أن هذا التشبيه يخلصهم من مشكلة لم يجدوا لها حلاً هي العلاقة الدائمة والوثيقة بين ا تعالى وخلقه ولم يرد في خاطرهم وقتئذ أن من الممكن لإنسان – دع عنك ا – أن يحرك آلة يصنعها بطريقة "الريموت كونترول" وادعى بعض هؤلاء في تبرير مذهبهم هذا أي اقتصار دور ا تعالى على الخلق وعدم متابعة هذا الخلق يوما بعد يوم أو حتى دقيقة بعد دقيقة بأن ا تعالى أعظم من أن يشغل نفسه بتصرفات آحاد الناس – الذين لا قيمة لهم أمام عالم الكون العظيم الذي خلقه ا . وصور ذلك من المفكرين المصريين طه حسين في الكلمات التي كتبها سنة ١٩٢٣ وهو يعبر البحر الأبيض المتوسط نابذًا وراء ظهره الأزهر ومستقبلاً بوجهه فرنسا...

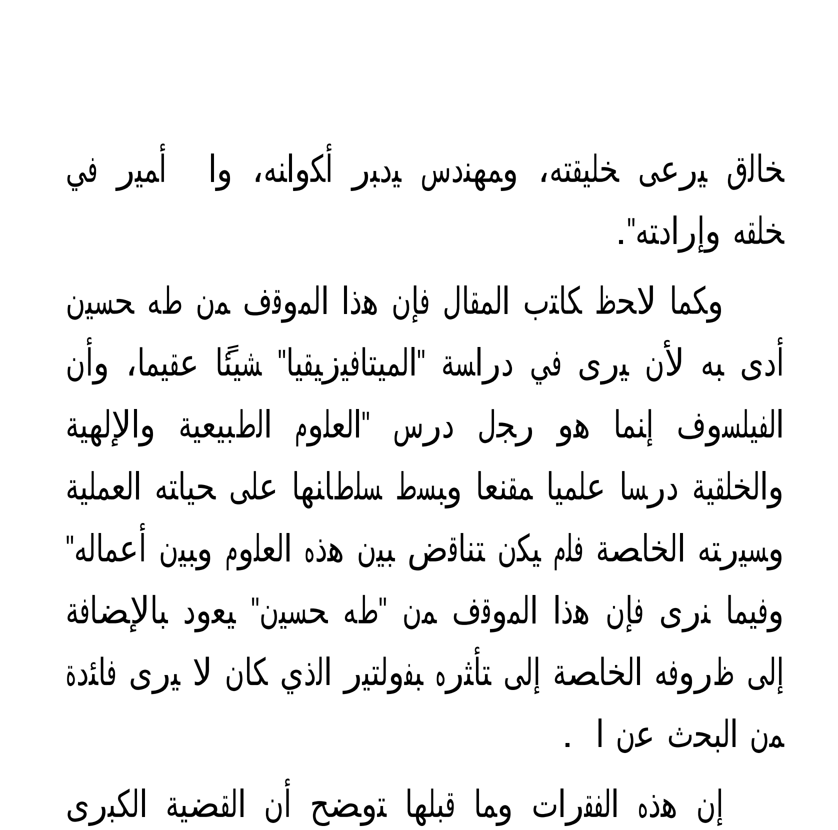
"... أعترف بأني في هذا الوقت أحسست شيئًا قد ينكره علي المؤمنون والملحدون جميعا. أحسست أن إيمان المؤمن

وإلحاد الملحد ضرب من الكبرياء وغلو الإنسان في تقدير نفسه وإكبار منزلتها. فإن هذا المؤمن الذي يعتقد أن خالق الكون ومدبره، خالق هذا الكون العظيم الذي لا تشعر بعظمته وأنت مستقر في دارك أو بالتحدث إلى رفاقك. أو القراءة في كتابك – وإنما تشعر بعظمته مع هدير البحر وعصف الريح وشكوى السفينة ، وحين تشعر شعورا بأن أسباب الحياة ضعيفة واهية، وبأن أقل شيء يستطيع أن يحطم هذه السفينة التي تقلك وأن يقطع كل ما بينك وبين النجاة، فتصبح نسيا منسيا، كأنك لم تكن قط، وكأنك لم تعرف أحدا، أو يعرفك أحد... أقول إن المؤمن الذي يعتقد أن خالق هذا الكون العظيم ومدبره يختصه بالبر والرحمة، ويرعاه في كل لحظة، بل في كل جزء من أجزاء اللحظة متكبر يرى نفسه شيئًا مذكورا. يستحق هذه العناية المقدسة العظمى، مع أن في الكون ما لا يقاس الإنسان إليه عظمة وجلالاً.

وهذا الملحد الذي يستشعر الإلحاد، ويتخذه مذهبا وعقيدة فيعاند ويدافع عن إلحاده كما يدفع المؤمن عن إيمانه، وينكر ا كما يثبته المؤمن، ويعتقد أن العقل كل شيء، وأن آثار العقل وحدها خليقة بالإجلال والإكبار، وأن نجاة الإنسان في

عبادة العلم والإذعان له. لا في إكبار الدين والخضوع لأوامره ونواهيه.. هذا الملحد يمعن في الغرور بقوة العقل والعلم وآثارهما".

ويعقب الأب كمال قلته الذي أورد هذا النص ضمن مقال عن "ا " في فكر طه حسين: بمجلة الإذاعة والتليفزيون.. "ولست بحاجة إلى القول بأن هذه النظرة لا تعظم ا ، وا فوق كل تعظيم، وإنما تحتقر الإنسان وتحمل بعضا من إنكار لأعظم الحقائق الإيمانية، التي تقرها كل الأديان وهي "**العناية الإلهية**" بل لعل أروع ما في الروحي هذا الإحساس بعناية ا بكل إنسان مهما صغر، وبكل أمر مهما ضؤل، وأعظم الفروق بين العلم والدين أن العلم يخضع كل شيء لقانون "العلة" و "المعلول" – أما الدين فيربط هذا القانون با ، علة العلل، وراعي المحاولات والنتائج – وهذا الارتباط بين عناية ا وأمور الإنسان والأشياء يعطي للحياة معناها الأصيل، كما يعطي للألم والموت المعنى الحقيقي والجوهري، بل إن دليلاً رائعا على وجود ا وعظمته يتضح من اهتمامه سبحانه وتعالى بخلائقه وكائناته، فا



خالق يرعى خليقته، ومهندس يدبر أكوانه، وا أمير في خلقه وإرادته".

وكما لاحظ كاتب المقال فإن هذا الموقف من طه حسين أدى به لأن يرى في دراسة "الميتافيزيقيا" شيئًا عقيما، وأن الفيلسوف إنما هو رجل درس "العلوم الطبيعية والإلهية والخلقية درسا علميا مقنعا وبسط سلطانها على حياته العملية وسيرته الخاصة فلم يكن تناقض بين هذه العلوم وبين أعماله" وفيما نرى فإن هذا الموقف من "طه حسين" يعود بالإضافة إلى ظروفه الخاصة إلى تأثره بفولتير الذي كان لا يرى فائدة من البحث عن ا .

إن هذه الفقرات وما قبلها توضح أن القضية الكبرى والشائكة أمام الفلاسفة والمفكرين لم تكن هي وجود ا تعالى إذ سلموا بهذا الوجود بعد أن تضافرت أدلة لا يمكن دفعها أو تجاهلها ولكن القضية الصعبة كانت هي ما يتعلق بذات ا تعالى ومدى قدرته أو طريقة استخدامه لقدراته وكما ذكرنا من قبل فإن هذا الموقف من "طه حسين" يعود بالإضافة إلى ظروفه الخاصة إلى تأثره بفولتير الذي كان لا يرى فائدة من البحث عن ا .

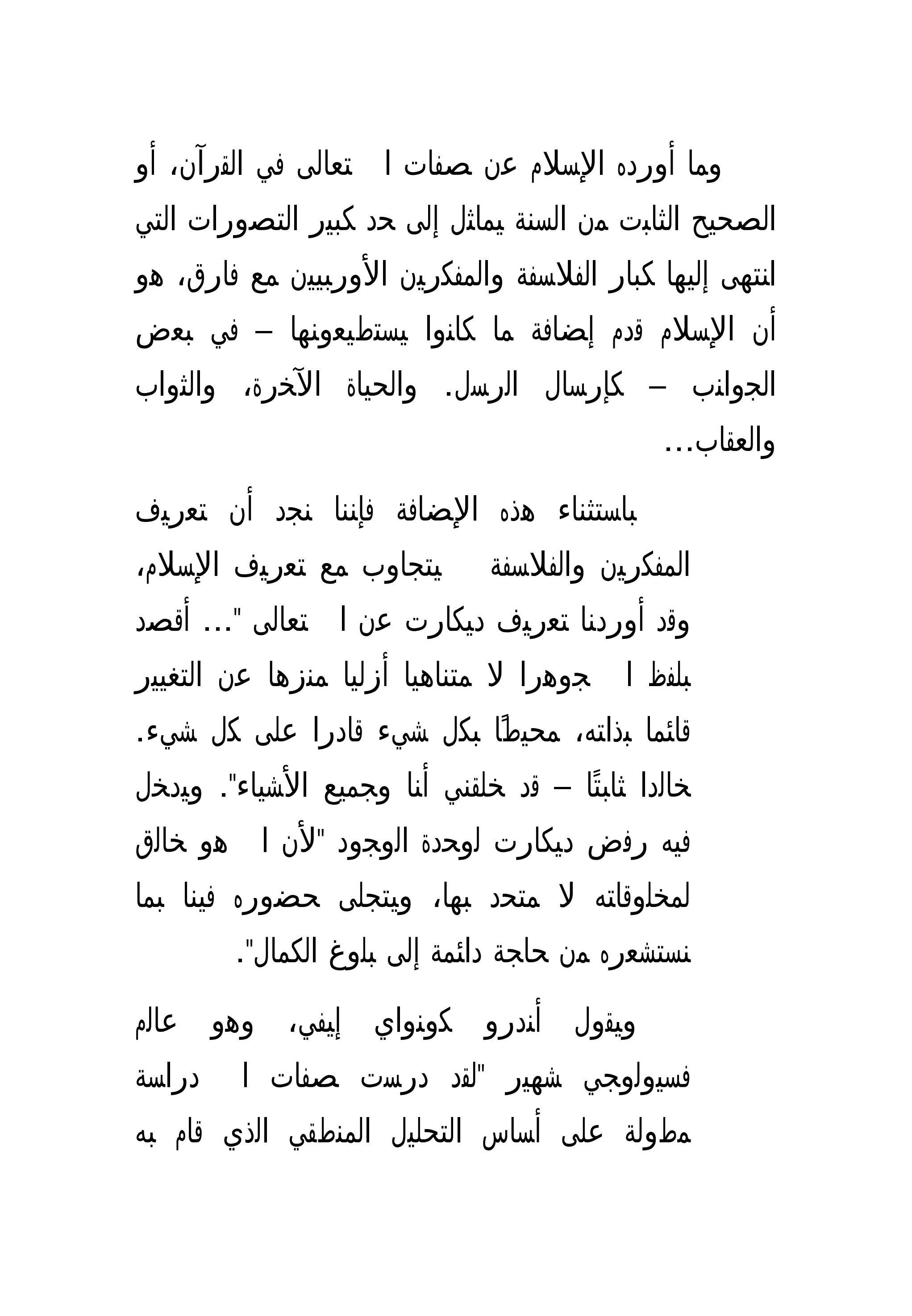
إن هذه الفقرات وما قبلها توضح أن القضية الكبرى والشائكة أمام الفلاسفة والمفكرين لم تكن هي وجود ا تعالى إذ سلموا بهذا الوجود بعد أن تضافرت أدلة لا يمكن دفعها أو تجاهلها ولكن القضية الصعبة كانت هي ما يتعلق بذات ا تعالى ومدى قدرته أو طريقة استخدامه لقدراته وكما ذكرنا من قبل فإن هذه النقطة بالذات هي التي تبرر وجود الأديان لأنه في الوقت الذي سكت العقل نطقت الأديان وجاء الأنبياء والمرسلون بما عجز عنه العلماء والمفكرون.

وقد حل الإسلام هذه القضية حلاً باتا عندما قال إن ا تعالى "ليس كمثله شيء" وعندما استبعد الحديث عن ذات ا وقطع بأن العقل البشري يعجز عن كنهه وفي الوقت نفسه قدم الخطوط العريضة التي يمكن للعقل البشري أن يستوعبها من "أسماء ا الحسنى" التي وصف ا تعالى بها نفسه في القرآن الكريم وقد قال أحد الكتاب "لقد اختصر المسلمون الطريق إذ قالوا إن ا "ليس كمثله شيء"[23] والأمر ليس

---

[1] الأستاذ إسماعيل مظهر، "بحث ا " مجلة المقتطف – مرجع سبق الإشارة إليه.

اختصارا للطريق قدر ما هو وضع الأمور مواضعها و "قطع الطريق" أمام تساؤلات ليس وراءها طائف ولم يكن هذا كما ذكر الكاتب لأن أصحاب الأديان أرادوا أن يحتفظوا بوحدة الاعتقاد أن يزلزله الشك وأن الذين ذهبوا إلى ذلك غفلوا عن أن الطبع البشري لا ينطوي على صفة الاعتقاد فحسب بل ينطوي أيضا على صفة الشك وأن جوع الإنسان للشك أشد من جوعه للاعتقاد "نقول إن الغرض من تقديم صيغة ﴿ ليس كمثله شيء﴾ لم يكن المحافظة على وحدة العقيدة فحسب، ولكن أيضا الحيلولة دون الضلال كما أن شك الإنسان يقف من تلقاء نفسه أمام تلك القضية التي لا يستطيع العقل استيعابها وأن من الخير أن يقف عندها وواقع الحال يثبت ذلك والفلاسفة لم يأتوا بما يقدم جديدا على ما قدمه القرآن. وعندما لم يلزم المسلمون أنفسهم بتوجيهات القرآن في الوقوف موقفًا إيمانيا مما جاء فيه عن ذات ا فإنهم فتحوا على أنفسهم بابا للخلاف والشقاق حول "آيات الصفات" و "خلق القرآن" وغيرهما من المعارك الفكرية العقيمة التي لا تنتهي إلى طائل.



وما أورده الإسلام عن صفات ا تعالى في القرآن، أو الصحيح الثابت من السنة يماثل إلى حد كبير التصورات التي انتهى إليها كبار الفلاسفة والمفكرين الأوربيين مع فارق، هو أن الإسلام قدم إضافة ما كانوا يستطيعونها – في بعض الجوانب – كإرسال الرسل. والحياة الآخرة، والثواب والعقاب...

باستثناء هذه الإضافة فإننا نجد أن تعريف المفكرين والفلاسفة يتجاوب مع تعريف الإسلام، وقد أوردنا تعريف ديكارت عن ا تعالى "... أقصد بلفظ ا جوهرا لا متناهيا أزليا منزها عن التغيير قائما بذاته، محيطًا بكل شيء قادرا على كل شيء. خالدا ثابتًا – قد خلقني أنا وجميع الأشياء". ويدخل فيه رفض ديكارت لوحدة الوجود "لأن ا هو خالق لمخلوقاته لا متحد بها، ويتجلى حضوره فينا بما نستشعره من حاجة دائمة إلى بلوغ الكمال".

ويقول أندرو كونواي إيفي، وهو عالم فسيولوجي شهير "لقد درست صفات ا دراسة مطولة على أساس التحليل المنطقي الذي قام به

الفلاسفة، وأمكن باستخدام المنطق الوصول إلى أن ا صفات معينة، وفيما يلي مجموعة غير كاملة منها : "ا أبدي، خالد، لطيف، ليس ماديا، ليس حادثًا، قدوس، طيب، يعلم الشر ولكنه ليس شريرا ولا يريد الشر، لا يكره الأشياء، حق، عليم، محب، مريد، منزه عن الشهوات والنزوات أصل الفضائل جميعا" (٢٤).

والملحوظ أن هذه التعريفات "التي صدرت عن علماء أوربيين ومسيحيين أقرب إلى التعريف الإسلامي منها إلى التعريف المسيحي الذي يتحدث عن لاهوت معقد، ذي صلة غامضة ما بين الأب والابن والروح القدس بل إن بعض الكتاب رأوا أن من أسباب نفض اليدين من فكرة ا أن "جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في إله على صورة الإنسان بدلاً من الاعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة على الأرض، وأنه عندما تنمو العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة

---

(١) ا يتجلى في عصر العلم – مرجع سابق – ص ١٥٦.

العلمية فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير أو مع أي منطق مقبول، وأخيرا عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة، وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي، نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة ا كلية...

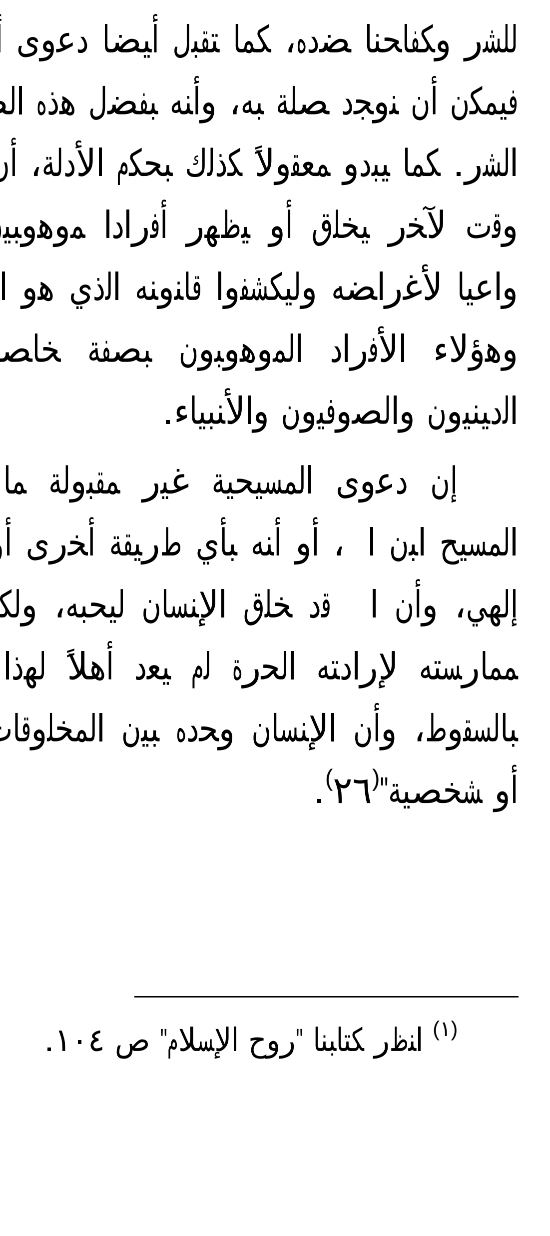
ويقول جورج هربرت بلونت وهو أستاذ فيزياء "وتدل الشواهد على أن هناك نوعا من الإجماع بين الفلاسفة والمفكرين على أن لهذا الكون إلها، ولكنه لا يوجد اتفاق على أن هذا ا هو ذاته إله الكتب المقدسة"[٢٥].

وحدد ج. إ. م جود اعتقاده:

"إن دعوى المسيحية مقبولة ما ظلت مقصورة على تأكيد وجود الإله وأنه يعني ويهتم بعالمنا، وأنه مبدأ الخير وأصل النظام الأدبي في الكون، وأنه بالتالي أصل التجربة

---

(١) وولتر أوسكار لندبرج – عالم فسيولوجي – "ا يتجلى في عصر العلم" مرجع سابق ص ٣٤.



الأدبية، أي معرفتنا بالخير وتفضيلنا له على الشر ومقتنا للشر وكفاحنا ضده، كما تقبل أيضا دعوى أننا إذا صلينا له، فيمكن أن نوجد صلة به، وأنه بفضل هذه الصلة يساعدنا ضد الشر. كما يبدو معقولاً كذلك بحكم الأدلة، أن نفترض أنه من وقت لآخر يخلق أو يظهر أفرادا موهوبين ليقدموا تعبيرا واعيا لأغراضه وليكشفوا قانونه الذي هو القانون الأخلاقي. وهؤلاء الأفراد الموهوبون بصفة خاصة هم المعلمون الدينيون والصوفيون والأنبياء.

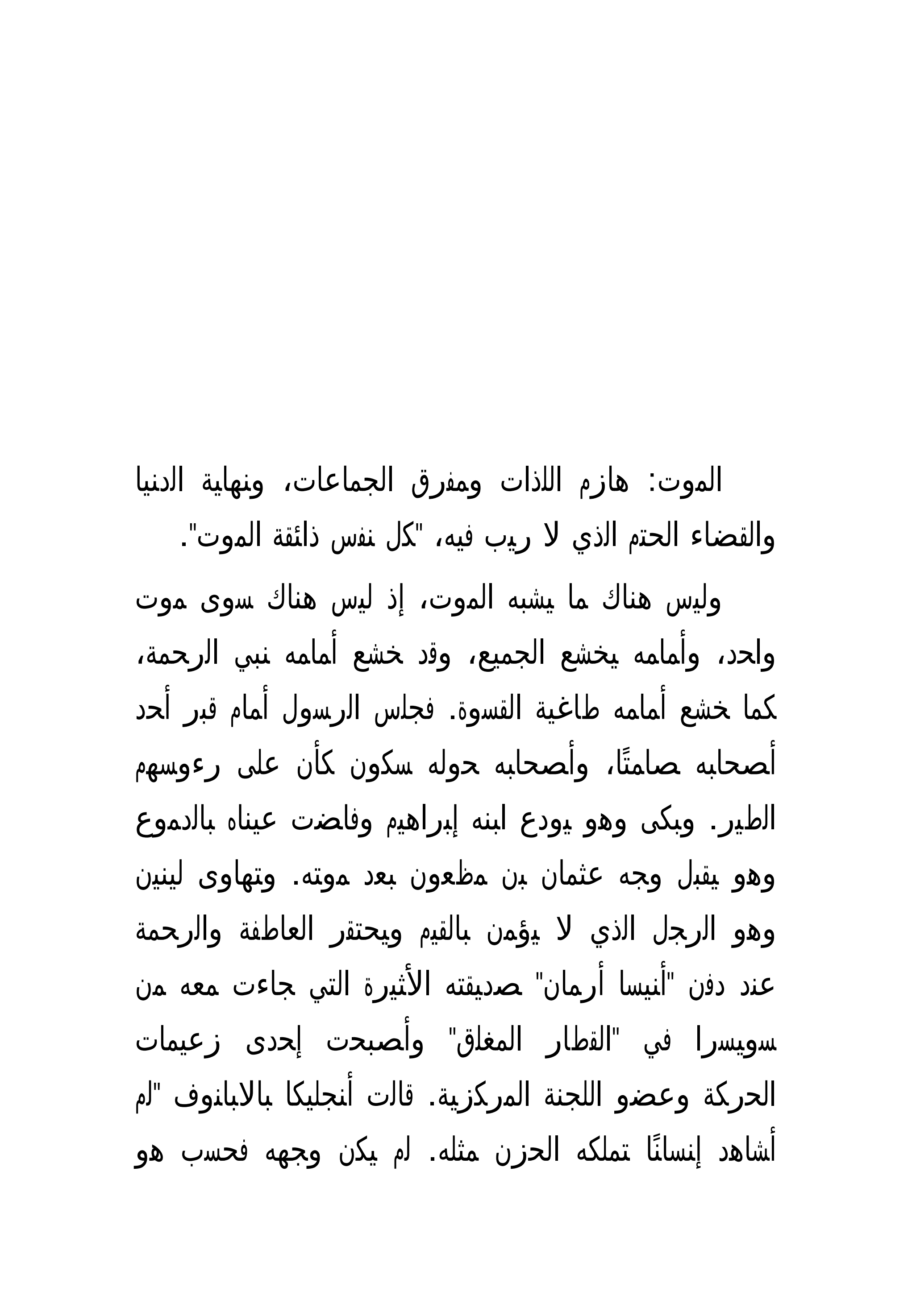
إن دعوى المسيحية غير مقبولة ما ظلت تؤكد أن المسيح ابن ا ، أو أنه بأي طريقة أخرى أو لأي سبب آخر إلهي، وأن ا قد خلق الإنسان ليحبه، ولكن الإنسان خلال ممارسته لإرادته الحرة لم يعد أهلاً لهذا الحب، وعوقب بالسقوط، وأن الإنسان وحده بين المخلوقات من يملك نفسا أو شخصية"(٢٦).

---

[1] انظر كتابنا "روح الإسلام" ص ١٠٤.

الفصل الثانى

الموت وخلود الروح



الموت: هازم اللذات ومفرق الجماعات، ونهاية الدنيا والقضاء الحتم الذي لا ريب فيه، "كل نفس ذائقة الموت".

وليس هناك ما يشبه الموت، إذ ليس هناك سوى موت واحد، وأمامه يخشع الجميع، وقد خشع أمامه نبي الرحمة، كما خشع أمامه طاغية القسوة. فجلس الرسول أمام قبر أحد أصحابه صامتًا، وأصحابه حوله سكون كأن على رءوسهم الطير. وبكى وهو يودع ابنه إبراهيم وفاضت عيناه بالدموع وهو يقبل وجه عثمان بن مظعون بعد موته. وتهاوى لينين وهو الرجل الذي لا يؤمن بالقيم ويحتقر العاطفة والرحمة عند دفن "أنيسا أرمان" صديقته الأثيرة التي جاءت معه من سويسرا في "القطار المغلق" وأصبحت إحدى زعيمات الحركة وعضو اللجنة المركزية. قالت أنجليكا بالابانوف "لم أشاهد إنسانًا تملكه الحزن مثله. لم يكن وجهه فحسب هو

الذي ينطق بالألم، بل كل جسمه لدرجة لم أستطع معها أن أحييه، ولو بإشارة. وكان يبدو كما لو أنه تقاص فغطت قبعته وجهه بينما اخضلت عيناه بالدموع" وقالت "ألكسندرا كولونتاي " التي كانت حاضرة: "عندما أُحضر جثمان "أنيسا" وسرنا إلى المقبرة، لم أتعرف على لينين، فقد كان يسير وعيناه مغلقتان، وظننا أنه سيخر واقعا بعد كل خطوة" ورأت أن وفاة أنيسا عجلت بتفاقم مرض لينين الذي انتهى بوفاته(٢٧).

تلك هي سطوة الموت ورهبته، ومع هذا فقد يكون من المفارقة أن نقول إن الموت ليس قضية الموتى، ولكنه قضية الأحياء !! إن دقائق معدودة أو نصف ساعة هي التي تفصل ما بين الحياة والموت، ويغلب أن يمضيها من سيموت في غيبوبة، فيموت دون أن يشعر أو يحس. فالموت ليس قضيته وبالنسبة له فالأمر كما قال المتنبي.

إلفُ هذا الهواء أوقع فى النفس

---

(27) Lenin by David Shub pp 381 – 382 (Pelican Original).

أن الحـمام مـر المـذاق

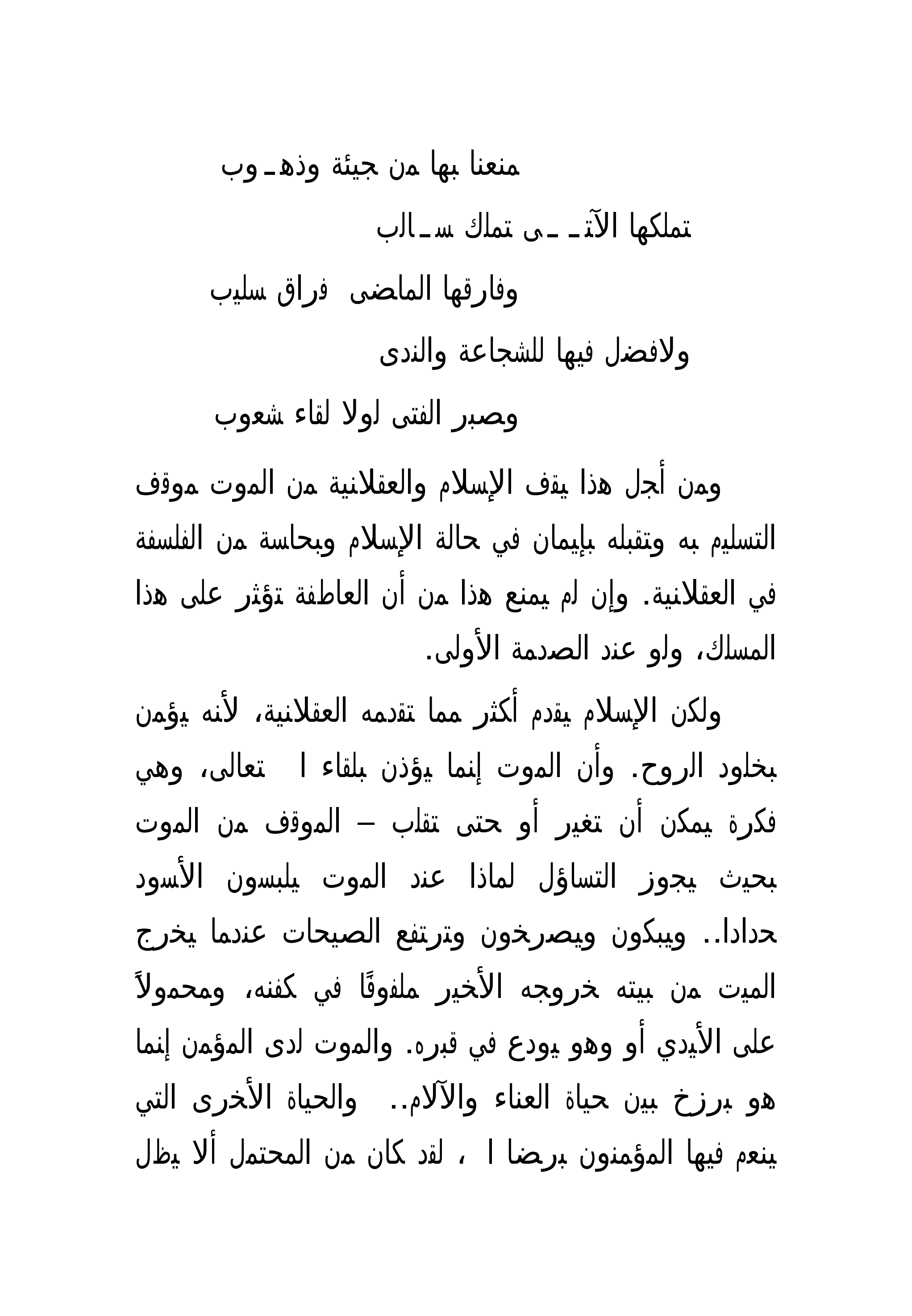
والأسى قبل فرقة الروح عجز

والأسى لا يكون بعد الفراق

لهذا فإن الموت هو قضية الأحياء، إما لأنه يأخذ منهم الأحباء والأعزاء، وإما لأنه يذكرهم بيومهم الآتي، الذي يكونون فيه الموتى لا المشيعين.

وليس هناك بعد ما هو أكثر بداهة من الموت، فلا بد أن يكون لكل شيء نهاية، وكل يوم تغرب فيه الشمس يموت يوم ليولد يوم جديد مع الشروق... ومن غير المتصور أن يعيش الإنسان أبدا. إن الخلود والبقاء أبدا يصبح عبئًا وعقابا ويفقد الحياة طعمها كما أن من غير المعقول أن يتلاقى على الأرض أجداد الأجداد... وأحفاد الأحفاد. ولولا الموت لما أمكن تصور الحياة والمجتمع فإذا استحال الموت – لجوع أو حاجة أو مرض أو عجز – فما الذي يجعل الناس تعمل وماذا تكون عليه الأخلاق والعلاقات. لقد أدرك المتنبي هذا المعنى عندما قال :

سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها



منعنا بها من جيئة وذهـوب

تملكها الآتـ ـى تملك سـالب

وفارقها الماضى فراق سليب

ولافضل فيها للشجاعة والندى

وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

ومن أجل هذا يقف الإسلام والعقلانية من الموت موقف التسليم به وتقبله بإيمان في حالة الإسلام وبحاسة من الفلسفة في العقلانية. وإن لم يمنع هذا من أن العاطفة تؤثر على هذا المسلك، ولو عند الصدمة الأولى.

ولكن الإسلام يقدم أكثر مما تقدمه العقلانية، لأنه يؤمن بخلود الروح. وأن الموت إنما يؤذن بلقاء ا تعالى، وهي فكرة يمكن أن تغير أو حتى تقلب – الموقف من الموت بحيث يجوز التساؤل لماذا عند الموت يلبسون الأسود حدادا.. ويبكون ويصرخون وترتفع الصيحات عندما يخرج الميت من بيته خروجه الأخير ملفوفًا في كفنه، ومحمولاً على الأيدي أو وهو يودع في قبره. والموت لدى المؤمن إنما هو برزخ بين حياة العناء والآلام.. والحياة الأخرى التي ينعم فيها المؤمنون برضا ا ، لقد كان من المحتمل ألا يظل

هذا مجرد تساؤل وأن يطبق "عبد ا البري" فكرة "عبد ا البحري(٢٨)" لولا الضعف البشري، ولولا تلك الطقوس التي تعقب الموت والتي تضاعف من دراماتيكيته بدءا من تكفينه حتى طريقة الدفن "الغرابية" التي لم تجد البشرية بديلاً عنها في الشرق والغرب.. فالموت كحقيقة لا مناص منها والإسلام يدعو للاستسلام له والرضا به. ولكن طريقة التصرف في الجسد العزيز الذي كان يبلور لنا المتوفى والذي كان محل إعزازنا وقبلاتنا.. وطالما ضممناه إلينا.. وكانت حركاته وسكناته هي ما تذكرنا به وتربطنا إليه.. هذه قضية أخرى، وهي التي تضاعف من مأساوية الفراق الأبدي بما تضمنه من تكفين ودفن.. إلخ. وأعتقد أن التقدم في مجال الطب أوجد للناس مندوحة وبديلاً، فإن الإنسان ليسعد عندما يتصور أن ضريرا سيرى بقرنية عين الميت، أو أن مريضا بالفشل الكلوي سيجد خلاصا في إحدى كليتيه وما إلى ذلك.

---

(١) الإشارة هنا إلى إحدى قصص ألف ليلة وليلة – وهي قصة "عبد ا البري"، و "عبد ا البحري" وقوم عبد ا البحري يعيشون في البحر ويقابلون الموت بسرور ويلبسون له الملابس البيضاء.

إن هذا لا ريب أفضل من ترك الجسد الجميل لترعاه الهوام، وهو ينقل العملية من أيدي "المغسل" و "الحانوتي" و "المقبرة" الكئيبة إلى أيدي الأطباء والممرضات وغرفة العمليات، ويا لها من نقلة. ولا يخالجنا أقل شك في أن هذا هو الأقرب إلى الإسلام الذي يؤثر النفع والفائدة للناس ولا يجعل من الموتى أوثانًا، ولا من قبورهم مشاهد يحج إليها [29]، ومن الطبيعي ألا تتضمن مراجع الفقه المدونة شيئًا من هذا، إذ أنه ما كان متصورا لولا التقدم الطبي الحديث، ولكن العقل وهو أول مصدر من مصادر الفقه يوجبه ويأخذ به.

وعلى كل حال فإن الموقف الإسلامي من الموت وإن لم يصل إلى هذا (وما كان يمكن أن يصل إليه قبل تقدم وسائل الجراحة والطب في الفترة الأخيرة) فإن تقبله للموت

---

[1] لما كنا نعلم أن المجتمع الإسلامي إنما تحكمه التقاليد والعادات، وليس العقل أو حتى الإسلام، فإن تصور تطبيق ذلك بصورة شبه عامة أمر بعيد، فضلاً عن أن دون ذلك مصالح مكتسبة، ومهن تفيد من الموت. ولكننا على الأقل نعتزم أن نطبق ذلك على أنفسنا عند الموت، وبهذا نقدم خدمة أخيرة لإخواننا .. ونعفي الأهل والأصدقاء من الآلام والمشاق، ونعتبر هذا وصية بذلك.

واعتباره بداية للحياة الأخرى، التي يتركز حولها الاهتمام وتعد هي "الحياة" الحقيقية الخالدة، هون من شأن الحياة الدنيا، وقلل من الحرص عليها وما يرتبط بذلك أو ما يتطلبه من مصانعة أو رضا بالهوان، أو التجاء للنفاق مما يعد ثمنًا لا مناص منه للبقاء في الوظائف أو بلوغ المناصب العليا، فالتشبث بالحياة والخوف من الموت يلجئان الإنسان هذا الملجأ، فإذا كان لا يخشى الموت وإنما يرحب به.. ويسعى إليه خلال جهاده. سواء كان قتالاً في معركة، أو كفاحا في عقيدة، فإنه يحس بالحرية ولا يتردد في رفض كل صور الدنية أو الهوان التي تخالف عقيدته، ولا يتملكه الخوف من الإقدام على الأعمال العظيمة المحفوفة بالمخاطر، وهذا هو في الحقيقة المضمون الإيجابي للإيمان بالقضاء والقدر (الذي يعد الموت أعلى مستوياته) وبحق يتساءل المؤمن.

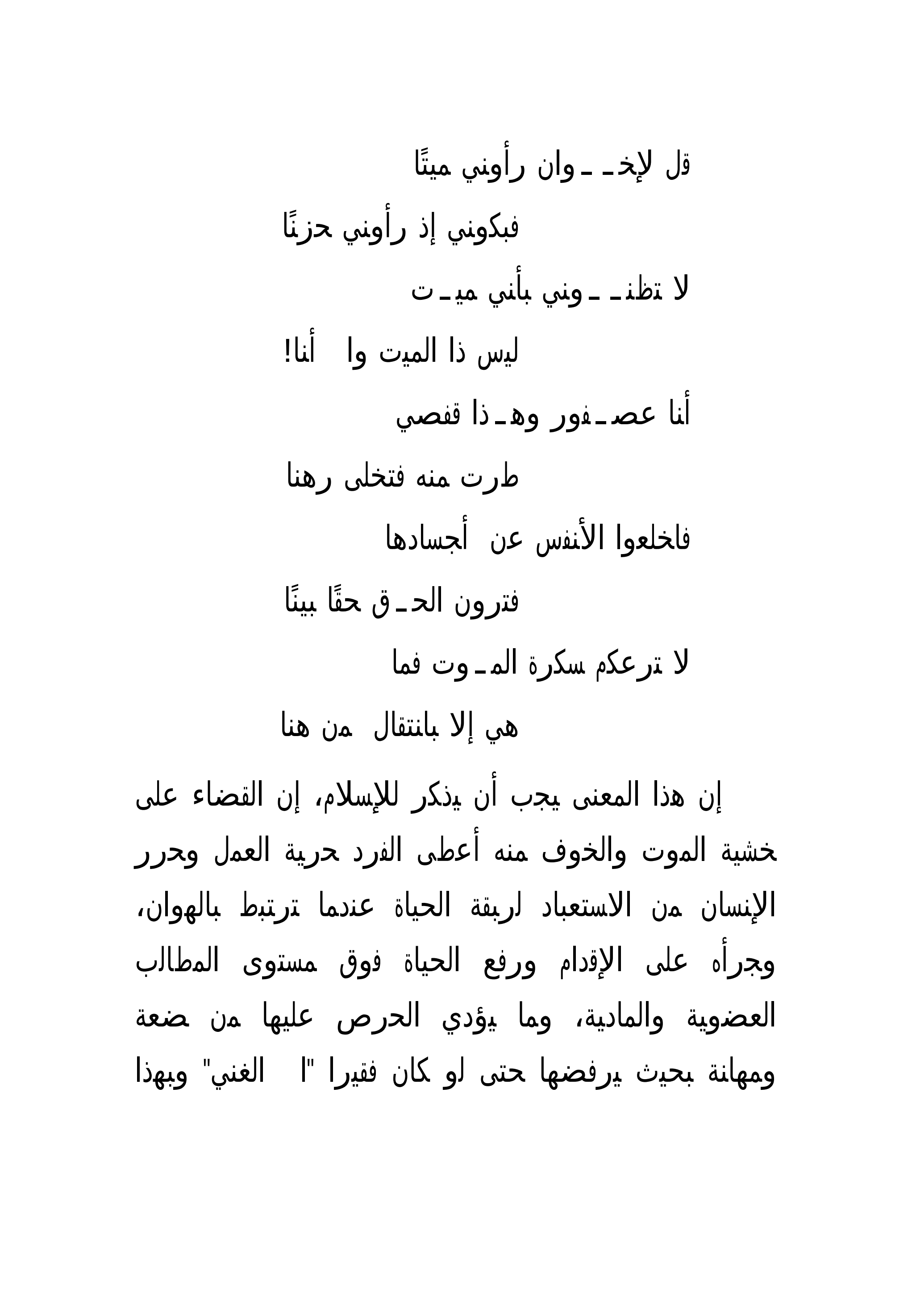
أي يومي من الموت أفر

يوم لا يقدر أو يوم قـ در

يوم لا يقدر لا يرهبني

ومن المقدور لا يغني مفر

أو يؤكد لإخوته...



قل لإخـ ـوان رأوني ميتًا

فبكوني إذ رأوني حزنًا

لا تظنـ ـوني بأني ميـ ـت

ليس ذا الميت وا أنا!

أنا عصـ ـفور وهـ ـذا قفصي

طرت منه فتخلى رهنا

فاخلعوا الأنفس عن أجسادها

فترون الحـ ـق حقًا بينًا

لا ترعكم سكرة المـ ـوت فما

هي إلا بانتقال من هنا

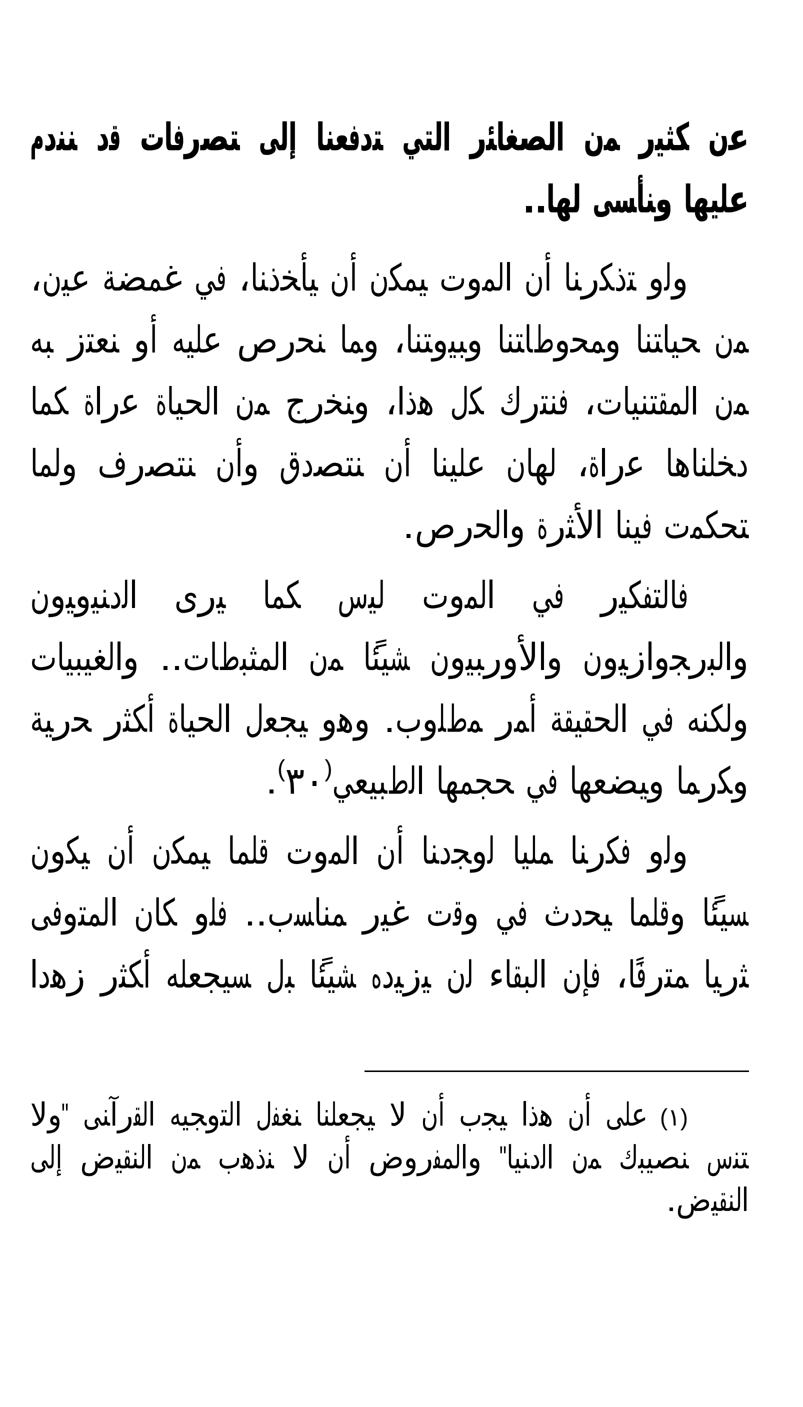
إن هذا المعنى يجب أن يذكر للإسلام، إن القضاء على خشية الموت والخوف منه أعطى الفرد حرية العمل وحرر الإنسان من الاستعباد لربقة الحياة عندما ترتبط بالهوان، وجرأه على الإقدام ورفع الحياة فوق مستوى المطالب العضوية والمادية، وما يؤدي الحرص عليها من ضعة ومهانة بحيث يرفضها حتى لو كان فقيرا "ا الغني" وبهذا

برأ المؤمنين من الوهن. وهو بتعبير الحديث "حب الدنيا وكراهية الموت".

قارن هذا بالذين يؤمنون أنهم لا يعيشون إلا مرة واحدة. وأن الموت هو النهاية وليس وراء الموت من حياة أو حساب أو عقاب، وما يدفعهم هذا الإيمان إلى الحرص على البقاء على قيد الحياة لأطول مدة والاستمتاع بها إلى آخر مدى، وكيف أن هذا يمكن أن يشكل المجتمع بحيث تكون "الحياة البرجوازية" باستمتاعها هي المثل الأعلى، وهي الواقعة التي نراها في المجتمع الأوربي.

وحتى إذا لم يوجد الاستمتاع فإن هذه الفكرة تجعل مجرد البقاء على ظهر الأرض خير من الدفن في بطنها، ولو تطلب هذا المثل "إن كان لك عند الكلب حاجة، قل له يا سيدي !!!".

ومن ناحية أخرى، فإننا لو وضعنا فكرة الموت في أذهاننا، وأن من الممكن أن يأخذ منا الموت في لحظة الآباء والأمهات والزوجات والأبناء والبنات.. لجعلنا هذا نغير من تعاملنا معهم ولأصبحنا أكثر كرما وصفحا وعطاء، ولتنازلنا



عن كثير من الصغائر التي تدفعنا إلى تصرفات قد نندم عليها ونأسى لها..

ولو تذكرنا أن الموت يمكن أن يأخذنا، في غمضة عين، من حياتنا ومحوطاتنا وبيوتنا، وما نحرص عليه أو نعتز به من المقتنيات، فنترك كل هذا، ونخرج من الحياة عراة كما دخلناها عراة، لهان علينا أن نتصدق وأن نتصرف ولما تحكمت فينا الأثرة والحرص.

فالتفكير في الموت ليس كما يرى الدنيويون والبرجوازيون والأوربيون شيئًا من المثبطات.. والغيبيات ولكنه في الحقيقة أمر مطلوب. وهو يجعل الحياة أكثر حرية وكرما ويضعها في حجمها الطبيعي[٣٠].

ولو فكرنا مليا لوجدنا أن الموت قلما يمكن أن يكون سيئًا وقلما يحدث في وقت غير مناسب.. فلو كان المتوفى ثريا مترفًا، فإن البقاء لن يزيده شيئًا بل سيجعله أكثر زهدا

---

(١) على أن هذا يجب أن لا يجعلنا نغفل التوجيه القرآنى "ولا تنس نصيبك من الدنيا" والمفروض أن لا نذهب من النقيض إلى النقيض.

فيما هو فيه. كما قد يجعله يتعرض للفاقة، فالموت أفضل له. وإذا كان المتوفى شابا في ريعان الشباب أو غادة في منتهى الجمال فما أفضل الموت في مثل هذا الوقت قبل أن يبلغا أرذل العمر، وإذا كان الميت فقيرا بائسا لديه تلال من الهموم والآلام فإن الموت سيخلصه منها.

* * *

ويقدم لنا الشعر إضافة الفنان جنبا إلى جنب إضافة الإيمان الإسلامي والاستسلام الفلسفي. وهي إضافة تسير مع خيال الفنان فتكشف أبعادا لا يبلغها إلا هذا الخيال.

خذ مثلاً (شوقي) :

ماذا وراء الموت من سلوى ومن

دعة ومن كرم ومن إغضاء

إن كانت الأولى منـازل فـرقة

فالسمحة الأخرى ديـار لقاء

أو (مخاطبا تولستوي):

رأينا بنور الموت كل حقيقة

وكان كلانا في الحياة ضرير

أو (المتنبي):

نحـن بنـو الموتى، فما بالنا

نعاف ما لا بـد من شربه

تبخـل أيـدينـا بأرواحـنا

على زمـان هي من كسبه

فهذه الأرواح مـن جـو

وهذه الأحـياء من تـربه

لو فكـر العاشـق في منتهى

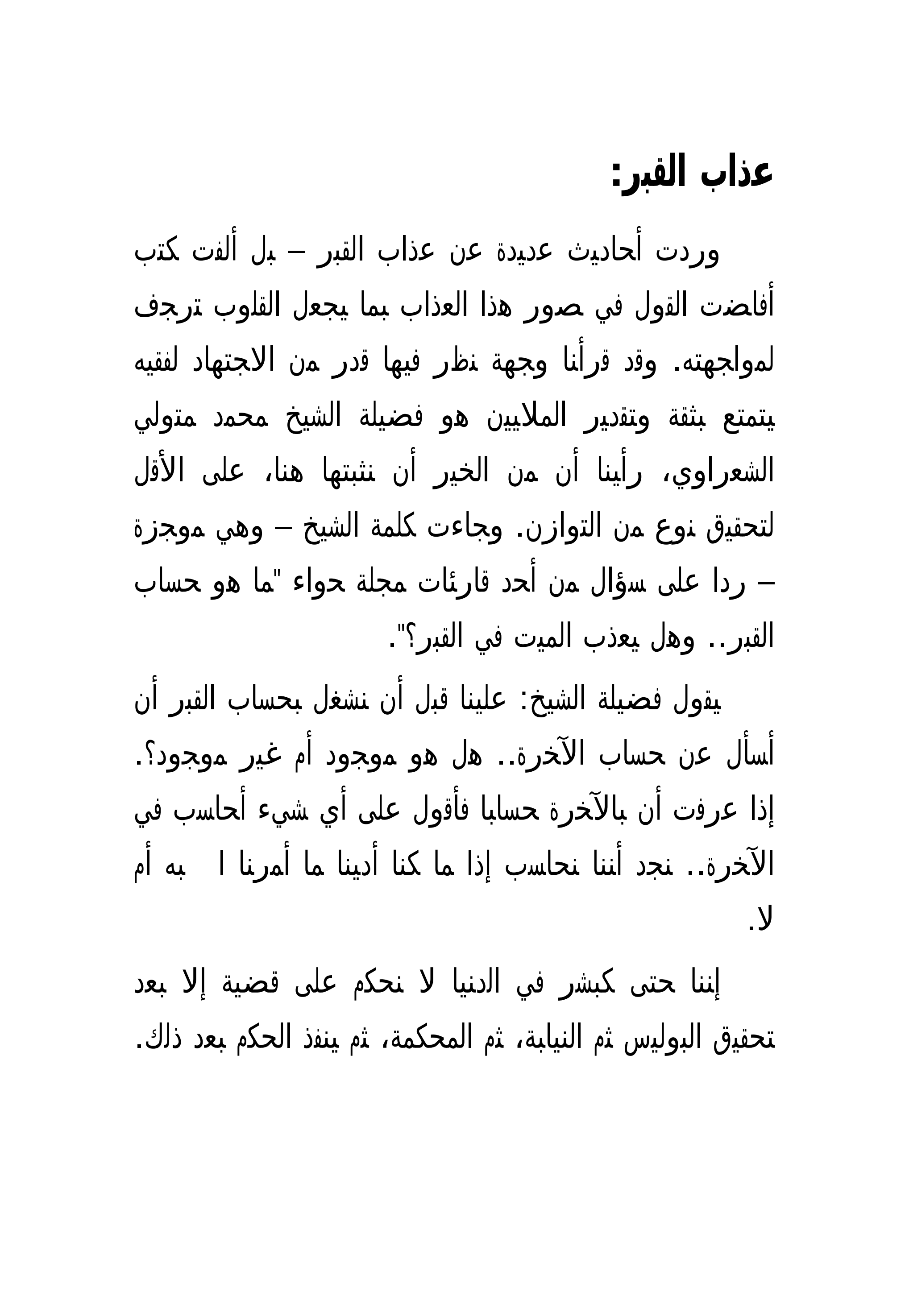
حسن الذي يسبيه لم يسبه

يموت راعي الضأن في جهله

موتة جـالينـوس في طبه

وربما زاد علـى عمره

وزاد في الأمن على سربه

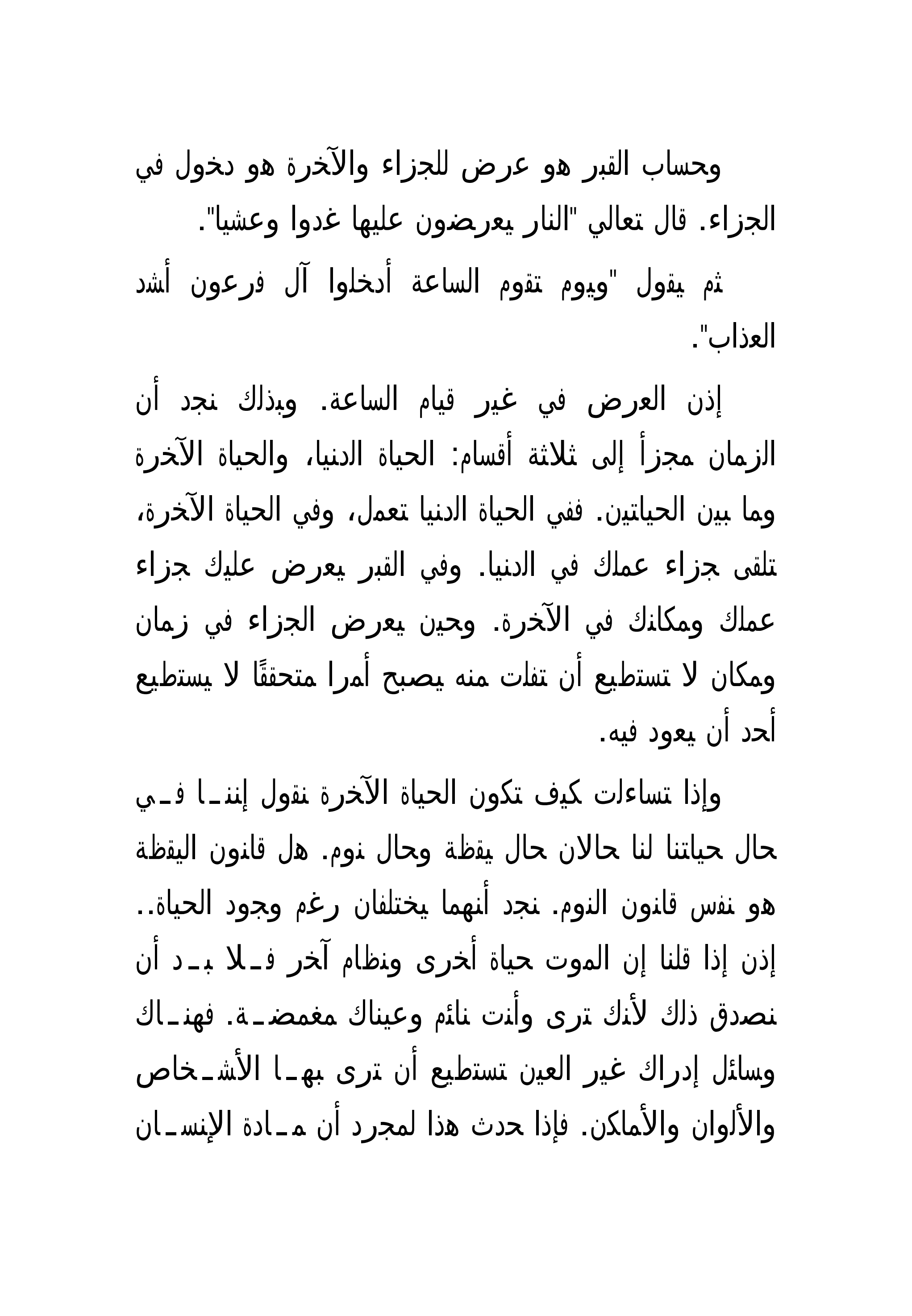


عذاب القبر:

وردت أحاديث عديدة عن عذاب القبر – بل ألفت كتب أفاضت القول في صور هذا العذاب بما يجعل القلوب ترجف لمواجهته. وقد قرأنا وجهة نظر فيها قدر من الاجتهاد لفقيه يتمتع بثقة وتقدير الملايين هو فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، رأينا أن من الخير أن نثبتها هنا، على الأقل لتحقيق نوع من التوازن. وجاءت كلمة الشيخ – وهي موجزة – ردا على سؤال من أحد قارئات مجلة حواء "ما هو حساب القبر.. وهل يعذب الميت في القبر؟".

يقول فضيلة الشيخ: علينا قبل أن نشغل بحساب القبر أن أسأل عن حساب الآخرة.. هل هو موجود أم غير موجود؟. إذا عرفت أن بالآخرة حسابا فأقول على أي شيء أحاسب في الآخرة.. نجد أننا نحاسب إذا ما كنا أدينا ما أمرنا ا به أم لا.

إننا حتى كبشر في الدنيا لا نحكم على قضية إلا بعد تحقيق البوليس ثم النيابة، ثم المحكمة، ثم ينفذ الحكم بعد ذلك.

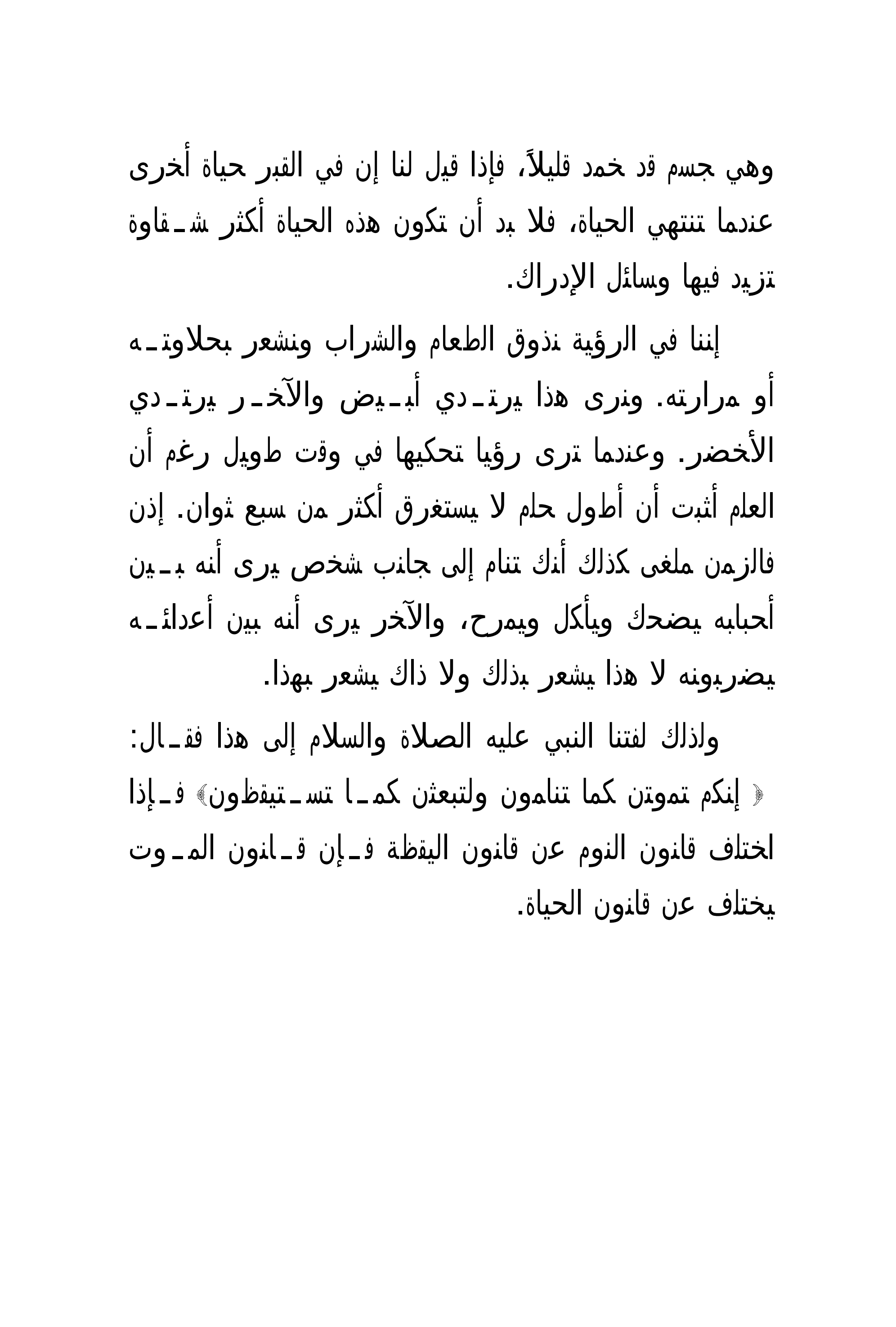


وحساب القبر هو عرض للجزاء والآخرة هو دخول في الجزاء. قال تعالي "النار يعرضون عليها غدوا وعشيا".

ثم يقول "ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب".

إذن العرض في غير قيام الساعة. وبذلك نجد أن الزمان مجزأ إلى ثلاثة أقسام: الحياة الدنيا، والحياة الآخرة وما بين الحياتين. ففي الحياة الدنيا تعمل، وفي الحياة الآخرة، تلقى جزاء عملك في الدنيا. وفي القبر يعرض عليك جزاء عملك ومكانك في الآخرة. وحين يعرض الجزاء في زمان ومكان لا تستطيع أن تفلت منه يصبح أمرا متحققًا لا يستطيع أحد أن يعود فيه.

وإذا تساءلت كيف تكون الحياة الآخرة نقول إننـا فـي حال حياتنا لنا حالان حال يقظة وحال نوم. هل قانون اليقظة هو نفس قانون النوم. نجد أنهما يختلفان رغم وجود الحياة.. إذن إذا قلنا إن الموت حياة أخرى ونظام آخر فـلا بـد أن نصدق ذلك لأنك ترى وأنت نائم وعيناك مغمضـة. فهنـاك وسائل إدراك غير العين تستطيع أن ترى بهـا الأشـخاص والألوان والأماكن. فإذا حدث هذا لمجرد أن مـادة الإنسـان



وهي جسم قد خمد قليلاً، فإذا قيل لنا إن في القبر حياة أخرى عندما تنتهي الحياة، فلا بد أن تكون هذه الحياة أكثر شـقاوة تزيد فيها وسائل الإدراك.

إننا في الرؤية نذوق الطعام والشراب ونشعر بحلاوتـه أو مرارته. ونرى هذا يرتـدي أبـيض والآخـر يرتـدي الأخضر. وعندما ترى رؤيا تحكيها في وقت طويل رغم أن العلم أثبت أن أطول حلم لا يستغرق أكثر من سبع ثوان. إذن فالزمن ملغى كذلك أنك تنام إلى جانب شخص يرى أنه بـين أحبابه يضحك ويأكل ويمرح، والآخر يرى أنه بين أعدائـه يضربونه لا هذا يشعر بذاك ولا ذاك يشعر بهذا.

ولذلك لفتنا النبي عليه الصلاة والسلام إلى هذا فقـال: ﴿ إنكم تموتن كما تنامون ولتبعثن كمـا تسـتيقظون﴾ فـإذا اختلف قانون النوم عن قانون اليقظة فـإن قـانون المـوت يختلف عن قانون الحياة.

إذن فلا يوجد عذاب بالقبر ولكن عرض ورؤيـة فقـط لموقف الإنسان من عذاب أو نعيم"(٣١).

* * *

قلنا إن العقلانية، تشترك مع الإسلام في تقبل الموت كواقعة ضرورية لا بد أن تقابل بالرضا والتسليم، ولكن الإسلام يقدم ما تعجز عنه العقلانية ألا وهو "خلود الروح" وهو ما يعد من أكبر القضايا التي تطرحها العقلانية على الإسلام. فمع أن وجود ا هو القضية الأولى إلا أنها من البداهة بحيث لم تستطع العقلانية عندما تكابر – أن تجزم بنفيها وقصارى ما يمكن أن تصل إليه مكابرتها هو "اللاأدرية" أما في حالة خلود الروح، فإن العقلانية تنكرها. ولا تدع لها القاعدة الحسية التي ترتكز عليها شكًا في أن الموت هو النهاية.. وأي شيء أوضح – فيما ترى من هذا. وهذا جسد يتحال حتى يصبح هيكلاً عظميا أو قبضة من تراب. فكيف يمكن الشك في أن هذه هي النهاية؟ وكيف يقال

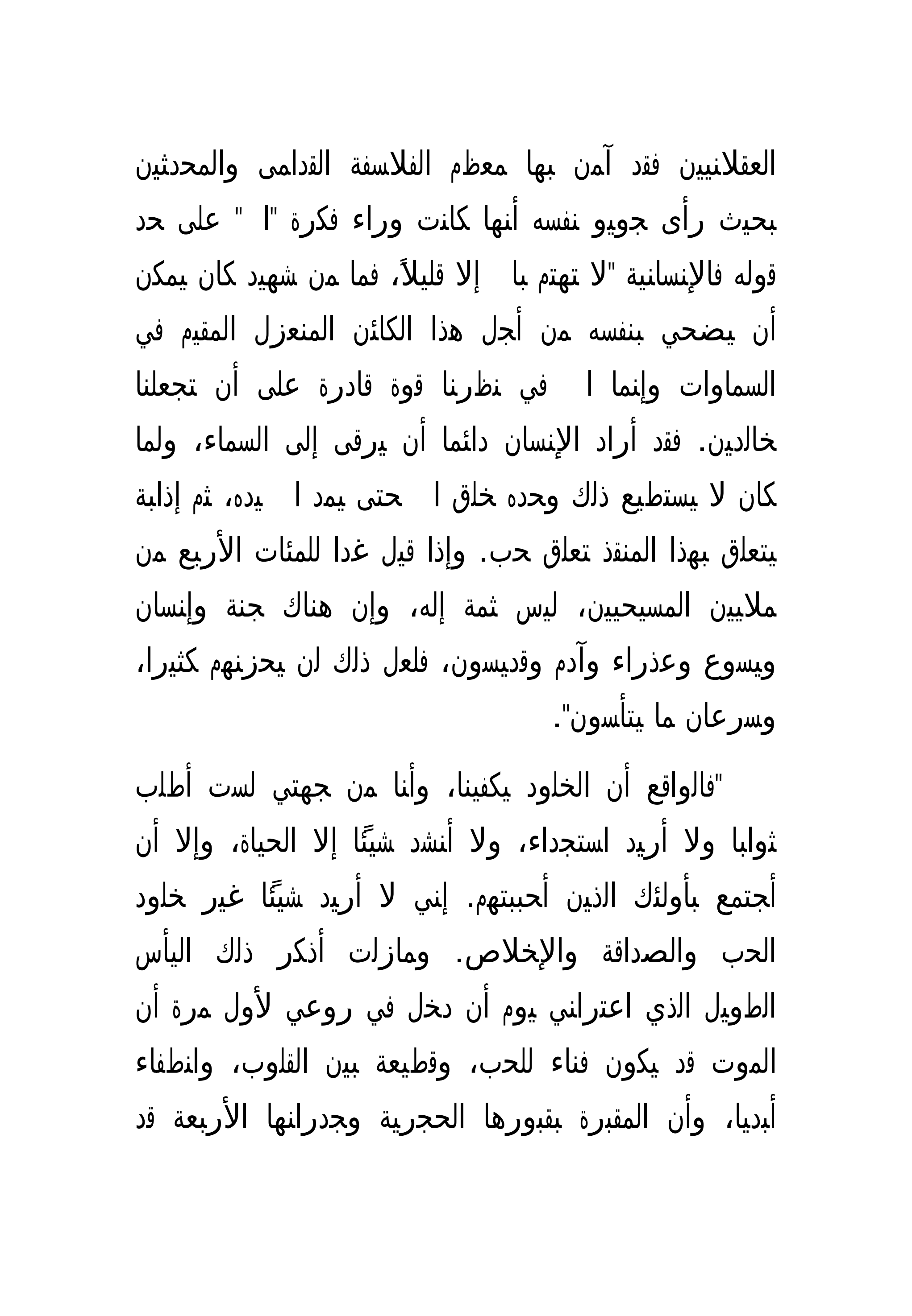
---

(١) مجلة حواء العدد ١٣٢ – ١٣ فبراير سنة ١٩٨٢ ص ٣١.

إن هناك "روحا" تختلف عن الجسد، ولا تموت مع الجسد؟ ﴿أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد﴾ وكيف حدث أن لم يظهر أحد من الذين ماتوا عبر مئات القرون من ألوف الملايين الذين ماتوا منذ أن ظهرت البشرية ليقص علينا ما وراء الموت لماذا تتنحى تلك الأرواح الظافرة وتقيم بعيدا عن هذه المعركة الدائمة التي تستمر بعدها.. لماذا تتركنا ما دامت قوتها لم تنقص بعد الموت.. لماذا لا تعمل هذه القوة في خدمة إخوانها من البشر.. ما كان أعمق اعتقاد الأقدمين بأن روح الأجداد تتحرك وتعمل من حولهم في كل مكان وأن الأموات يحيون إلى جانبهم حياة ثانية، وأن العالم يعج بالأرواح، وأن لهذه الأرواح قدرة فوق قدرة البشر إذا كانت النفس لا تموت، فلا بد أن تصبح عونًا للغد[٣٢].إلى آخر ما ذكره ج. م جويو في كتابه "الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء".. حتى وإن اشتطت به الدعوى إلى ما ماثل سذاجة الأقدمين.. نقول إن قضية خلود الروح رغم أنها غصة في حلوق

---

[١] الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء تأليف ج. م جويو – ترجمة سامي الدروبي ص ٣١ – دار الفكر العربي – القاهرة .



العقلانيين فقد آمن بها معظم الفلاسفة القدامى والمحدثين بحيث رأى جويو نفسه أنها كانت وراء فكرة "ا " على حد قوله فالإنسانية "لا تهتم با إلا قليلاً، فما من شهيد كان يمكن أن يضحي بنفسه من أجل هذا الكائن المنعزل المقيم في السماوات وإنما ا في نظرنا قوة قادرة على أن تجعلنا خالدين. فقد أراد الإنسان دائما أن يرقى إلى السماء، ولما كان لا يستطيع ذلك وحده خلق ا حتى يمد ا يده، ثم إذابة يتعلق بهذا المنقذ تعلق حب. وإذا قيل غدا للمئات الأربع من ملايين المسيحيين، ليس ثمة إله، وإن هناك جنة وإنسان ويسوع وعذراء وآدم وقديسون، فلعل ذلك لن يحزنهم كثيرا، وسرعان ما يتأسون".

"فالواقع أن الخلود يكفينا، وأنا من جهتي لست أطلب ثوابا ولا أريد استجداء، ولا أنشد شيئًا إلا الحياة، وإلا أن أجتمع بأولئك الذين أحببتهم. إني لا أريد شيئًا غير خلود الحب والصداقة والإخلاص. ومازلت أذكر ذلك اليأس الطويل الذي اعتراني يوم أن دخل في روعي لأول مرة أن الموت قد يكون فناء للحب، وقطيعة بين القلوب، وانطفاء أبديا، وأن المقبرة بقبورها الحجرية وجدرانها الأربعة قد

تكون هي الحقيقة الواقعية، وأن الأشخاص الذين كانوا يجعلون حياتي روحية، ولن يلبثوا أن ينتزعوا مني، أو لن ألبث أن أنتزع منهم، وأننا لن نتواصل بعد ذلك أبدا".

"وهكذا فإن الصورة القديمة للمسألة الدينية والأخلاقيـة، أعني مسألة وجود الإله، ترتد إلى هذه الصـورة الجديـدة، مسألة الخلود"(٣٣).

كما أن بعض الكتاب يرى أن فكرة "خلود الروح" قد لعبت دورا أكبر من فكرة "وجود ا ". وقد لاحظ وليم جيمس ذلك عندما قال "إن الدين في الواقع عند الأغلبية من الناس يعني خلود الروح ليس إلا.. وإن ا هو موجد هذا الخلود". ويقول الكاتب الإسباني ميجيل دي أنامايو: "كنت أتحدث إلى فلاح ذات يوم واقترحت عليه فرض وجود إله يحكم في الأرض وفي السماء، كما اقترحت عليه أيضا فرض عدم خلود الأرواح وأنه لن يكون بعث ولا نشور بالمعنى التقليدي المعروف، فأجابني الفلاح قائلاً: "وما فائدة ا إذن؟" وربما

---

(١) الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء – مرجع سابق ص ٣٢.

كان "لوثر" يفكر مثل هذا التفكير عندما قال حانقًا: "إذا لم تعتقد في اليوم الآخر، ما ساوى إلهك عندي شيئًا". وحتى الشعراء قد اتبعوا هذا الرأي، فقد أعلن "تنيسيون" ذلك قائلاً "لو أن خلود الروح غير حقيقي لكان شيطانًا مزورا، وليس ا ، من خلقنا". وليس بمستغرب أن يكون هذا هو أسلوب هؤلاء السادة في التفكير، فقد كتبوا هذه الأفكار في ضوء تعاليم الديانة المسيحية، فالمسيحية قد أكدت فكرة الخلود تأييدا كبيرا، ونجد منذ فجر المسيحية القديس "بولس" يعلن دون لبس، لب هذا المذهب، إذ يقول "وإن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا، وباطل أيضا إيمانكم.. إن كان لنا في هذه الحياة فقط رجاء في المسيح فإننا أشقى جميع الناس" (ا كو ١٥ : ١٤ : ١٩) [٣٤].

من هذه النصوص المستشهد بها نرى أن فكرة خلود الروح كانت عميقة الجذور. ولا نجد حساسية إزاء كلام دي

---

(٢) خلود للدكتور سيد عويس ص 55 (دار المعارف بالقاهرة). وانظر استدراكًا لهذه الفكرة من وجهة النظر الإسلامية في الفصل التالي.

جويو.. لأننا نؤمن أن هذا كان تصور البشرية في فترة ما قبل النبوات وإن لم يكن الوجود "الموضوعي" والحقيقي لأن كل ما يتصوره الإنسان أو يتمناه لا بد وأن يكون له أصل في الحقيقة، فلا شيء من لا شيء، وقد حقق العصر التصورات والتأملات التي جاءت في "ألف ليلة وليلة" وإن اختلفت الصورة بل وما جاوز هذه التصورات كالانطلاق إلى القمر والنزول على أرضه. إن أحلام الأمس حقائق اليوم وهو ما كان يقوله الإمام الشهيد حسن البنا مستنهضا شباب الإخوان، أو دافعا لهم للتغلب على صعوبات الحاضر ووصولاً للمستقبل، **يمكن أن يكون مبدءا عاما**.

وقد أثبتت البحوث العلمية أن الفكرة الساذجة القديمة للبشرية عن خلود الروح لها أصل علمي. وكما سنرى فإن هذه البحوث أثبتت أن الموت ليس هو نهاية الفرد الإنساني. ولكن هناك نوعا من البقاء يطلقون عليه "النفس" أو "الروح" أو "الإرادة" أو "العقل" أو عالم الأثير يحفل فعلاً بالأرواح.. حتى وإن عجز العلم عن الاتصال بها.

ومن أبسط ما يمكن أن يقدمه العالم في هذا الصدد "أن مبدأ الانفصال المسيطر على جميع ظواهر التطور، مبدأ كلي

شامل، يتعذر علينا أن نظن أن الموت يجل عن الخضوع له. وكما أن الجنين وهو حي فيه كل خصيات الأحياء، ولا يستطيع أن يعرف شيئًا عن حياته المقبلة قبل أن ينفصل عن أمه، كذلك الحي يعجز بطبيعة الحال عن أن يعرف شيئًا مما ينتظره بعد أن تحل عملية الانفصال، إذ يحدث به حدث الموت، وما هو إلا الظاهرة التي تعبر لنا عن مبدأ الكون الكلي "مبدأ الانفصال"[(٣٥)].

علم الأحياء.. من الخلية إلى الروح:

فتحت التطورات العلمية الأخيرة مجالات لم يكن يتصورها البيولوجي القديم في معمله المتواضع. ووجد البيولوجي الحديث آفاقًا عديدة تتفتح له لم يكن يتصورها أو يحلم بها العالم القديم الذي كان ينظر إلى الجسم الإنساني ككل، أو يقسمه إلى الأعضاء المعروفة.. ولكنه لا يتصور ما وراء ذلك، وقد كشف العصر الحديث التكوين المعقد للجسم

[(١)] الأستاذ إسماعيل مظهر – مقدمة في حياة الروح في ضوء العلم – انظر الفقرة التالية.

الإنساني، فالجسم يتكون من ذرات غاية في الصغر، والذرات تكون جزئيات، والجزئيات تكون خلايا والخلايا تكون أنسجة ولحما وعظما.. وأعضاء.

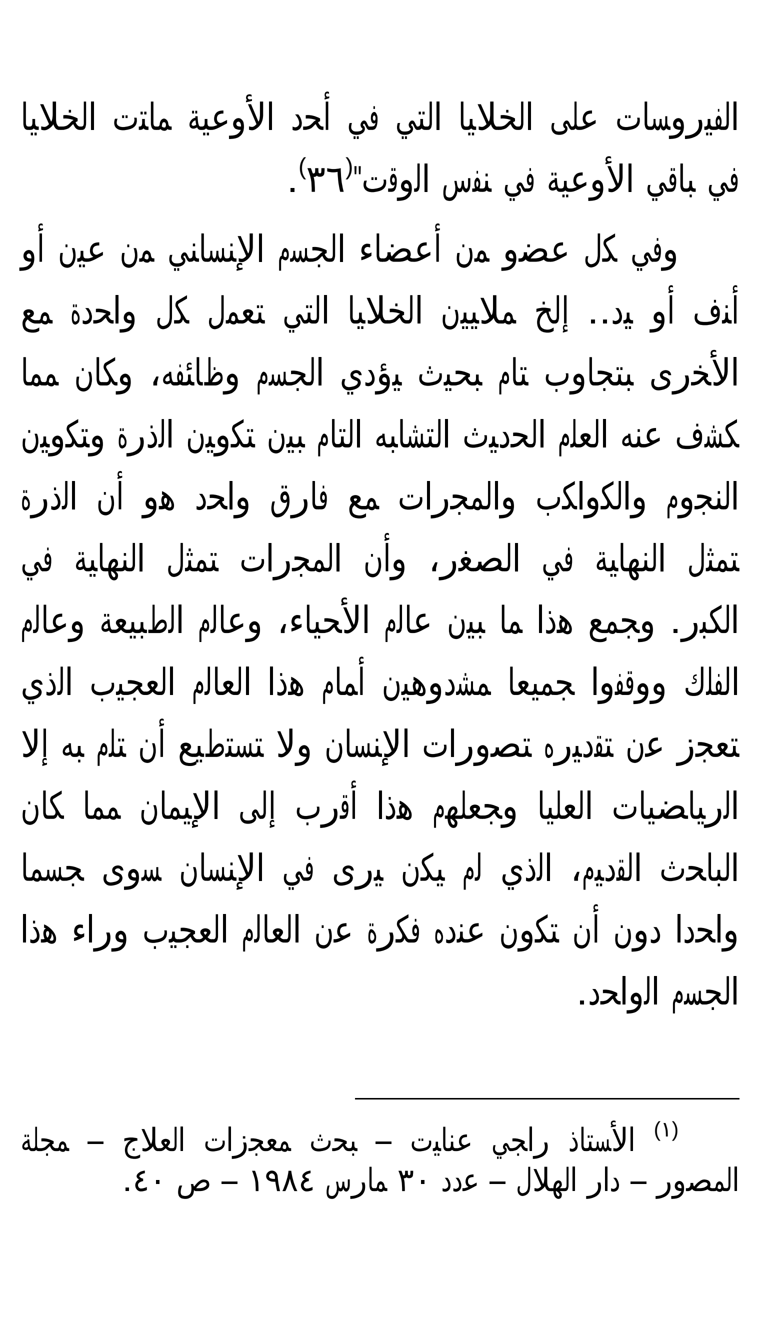
والذرات هي من الصغر بحيث لو تراصت عشرة ملايين ذرة من ذرات الأيدروجين في طابور لما بلغ طوله مليمتر واحد..

وهذه الذرة الدقيقة تتكون من نواة.. والنواة مبنية من أجزاء أدق بعضها بروتونات (جسيمات كهربية موجبة) وبعضها نيوترونات (جسيمات متعادلة) وتدور حولها على مسافة بعيدة نسبيا إلكترونات (جسيمات كهربائية سالبة) والإلكترون يدور حول نواة الذرة وهذه الذرة ليست كلها مادة صلبة بل إن نسبة المادة الصلبة إلى الفراغ الذي تدور فيها لإلكترونات هو نسبة ١: ألف مليون مليون (١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠)

وهذا الإلكترون الذي هو أصغر الجسيمات الذرية حجما يدور ٧٠٠ مليون دورة في الثانية الواحدة.

وفي كل ثانية تموت وتتجدد خمسة ملايين وسبعمائة ألف خلية تحمل الحديثة منها صفات القديمة.

وفي الخلية تجتمع آليات الحياة العضوية (البروتوبلازمية) مع آليات النشاط الذري من كهرباء ومغناطيسية وإشعاع.. إلخ وهي مثل جهاز الراديو يجب أن تتناغم وفقًا للتردد المطلوب أو بالتعبير الشائع تضبط موجتها على المحطة المطلوبة، وهو في حالة الخلية – التردد الذي يتوافق مع العمليات الحيوية. باختصار يمكن القول بأن كل خلية تعمل كما لو كانت تحمل جهازا للاتصال اللاسلكي يتيح لها أن تستقبل وترسل رسائل، وتتضمن مكوناتها أشباه موصلات عضوية كالبللورات السائلة" وهي مادة فائقة الحساسية للتغيرات في درجة الحرارة والتغييرات المغناطيسية والكهربائية والإشعاعية بالإضافة إلى حساسيتها الفائقة للتلوث وتحوطها مجالات كهرو – مغناطيسية لا تشعر بها الحواس الخمسة، وفي بعض التجارب التي أجريت في الاتحاد السوفيتي اقتطعت بعض خلايا الإنسان ووضعت في أوعية مختلفة من الكوارتز، وعندما سلطت بعض أنواع



الفيروسات على الخلايا التي في أحد الأوعية ماتت الخلايا في باقي الأوعية في نفس الوقت"[٣٦].

وفي كل عضو من أعضاء الجسم الإنساني من عين أو أنف أو يد.. إلخ ملايين الخلايا التي تعمل كل واحدة مع الأخرى بتجاوب تام بحيث يؤدي الجسم وظائفه، وكان مما كشف عنه العلم الحديث التشابه التام بين تكوين الذرة وتكوين النجوم والكواكب والمجرات مع فارق واحد هو أن الذرة تمثل النهاية في الصغر، وأن المجرات تمثل النهاية في الكبر. وجمع هذا ما بين عالم الأحياء، وعالم الطبيعة وعالم الفلك ووقفوا جميعا مشدوهين أمام هذا العالم العجيب الذي تعجز عن تقديره تصورات الإنسان ولا تستطيع أن تلم به إلا الرياضيات العليا وجعلهم هذا أقرب إلى الإيمان مما كان الباحث القديم، الذي لم يكن يرى في الإنسان سوى جسما واحدا دون أن تكون عنده فكرة عن العالم العجيب وراء هذا الجسم الواحد.

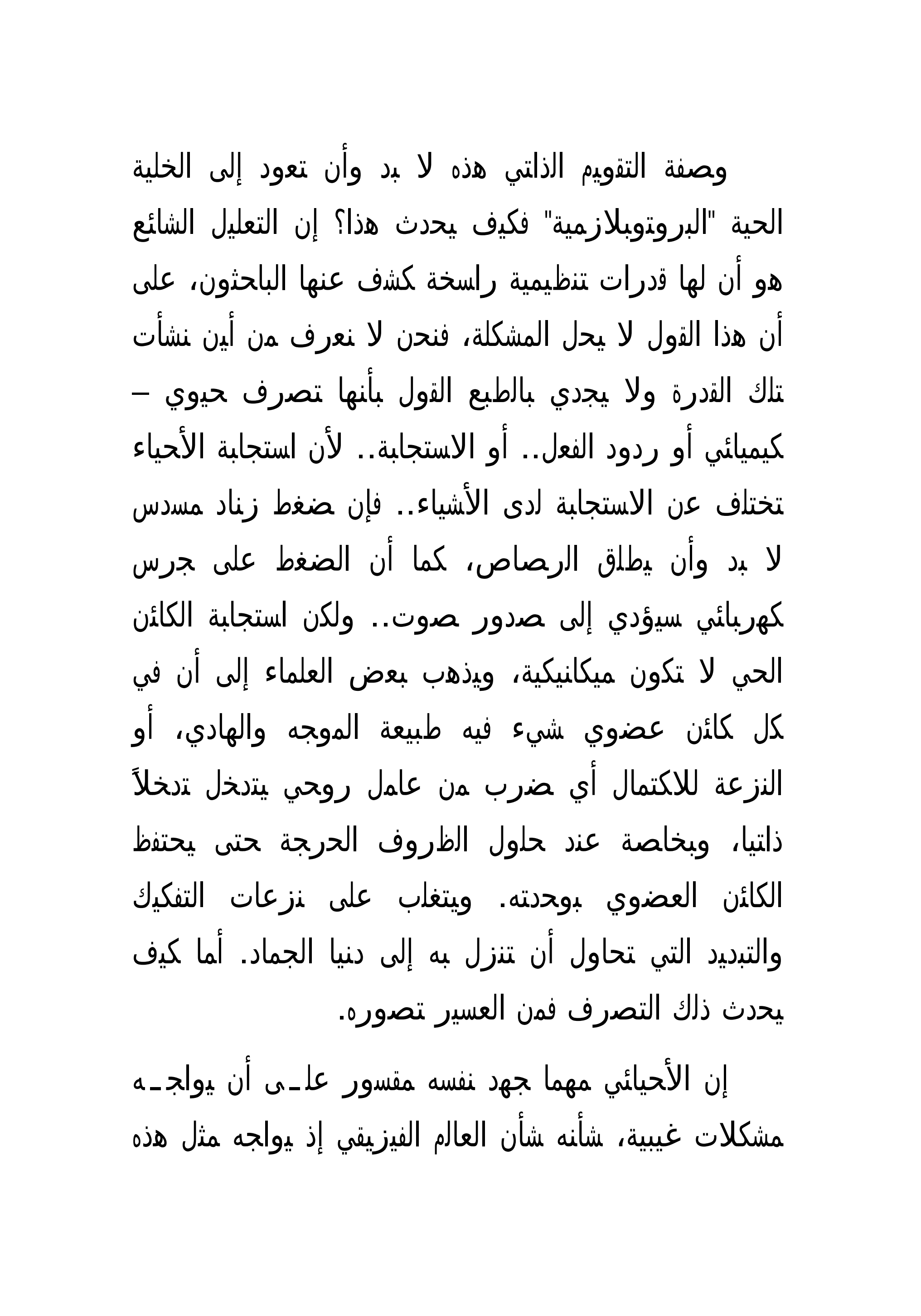
---

[١] الأستاذ راجي عنايت – بحث معجزات العلاج – مجلة المصور – دار الهلال – عدد ٣٠ مارس ١٩٨٤ – ص ٤٠.

وفي الخمسينيات صدر كتاب لعالم أحياء أمريكي تحت عنوان "بيولوجيا الروح" اتخذ نقطة انطلاقه من ظاهرة بيولوجية معروفة هي "التقويم الذاتي" ورأى أن هذه الظاهرة تنم عن "قصدية عضوية" كما يمكن أن تعد نوعا من نشدان الهدف يتدرج نحو الاكتمال منسقًا نواحي النشاط العضوي بمعيار غاية في الضبط[٣٧].

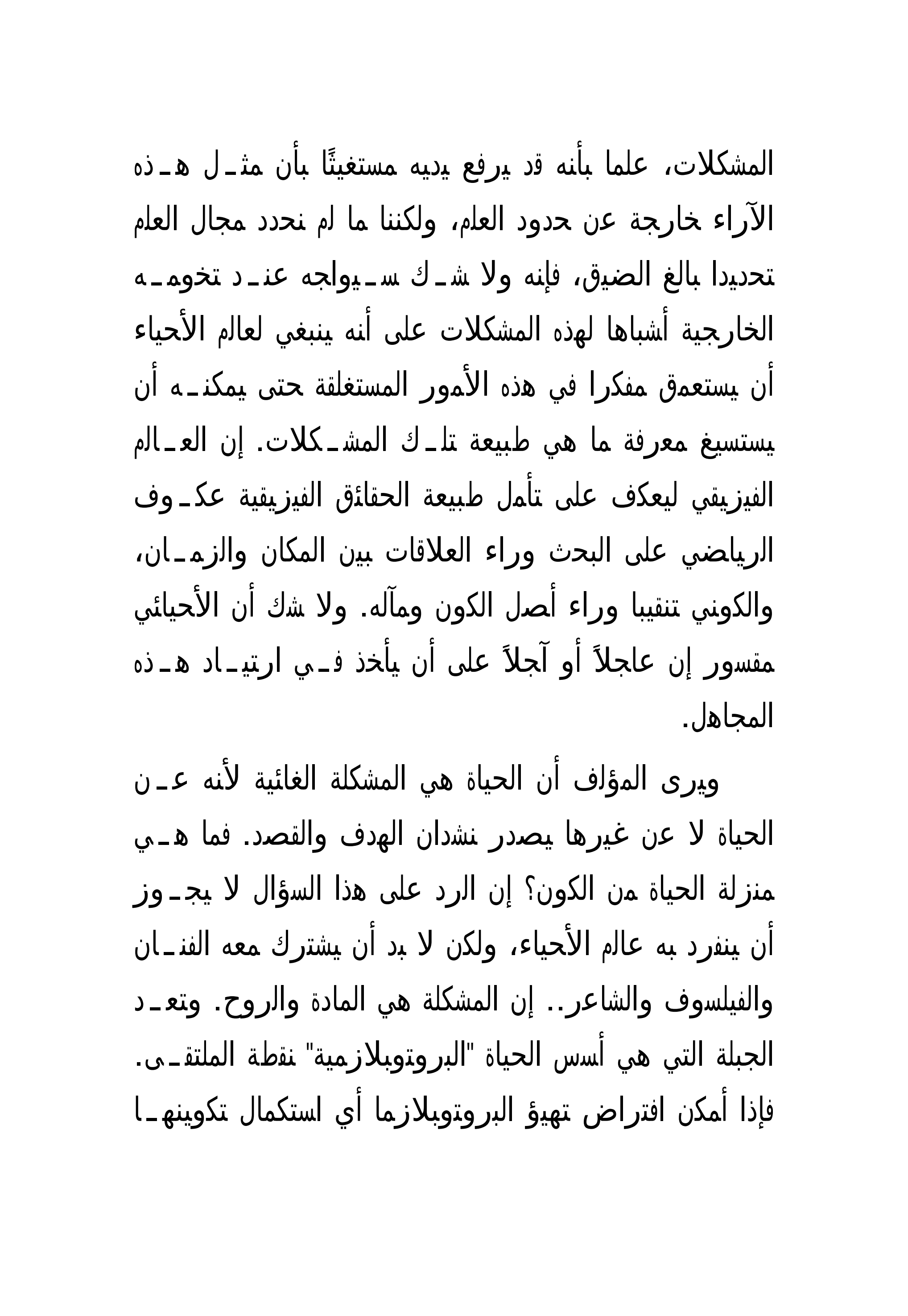
---

[٢] "بيولوجيا الروح The Biology of The spirit" وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ الكبير إسماعيل مظهر باسم "حياة الروح في ضوء العلم" مطبوعات مؤسسة فرانكلين (القاهرة – نيويورك) وصدر في ديسمبر سنة ١٩٦٠ ، وقد كان إسماعيل مظهر رحمه ا أحد رواد الفكر العربي في مستهل القرن. وقد درس الأحياء، وترجم كتاب داروين "أصل الأنواع" سنة ١٩١٨، كما ترجم عددا آخر من الكتب حول هذا الموضوع. وأصدر مجلة العصور سنة ١٩٢٧ ثم تولى رئاسة تحرير المقتطف – ألف عددا من القواميس من (الإنجليزية - للعربية) وقام بتأليف معجم مظهر الأنسكلوبيدي. فالمؤلف من الأساتذة المتمكنين. ولكن حرصه على "الترجمة" وليس "التعريب" في هذا المجال الجديد جعله في بعض الحالات يغرب ويبعد عن المفهوم السائد، وهو مما لا يعد مأخذًا إلا بمنطق الخطأ المشهور أفضل من الصواب المهجور.



وصفة التقويم الذاتي هذه لا بد وأن تعود إلى الخلية الحية "البروتوبلازمية" فكيف يحدث هذا؟ إن التعليل الشائع هو أن لها قدرات تنظيمية راسخة كشف عنها الباحثون، على أن هذا القول لا يحل المشكلة، فنحن لا نعرف من أين نشأت تلك القدرة ولا يجدي بالطبع القول بأنها تصرف حيوي – كيميائي أو ردود الفعل.. أو الاستجابة.. لأن استجابة الأحياء تختلف عن الاستجابة لدى الأشياء.. فإن ضغط زناد مسدس لا بد وأن يطلق الرصاص، كما أن الضغط على جرس كهربائي سيؤدي إلى صدور صوت.. ولكن استجابة الكائن الحي لا تكون ميكانيكية، ويذهب بعض العلماء إلى أن في كل كائن عضوي شيء فيه طبيعة الموجه والهادي، أو النزعة للاكتمال أي ضرب من عامل روحي يتدخل تدخلاً ذاتيا، وبخاصة عند حلول الظروف الحرجة حتى يحتفظ الكائن العضوي بوحدته. ويتغلب على نزعات التفكيك والتبديد التي تحاول أن تنزل به إلى دنيا الجماد. أما كيف يحدث ذلك التصرف فمن العسير تصوره.

إن الأحيائي مهما جهد نفسه مقسور على أن يواجه مشكلات غيبية، شأنه شأن العالم الفيزيقي إذ يواجه مثل هذه



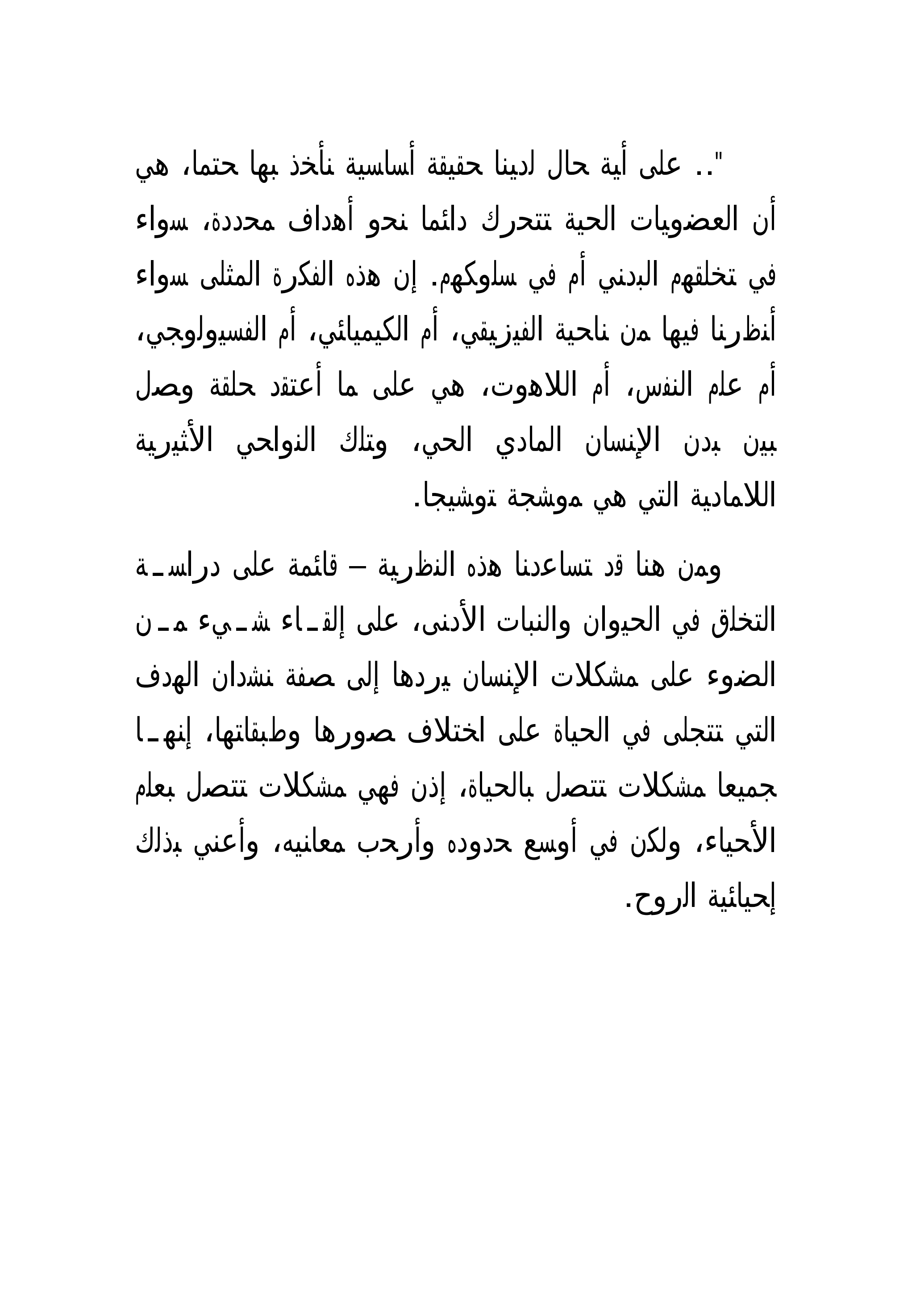
المشكلات، علما بأنه قد يرفع يديه مستغيثًا بأن مثـل هـذه الآراء خارجة عن حدود العلم، ولكننا ما لم نحدد مجال العلم تحديدا بالغ الضيق، فإنه ولا شـك سـيواجه عنـد تخومـه الخارجية أشباها لهذه المشكلات على أنه ينبغي لعالم الأحياء أن يستعمق مفكرا في هذه الأمور المستغلقة حتى يمكنـه أن يستسيغ معرفة ما هي طبيعة تلـك المشـكلات. إن العـالم الفيزيقي ليعكف على تأمل طبيعة الحقائق الفيزيقية عكـوف الرياضي على البحث وراء العلاقات بين المكان والزمـان، والكوني تنقيبا وراء أصل الكون ومآله. ولا شك أن الأحيائي مقسور إن عاجلاً أو آجلاً على أن يأخذ فـي ارتيـاد هـذه المجاهل.

ويرى المؤلف أن الحياة هي المشكلة الغائية لأنه عـن الحياة لا عن غيرها يصدر نشدان الهدف والقصد. فما هـي منزلة الحياة من الكون؟ إن الرد على هذا السؤال لا يجـوز أن ينفرد به عالم الأحياء، ولكن لا بد أن يشترك معه الفنـان والفيلسوف والشاعر.. إن المشكلة هي المادة والروح. وتعـد الجبلة التي هي أسس الحياة "البروتوبلازمية" نقطة الملتقـى. فإذا أمكن افتراض تهيؤ البروتوبلازما أي استكمال تكوينهـا

من العناصر المادية، فإن انبثاق الحياة في هذه الجبلة – وهو أمر لا تزال طريقته مجهولة، يجعل البروتوبلازمـا تأخـذ طريقها المرسوم. أي لا يقتصر على الجوانب المادية، ولكن أيضا على الجوانب الأدبية التي يعد التجاوب مع الجمال أحد شواهدها. وكذلك الحساسية نحو الفضـيلة والحـق والخيـر والحب. وإذا كان التجاوز المادي يمكن أن يحدث "ألما" فـإن التجاوز الأدبي يحدث ما نسميه وخز الضمير.

والحقيقة التي تثير الدهشة، وتجاوز هذا كله أن كل فرد من الملايين الإنسانية لا يشابه فردا آخر تمام المشـابهة (إلا في حالة التوائم الوفاقية) بحيث لا يمكـن أن يعـد الآحـاد كالقطع التي تخرجها الآلات في المصانع، وهذا الاخـتلاف يشمل الشكل المادي، كما يشمل الفهم والتصرفات والحركـة والسكنات، وهذا أمر يضع "الشخصـية" جنبـا إلـى جنـب "الروح" كقضايا لا يستطيع علم الأحياء وحده سـواء كـان أسلوبه حيوية – كيميائيـة **Bio chemical** أو فيزيوكيميائيـة **Physico chemical** حلها.

ويلخص الكتاب نتيجة بحثه:



".. على أية حال لدينا حقيقة أساسية نأخذ بها حتما، هي أن العضويات الحية تتحرك دائما نحو أهداف محددة، سواء في تخلقهم البدني أم في سلوكهم. إن هذه الفكرة المثلى سواء أنظرنا فيها من ناحية الفيزيقي، أم الكيميائي، أم الفسيولوجي، أم علم النفس، أم اللاهوت، هي على ما أعتقد حلقة وصل بين بدن الإنسان المادي الحي، وتلك النواحي الأثيرية اللامادية التي هي موشجة توشيجا.

ومن هنا قد تساعدنا هذه النظرية – قائمة على دراسـة التخلق في الحيوان والنبات الأدنى، على إلقـاء شـيء مـن الضوء على مشكلات الإنسان يردها إلى صفة نشدان الهدف التي تتجلى في الحياة على اختلاف صورها وطبقاتها، إنهـا جميعا مشكلات تتصل بالحياة، إذن فهي مشكلات تتصل بعلم الأحياء، ولكن في أوسع حدوده وأرحب معانيه، وأعني بذلك إحيائية الروح.

وهي في النهاية تقول إن ا هو "القدرة" التـي تخلـق الأجهزة العضوية الحية، وتبعث فيها الأهداف التي تتم بهـا والتي تنتهي عند مأمولات الروح(٣٨)

خلود الروح من منظور طبي:

كانت النظرية المادية التي سيطرت على العالم في الفترة التي أعقبت نيوتن وطوال القرن الثامن عشر، هي أن الفكر من إفراز المخ. وأن الوعي والإرادة كلها انعكاسات لآليات الجسم الإنساني وأعضائه. وكان من مقتضياتها أن لا شيء في الإنسان يمكن أن يبقى بعد الموت، فإذا كان التفكير والإرادة من أنشطة المخ، فليس هناك داع لافتراض بقاء هذين بعد تحلل المخ، ولم يكن لدى العلماء معرفة بكيفية انبثاق العقل من المادة، وأمل علماء الفسيولوجيا أن يأتي المستقبل بالحل. وفي عام ١٨٦٨ كتب هكسلي: ".. وهكذا سيوسع علم وظائف الأعضاء في المستقبل شيئًا فشيئًا من

(١) المرجع السابق ص ٢٠٠.

عالم المادة وقوانينها إلى أن يصبح مساويا في امتداد نطاق المعرفة والشعور والعمل"[٣٩].

ولكن المستقبل جاء بصورة مختلفة تماما، وقدم نظرية جديدة بدأت بالسير تشارلز شرنجتون الذي يعتبر مؤسس فسيولوجيا الأعصاب الحديثة. ونتيجة بحوثه الرائدة في الجهاز العصبي والدماغ ظهر فرق جذري بين الحياة والعقل، فالحياة مسألة كيميائية وفيزياء. أما العقل فهو يستعصي على الكيمياء والفيزياء.

والعقل يعرفنا علل الأشياء التي تعجز عنه الحواس. فاللسان مثلاً يدلنا على أن البحر مالح، ولكنه لا يفسر لنا علة ملوحته.. كما يمكننا العقل من إدراك ماهية الأشياء وهو أمر لا تستطيعه الحواس، ولا ملكة الخيال ذاتها.. وهو عن طريق العلوم يجاوز قيود الخيال، ويدرك بالمعادلات

---

[٢] استشهد بها في "العلم في منظوره الجديد" تأليف روبرت. م أجروس. وجورج ستانسيو – ترجمة كمال خلايلي (عالم المعرفة) والاسم الأصلي للكتاب "القصة الجديدة للعلم" The New Story of Science ، وسيكون مرجعنا حتى نهاية الفقرة.

الرياضية أبعادا تستعصي على الخيال. والعقل لا الحواس هو الذي يصنع العلم لأنه وحده يستطيع أن يستكشف ماهية الأشياء وعللها.

وقد يطلق على قدرة العقل أحيانًا الفهم **Understanding** وهي تسمية مناسبة لأن طبيعة الأشياء تكمن تحـت **stands under** صفاتها الظاهرة. والفهم يستطيع كذلك أن ينفذ إلـى العلة التي يرتكز عليها الأثر الذي تدركه الحواس.

ويماثل العقل في تميز الإنسان بـه عـن الحيـوان – الإرادة. فالإنسان يريد، ويكيف أوضاعه طبقًا لإرادته، وهو ما لا يستطيعه الحيـوان والنبـات. والإرادة تختلـف عـن العاطفة في أن الأولى عادة ترتكز على العقل.

وقد أدت العمليات الجراحية التي أجراها "ويلدر بنفيلـد **Welder Penfield** على أدمغة ما يربو على ألف مريض فـي حالة الوعي في الثلاثينات من هذا القرن، والتي نشر الآثـار المترتبة عليها عام ١٩٧٥ في كتابـه "لغـز العقـل". **The Mystery of The Mind.**

ففي بعض عمليات الصرع التي يبـنج فيهـا الطبيـب المريض تبنيجا تاما ليصل إلـى المـخ يسـتخدم "القطـب

الكهربائي" "الإلكترود" الذي يحدد موقع الخلايا التي تسبب النوبات الصرعية، ويزيلها.

وفي عام ١٩٣٣ اكتشف بنفيلد بمحض المصادفة أن تنبيه مناطق معينة في الدماغ بالكهرباء تنبيها خفيفًا يحدث استرجاعا فجائيا للذاكرة عند المريض الواعي. لقد ساورت بنفيلد الشكوك أول الأمر، ثم أخذته الدهشة. فعندما لامس الإلكترود قشرة مخ شاب تذكر هذا الشاب أنه كان جالسا يشاهد لعبة البيسبول في مدينة صغيرة، ويراقب ولدا صغيرا يزحف تحت السياج ليلحق بجمهور المتفرجين. وهناك حالة مريضة أخرى تسمع آلات موسيقية تعزف لحنًا من الألحان. وروى بنفيلد هذا الخبر فيقول "أعدت تنبيه الموضع نفسه ثلاثين مرة محاولاً تضليلها، وأمليت كل استجابة على كاتبة الاختزال. وكلما أعدت تنبيه الموضع كانت المريضة تسمع اللحن من جديد. وكان اللحن يبدأ في المكان نفسه، ويستمر من اللازمة إلى مقطع الأغنية".

وأدى هذا الاكتشاف ببنفيلد إلى رسم خريطة كاملة تبين مناطق الدماغ المسئولة عن النطق والحركة وجميع الحواس الداخلية والخارجية، ولكنه لم يستطع تحديد موقع العقل أو

الإرادة. فالدماغ هو مقر الإحساس والذاكرة والعواطف والقدرة على الحركة. ولكنه فيما يبدو ليس مقر العقل والإرادة.

ويعلن بنفيلد أنه "ما من عمل من الأعمال التي نعزوها إلى العقل قد ابتعثه التنبيه بالإلكترود أو الإفراز الصـرعي "ويضيف قائلاً: "ليس في قشرة الدماغ أي مكـان يسـتطيع التنبيــه الكهربــائي فيــه أن يجعــل المــريض يعتقــد أو يقرر شيئًا. والإلكتـرود يسـتطيع أن يثيـر الأحاسـيس والذكريات غير أنه لا يقدر أن يجعـل المـريض يصـطنع القياس المنطقي أو يحل مسائل في الجبر. بل إنه لا يستطيع أن يحدث في الذهن أبسـط عناصـر التفكيـر المنطقـي. والإلكترود يستطيع أن يجعل جسم المريض يتحرك. ولكنه لا يستطيع أن يجعله يريد تحريكه. إنه لا يسـتطيع أن يكـره الإرادة. فواضح أن العقل البشري والإرادة البشرية ليس لهما أعضاء جسدية.

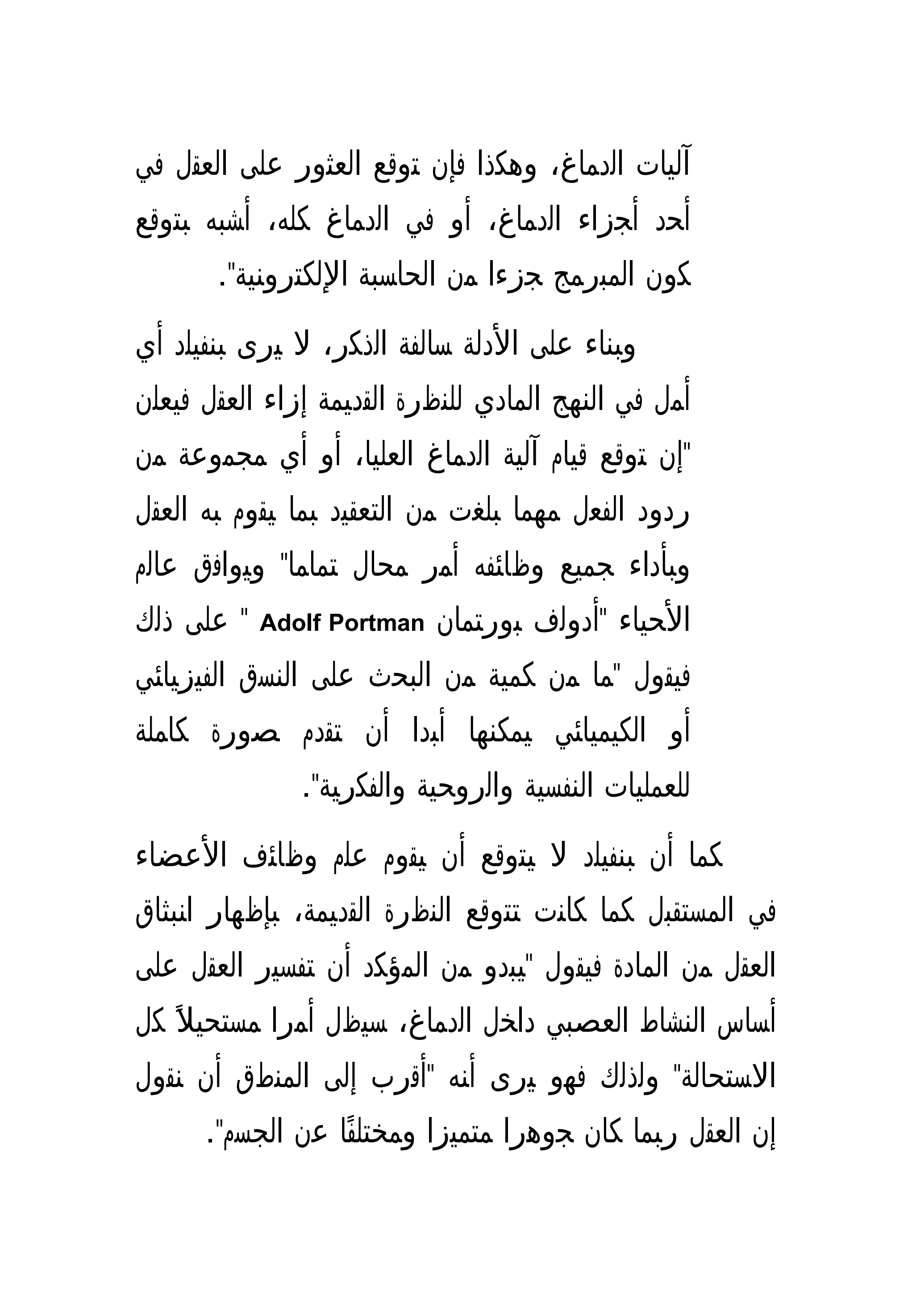
فإذا كانت الإرادة البشرية غير مادية، فليس مما ينـافي العقل أن تتصرف بغير طرق المادة، أي بحريـة واختيـار. ومن ثم فالنظرة الجديدة لا ترى فـي الاعتـراف باسـتقلال

الإرادة فينا أي مجانبة للأسلوب العلمي. ومحصلة ذلك أنـه ليس هناك أسباب علمية وجيهة لإنكار حرية الإرادة التي لا بد من افتراض وجودها إذا أردنـا أن نتصـرف كبـاحثين علميين ، بل إن إنكار حرية الإرادة يجعل من العلم كله أمرا منافيا للعقل.

زد على ذلك أن النظرة الجديدة لا ترى في قدرة العقل على توجيه أنشطة الدماغ أمرا مسـتحيلاً، ويصـف عـالم الأعصاب روجر سبري Roger Spery الثورة الفكرية التـي حدثت في علم النفس خلال السبعينات من هذا القرن، والتـي أحدثت انقلابا مثيرا في معالجة الوعي فيقـول "لقـد قلبـت المبادئ السلوكية التي سادت طوال نصف قرن ونيف، وأخذ علم النفس فجأة يعالج أحداثًا ذاتية كالصور الذهنية، والأفكار وما إليها بوصفها عوامل ذات دور سببي حقيقي في وظيفـة الدماغ وفي السلوك، وأصبحت مضامين الاستبطان وعـالم التجارب الداخلية كلها مقبولة على نحـو فجـائي كعوامـل تستطيع أن تؤثر في العمليات الفيزيائية والكيميائية التي تـتم في الدماغ؛ ولم تعد تعامل بوصفها جوانب منفعلـة وغيـر (سببية) بل غير موجودة.

إن المعرفة والقيادة تتطلبان قدرا من البعد، فلا يمكن أن يكون العقل ظاهرة ثانوية مصاحبة لآلية الأعصاب إذا أريد له أن يعاين ويوجه الكل ويقول بنفيلد: "إن العقل، لا الدماغ، هو الذي يراقب ويوجه في آن واحد، فالعقل هو المسئول عن الوحدة التي نحس بها في جميع أفعالنا وأفكارنا وأحاسيسنا وعواطفنا. ويضيف أكلاس "إن وحدة التجربة الواعية يتيحها العقل الواعي نفسه لا آلية الأعصاب.

ولو كان الدماغ حاسبة إلكترونية بالغة التعقيد، فلا بد له إذًا، شأنه شأن الحاسبة، من أن يوجه من قبل العقل. ويقول بنفيلد: "إن الحاسبة الإلكترونية (والدماغ هو كذلك) لا بد من أن تبرمجها وتديرها قوة قادرة على الفهم المستقل" ويحدد بنفيلد دور العقل هكذا "إن ما تعلمنا أن نسميه العقل هو الذي يركز الانتباه فيما يبدو، والعقل يعي ما يدور حوله، وهو الذي يستنبط ويتخذ قرارات جديدة. وهو الذي يفهم ويتصرف كما لو كانت له طاقة خاصة به. وهو يستطيع أن يتخذ القرارات وينفذها مستعينًا بمختلف



آليات الدماغ، وهكذا فإن توقع العثور على العقل في أحد أجزاء الدماغ، أو في الدماغ كله، أشبه بتوقع كون المبرمج جزءا من الحاسبة الإلكترونية".

وبناء على الأدلة سالفة الذكر، لا يرى بنفيلد أي أمل في النهج المادي للنظرة القديمة إزاء العقل فيعلن "إن توقع قيام آلية الدماغ العليا، أو أي مجموعة من ردود الفعل مهما بلغت من التعقيد بما يقوم به العقل وبأداء جميع وظائفه أمر محال تماما" ويوافق عالم الأحياء "أدولف بورتمان **Adolf Portman** " على ذلك فيقول "ما من كمية من البحث على النسق الفيزيائي أو الكيميائي يمكنها أبدا أن تقدم صورة كاملة للعمليات النفسية والروحية والفكرية".

كما أن بنفيلد لا يتوقع أن يقوم علم وظائف الأعضاء في المستقبل كما كانت تتوقع النظرة القديمة، بإظهار انبثاق العقل من المادة فيقول "يبدو من المؤكد أن تفسير العقل على أساس النشاط العصبي داخل الدماغ، سيظل أمرا مستحيلاً كل الاستحالة" ولذلك فهو يرى أنه "أقرب إلى المنطق أن نقول إن العقل ربما كان جوهرا متميزا ومختلفًا عن الجسم".

ومن دواعي السخرية أن بنفيلد بدأ أبحاثه بهدف إثبات العكس تماما، فيقول "طوال حياتي العملية سعيت جاهدا كغيري من العلماء إلى إثبات أن الدماغ يفسر العقل" فهو قد بدأ مسلحا بجميع افتراضات النظرة القديمة، غير أن الأدلة حملته آخر الأمر على الإقرار بأن العقل البشري والإرادة البشرية حقيقتان غير ماديتين. ويعلن بنفيلد "يا له من أمر مثير إذًا، أن نكشف أن العالم يستطيع بدوره أن يؤمن عن حق بوجود الروح" وإذا كان العقل والإرادة غير ماديين، فلا شك أن هاتين الملكتين على حد تعبير أكلاس "لا تخضعان بالموت للتحلل الذي يطرأ على الجسم والدماغ كليهما"[٤٠].

مع الأرواح...

كانت مخاطبة أرواح الأعزاء الذين ماتوا، أو الاتصال بهم بطريقة ما، من الآمال التي ساورت النفوس، فمع أن

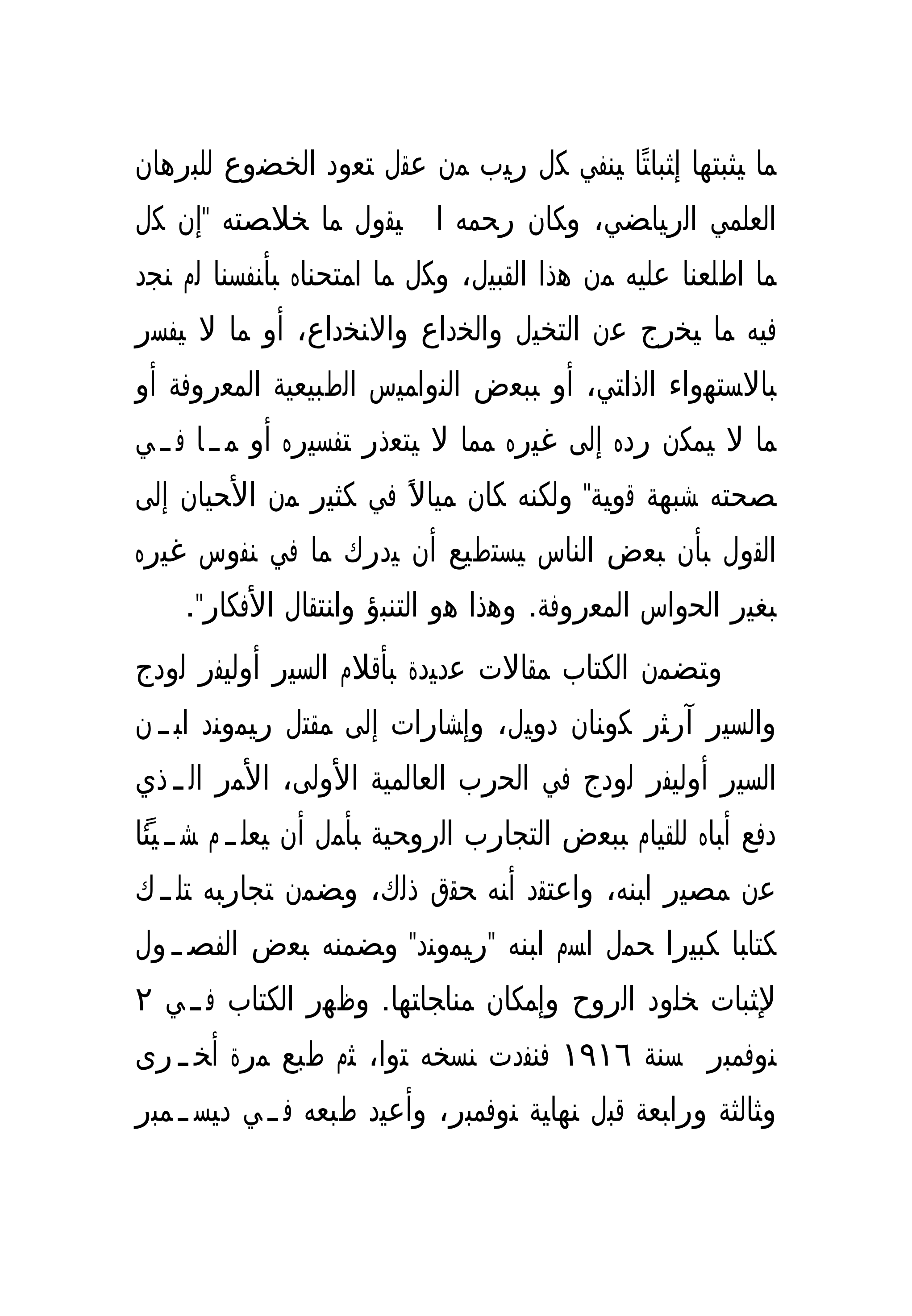
---

[١] العلم في منظوره الجديد – ص ٤٢ – ٤٣ .

سيادة المادية، وأن الموت ينهي كل شيء، كانت غالبة على المجتمع الأوربي طوال القرن التاسع عشر، إلا أن طلعة الإنسان لا تعرف حدا واستشرافها لا توقفه الأوضاع المقررة. دع عنك أن عاطفة الآباء والأمهات والأحبة للاتصال بأرواح المتوفين من الأبناء أو الحبيبات لا بد أن تكون ولو عند القلة قوية. متوهجة.. ومن هنا نفهم كيف أن فكرة الاتصال بالأرواح نشطت في بريطانيا وأمريكا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر والأولى من القرن العشرين، وفي عام ١٨٨٢ تكونت الجمعية العلمية في بريطانيا ورأسها الأستاذ سيجويك **Henry sidgwick** ، كما كان أحد وكلائها آرثر بلفور **Arther Belfour** ونائبها الثاني الأستاذ لنجلي **T.P. Longley** سكرتير معهد سميث سونيون **Smith Sonion** واشترك فيها أوليفر لودج **Lodge** العالم الطبيعي البريطاني، والأستاذ ريشة **Richet** الفرنسي، وهو عالم في وظائف الأعضاء، ومايرز وإ.جبرني **F.W.H. Myers: E. Gurney** وقد أزجى وليم جيمس في كتابه "إرادة الاعتقاد" الثناء الجم لقادة الجمعية لما اتصفوا به من إخلاص، وعبر عن أسفه لوفاة واحد من أبرز أعضائها.

وتراوحت أعمال الجمعية ما بين التنويم المغناطيسي، وإحضار الأرواح، وقد تعرضت الجمعية لحيل وأفانين كثيرة من الأدعياء، وكشفت عن بعضها في التو واللحظة، ولكنها تأثرت بالبعض الآخر أو كشفتها في فترات متخلفة، كما هو الشأن في حالة الوسيطتين مدام بلافاتسكي، وأسابيا بالادينو ولكن كثرة عمل الجمعية وإخلاص ومثابرة أعضائها وضعتها على حافة عالم ما ينبئ بأن في الإنسان شيئًا وراء الجسم والمادة، ومع أن الأدلة التي حصلت عليها قد لا تكون حاسمة، فإنها في مجموعها لا يمكن أن تخلو من معنى.

وقد عنيت مجلة "المقتطف" في القاهرة بهذا النشاط الذي كان شائعا وقتئذ، وتابعت عمل هذه الجمعية ونشرت نتـائج أبحاثها في سلسلة من المقالات جمعتها بعد ذلك وطبعتها في كتاب باسم "رسائل الأرواح" – (المقتطـف ١٩٢٨). وذكـر فؤاد صروف في مقدمته "وللمقتطف رأي مشهور في مسألة مناجاة الأرواح وقراءة الأفكار، وما إليها من مظاهر الروح يتلخص في أنه لا ينفي مناجـاة الأرواح وقـراءة الأفكـار، ولكنه يرتاب في صحتهما، لأن أحد منشئيه المرحوم الدكتور يعقوب صروف لم يقف في أثناء مزاولته لهذه المباحث على

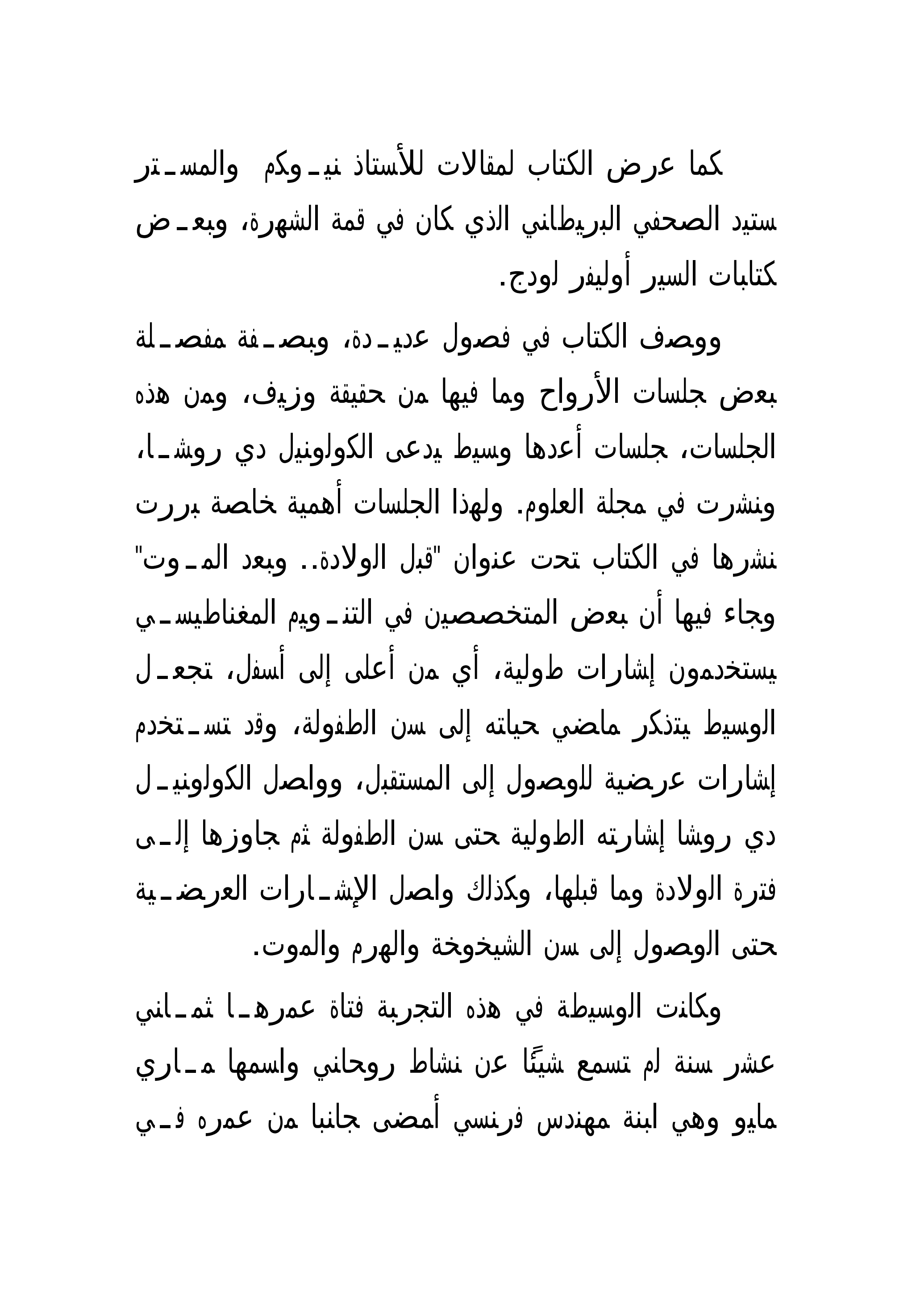


ما يثبتها إثباتًا ينفي كل ريب من عقل تعود الخضوع للبرهان العلمي الرياضي، وكان رحمه ا يقول ما خلاصته "إن كل ما اطلعنا عليه من هذا القبيل، وكل ما امتحناه بأنفسنا لم نجد فيه ما يخرج عن التخيل والخداع والانخداع، أو ما لا يفسر بالاستهواء الذاتي، أو ببعض النواميس الطبيعية المعروفة أو ما لا يمكن رده إلى غيره مما لا يتعذر تفسيره أو مـا فـي صحته شبهة قوية" ولكنه كان ميالاً في كثير من الأحيان إلى القول بأن بعض الناس يستطيع أن يدرك ما في نفوس غيره بغير الحواس المعروفة. وهذا هو التنبؤ وانتقال الأفكار".

وتضمن الكتاب مقالات عديدة بأقلام السير أوليفر لودج والسير آرثر كونان دويل، وإشارات إلى مقتل ريموند ابـن السير أوليفر لودج في الحرب العالمية الأولى، الأمر الـذي دفع أباه للقيام ببعض التجارب الروحية بأمل أن يعلـم شـيئًا عن مصير ابنه، واعتقد أنه حقق ذلك، وضمن تجاربه تلـك كتابا كبيرا حمل اسم ابنه "ريموند" وضمنه بعض الفصـول لإثبات خلود الروح وإمكان مناجاتها. وظهر الكتاب فـي ٢ نوفمبر سنة ١٩١٦ فنفدت نسخه توا، ثم طبع مرة أخـرى وثالثة ورابعة قبل نهاية نوفمبر، وأعيد طبعه فـي ديسـمبر

طبعتين وأعيد طبعه بعد ذلك مرارا. وتقول مجلة المقتطـف في كتابها المشار إليه آنفًا: ".. وأمامنا الآن الطبعة السادسـة الصادرة في ديسمبر" ونضيف إن الطبعة التي فـي مكتبتنـا الخاصة هي الطبعة الحادية عشر وهي في مسـتهل ١٩١٩، وكانت الطبعة السابقة عليها في ديسمبر سنة ١٩١٨.

وتضمن كتاب المقتطف بحوثًا ومقالات عديـدة، منهـا مناظرة ما بين سير آرثر كوين دويل، والمسـتر جوزيـف مكايب، تحت رئاسة المحـامي المشـهور "إدوار مارشـال هول". تكلم كل واحد منهما أربعين دقيقـة مؤيـدا دعـاواه وناقضا دعاوى خصمه، ثم سمح لكل منهما بالتعقيب علـى كلام مناظره. ومن الغريب أن السيد ميكاب Mecab وهو أحد رجالات الكنيسة السابقين كان معارضا لفكرة وجود الأرواح، وإمكان الاتصال بها، ونسب ما أورده أعظم اثنين أيدا وجود الأرواح وهما لودج – ولومبروزو إلى مقتل ابن الأول وإلى تأثر الثاني بعته الشيخوخة. ورد سير آرثر كوين دويل بذكر أسماء الباقين من المؤيدين لوجود الأرواح وأشار إلى بعض التجارب.



كما عرض الكتاب لمقالات للأستاذ نيـوكم والمسـتر ستيد الصحفي البريطاني الذي كان في قمة الشهرة، وبعـض كتابات السير أوليفر لودج.

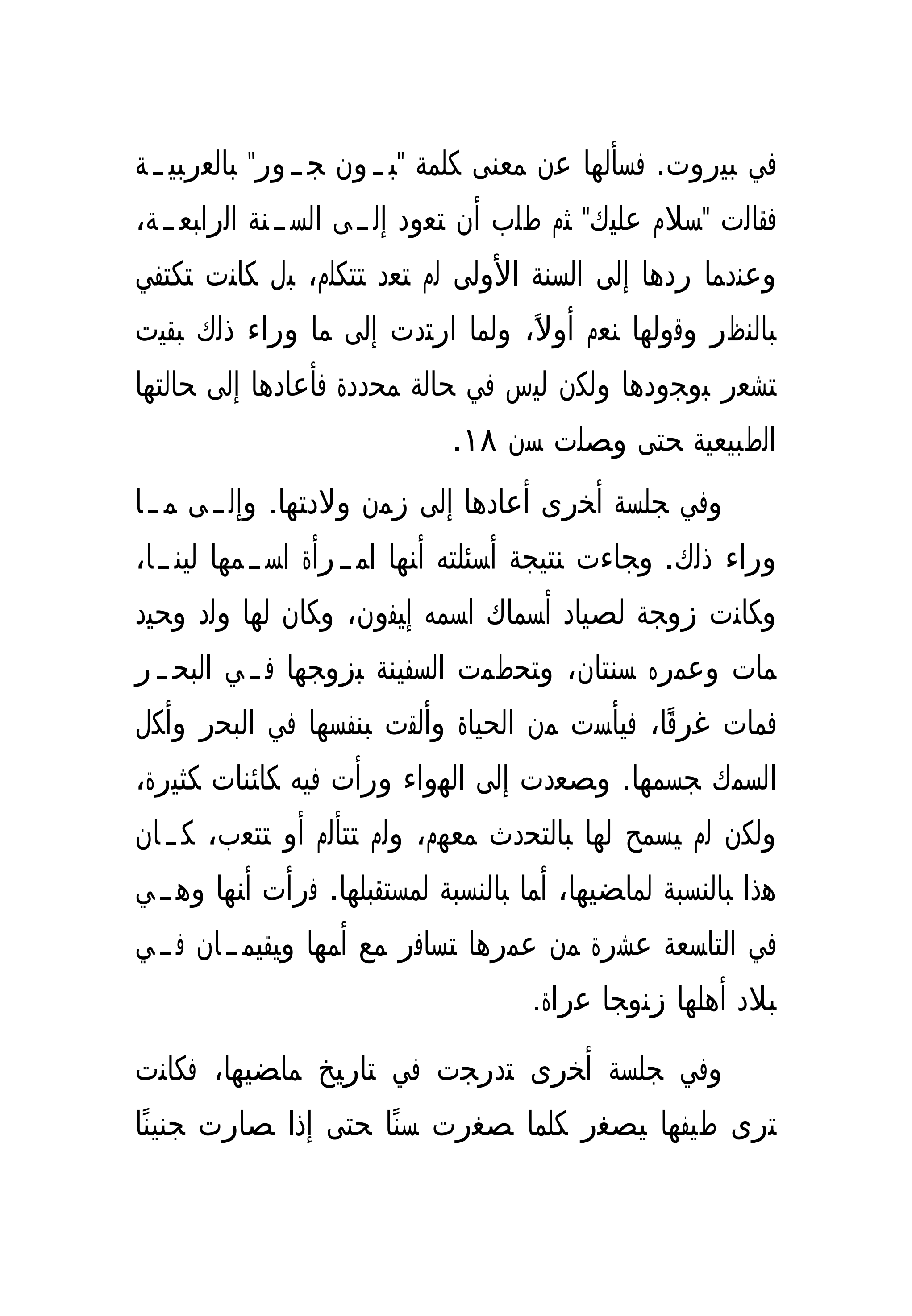
ووصف الكتاب في فصول عديـدة، وبصـفة مفصـلة بعض جلسات الأرواح وما فيها من حقيقة وزيف، ومن هذه الجلسات، جلسات أعدها وسيط يدعى الكولونيل دي روشـا، ونشرت في مجلة العلوم. ولهذا الجلسات أهمية خاصة بررت نشرها في الكتاب تحت عنوان "قبل الولادة.. وبعد المـوت" وجاء فيها أن بعض المتخصصين في التنـويم المغناطيسـي يستخدمون إشارات طولية، أي من أعلى إلى أسفل، تجعـل الوسيط يتذكر ماضي حياته إلى سن الطفولة، وقد تسـتخدم إشارات عرضية للوصول إلى المستقبل، وواصل الكولونيـل دي روشا إشارته الطولية حتى سن الطفولة ثم جاوزها إلـى فترة الولادة وما قبلها، وكذلك واصل الإشـارات العرضـية حتى الوصول إلى سن الشيخوخة والهرم والموت.

وكانت الوسيطة في هذه التجربة فتاة عمرهـا ثمـاني عشر سنة لم تسمع شيئًا عن نشاط روحاني واسمها مـاري مايو وهي ابنة مهندس فرنسي أمضى جانبا من عمره فـي

بلاد الشرق في إنشاء السكك الحديدية، ومات فيها، فتزوجت امرأته مهندسا آخر من مهندسي السكك الحديديـة، وبقيـت الابنة في مدينة بيروت إلى أن صار عمرها تسع سـنوات، وكانت تتعلم في مدرسة للراهبات، وتعلمت هنـاك مبـادئ القراءة العربية ثم سافرت إلى فرنسا وكفلتها عمتها، وكانـت تسكن في البروفانس.

وبدأت الجلسات في ديسمبر سـنة ١٩٠٤ واسـتمرت طوال شهرين، وفي إحدى هذه الجلسات أخذ ينومهـا حتـى تكون الطيف المسمى بالجسم الأثيري، وحاول إخراجه مـن الغرفة فكان يصل إلى الجدران ويقف. وقال المنوم للوسيطة أن تمد إليه يد الطيف اليسرى فقرصها، أي قرص الهـواء، فشعرت الفتاة بالقرصة، وعندما أيقظها وجد في يمينها علامة القرصة التي قرص بها الطيف.

وفي جلسة أخرى تعمق في تنويمها حتى صارت تـرى طيفها واقفًا بجانبها فقال لها أن تجعل شكله مثل شكلها وهي بنت ١٨ سنة، ثم وهي بنت ١٤ سنة، ثم وهـي بنـت ١٢ سنة، ثم وهي بنت عشر سنوات وسألها أين كانت فقالت في مرسيليا. وهذا صحيح، ثم وهي ابنة ثماني سنوات فقالت إنها



في بيروت. فسألها عن معنى كلمة "بون جور" بالعربية فقالت "سلام عليك" ثم طلب أن تعود إلى السنة الرابعة، وعندما ردها إلى السنة الأولى لم تعد تتكلم، بل كانت تكتفي بالنظر وقولها نعم أولاً، ولما ارتدت إلى ما وراء ذلك بقيت تشعر بوجودها ولكن ليس في حالة محددة فأعادها إلى حالتها الطبيعية حتى وصلت سن ١٨.

وفي جلسة أخرى أعادها إلى زمن ولادتها. وإلى ما وراء ذلك. وجاءت نتيجة أسئلته أنها امرأة اسمها لينا، وكانت زوجة لصياد أسماك اسمه إيفون، وكان لها ولد وحيد مات وعمره سنتان، وتحطمت السفينة بزوجها في البحر فمات غرقًا، فيأست من الحياة وألقت بنفسها في البحر وأكل السمك جسمها. وصعدت إلى الهواء ورأت فيه كائنات كثيرة، ولكن لم يسمح لها بالتحدث معهم، ولم تتألم أو تتعب، كان هذا بالنسبة لماضيها، أما بالنسبة لمستقبلها. فرأت أنها وهي في التاسعة عشرة من عمرها تسافر مع أمها ويقيمان في بلاد أهلها زنوجا عراة.

وفي جلسة أخرى تدرجت في تاريخ ماضيها، فكانت ترى طيفها يصغر كلما صغرت سنًا حتى إذا صارت جنينًا

في بطن أمها زال الطيف تماما وامتزج في الجو، ولما صارت لينا وماتت دخلت العتمة وحاولت أن تلتقي بزوجها وولدها فلم تلتق بهما. وكانت في زمن لويس الثامن عشر، وقبل ذلك كانت رجلاً اسمه شارل لوفيل، وكان رجلاً شريرا قتل بعض الناس، ولما صار عمره خمسون سنة مرض ومات وسار طيفه في الجنازة وسمع الناس يقولون "لقد تمادى في الشر" وبقي في حالة غير راضية حتى دخل جسم لينا.

وكانت ماري تأخذ أشكال وأوضاع كل حالة يردها إليها التنويم ففي سن السنتين قالت إنها لا تعرف أن تتكلم، وعندما أمرها أن تعود إلى بطن أمها وسألها "أين أنت الآن". فقالـت "لا أدري ولكني أشعر بشيء متحرك ثم قالت إن طيفها قـد تجسم عندما قطع الحبل السري، وإنها بدأت تتنفس، وعنـدما أمرها أن تكون على الحالة التي غرقت عليهـا دارت علـى جانبها الأيمن ووجهها بين يديها وظهر على وجهها دلائـل الموت والخوف وصار حلقها يتحرك كمن يبلغ الماء غصـبا عنه ونطقت بألفاظ غير مفهومة وبدا على وجهها الألم الشديد حتى أيقظها.

وكان تعقيب المقتطف فيما يبدو لنا ركيكًا إذ أعاد ذلـك إلى أن العقل الباطن للفتاة حفظ كثيرا مما سمعته وقرأته في حياتها فتذكرت بعضه وهي في حالة الاستهواء، وإن أسـئلة الكولونيل دي روشا ولدت في ذهنها صورا جديدة حـددتها من محفوظاتها. فلما قال لها من كنت قبلما ولـدت أخيـرا، قالت كنت امرأة وقصت قصة امرأة تعرفهـا أو سـمعت أو قرأت عنها وأبدت من الانفعال والإشارات ما ينطبق علـى الأحوال التي صورتها فيها، فكانت تتـألم عنـد المخـاض وتتخبط عند الغرق، ولما سألها من كنت قبلما صرت هـذه المرأة، قالت كنت رجلاً، وكان يمكن أن تقول إنهـا امـرأة أخرى، ولكنها ذكرت أول خاطر أخطره السؤال في بالهـا. والظاهر أن هذه الخواطر التي أخطرتها مسائل الكولونيل في بالها في الجلسات الأولى صارت تخطـر فـي بالهـا فـي الجلسات التالية على ترتيبها، بل صار خطورها في الجلسات التالية أسهل حدوثًا لأنها كانت قد خطرت، والمـؤثر واحـد وهو السؤال، فلا بد أن تخطر بعد أن انضم إلى السؤال مؤثر آخر وهو الصورة السابقة التي ارتسمت في الذهن على أثر السؤال الأول، فصارت كمن يتذكر في الجلسات الأخيرة مـا

كان يقوله في الجلسات الأولى. وهذا التعليل لا يزيـل كـل غرابة من حادثة هذه الفتاة وأمثالها، ولكنه يزيل أغرب مـا فيها على ما نرى".

أديسن والأرواح:

لا يقل أهمية، بل بالتأكيد يزيد عما جاء في الفقرات السابقة التي أوردها كتاب المقتطف "رسائل الأرواح " ما أورده الكتاب تحت عنوان"ما وراء القبر" وأجمل فيه رأي المخترع الأمريكي المشهور أديسن عن الأرواح، ومحاولته إختراع آلة يمكن بها الاتصال بالأرواح. ولعلها المحاولة الوحيدة، التي لم تتم وعجز عنها هذا المكتشف الذي سجل مئات الاكتشافات.

ونشر المقتطف نـص حـديث الصـحفي الأمريكـي "لسكربورا" مع أديسن نقلاً عن مجلة "السنتفك أمريكان" وجاء فيه:

"إن أديسن الذي استنبط المصباح الكهربائي والفونغراف والصور المتحركة وبطارية النيكل والحديد والدينامو الكامل وغيرها من المكتشفات والمخترعات التي تدخل أعمالنا

اليومية سيوجه سعيه وجهده إلى أمر يفوق كل اكتشاف واختراع بما لا يقاس. فإن في العالم نحو ١٥٠٠ مليون نسمة سيدركهم الموت عاجلاً أو آجلاً ولكنهم يجهلون كل الجهل مصيرهم بعده. ومثل ذلك يقال عن مجيئنا إلى هذه الدنيا. وعليه فالحياة والموت لا يزالان سرا من الأسرار ولغزا من الألغاز التي لم يفتح بها على مخلوق.

منذ بضع أسابيع شاع أن هذا المخترع العظيم يعد طريقة أو آلة لمخاطبة الذين انتقلوا من هذا الوجود إلى وجود آخر أو عالم آخر. فنشرت صحف أميركا وأوربا أن توماس أديسن اندمج في صفوف الروحانيين الذين بينهم الآن كثيرون من كبار العلماء والمؤلفين والمخترعين والطبيعيين والمهندسين ورجال الدين وغيرهم. ووصف الكتاب الفرنسيون الواسعو الخيال آلة أديسن بأنها محطة تلفونية أو مكتب تلغراف أو ما أشبه يقصدها الناس ليخاطبوا منها أرواح أحبائهم وأصدقائهم في العالم الآخر بطريقة عاجلة أكيدة.

وليس في الناس أحد أشد أسفًا من المستر أديسن على إذاعة أخبار مثل هذه. فقد قال لي في حديثي معه "إني لا

أستطيع تصور شيء يسمونه الروح. تصور شيئًا لا ثقل لـه ولا صورة مادية ولا حجما. وبعبارة أخرى تصـور غيـر شيء. أنا لا أستطيع أن أعتقد أن الأرواح يمكن أن ترى في أحوال معينة وتحرك الموائد أو تقرع عليها أو تعمل أعمـالاً سخيفة مثل هذه وكل ما قيل من هذا القبيل حديث خرافة".

وأقول هنا إنه قابلني لإزالة ما علـق بالأذهـان مـن الإشاعات التي شاعت عن غرضه من البحث والتنقيب فـي هذا الموضوع. ولا تزال الآلة التي شاع أنه يصنعها في دور التجربة والامتحان. وقد طلب مني أن أعلن ما يأتي. قال:

فكرت منذ مدة فـي اختـراع آلـة أو أداة يمكـن أن يستخدمها أو يؤثر فيها الذين غادروا هذا الوجود إلى وجـود آخر أو عالم آخر. والآن اسمع وع ما أقول لك. أنا لا أدعي أن شخصياتنا تنتقل إلى وجود آخر أو منطقـة أخـرى. ولا ادعي علم شيء في هذا الموضوع لأني لا أعلم شـيئًا فيـه ولا أحد من الناس يعلم. ولكني أدعي أنه يمكن صـنع آلـة بالغة من الدقة مبلغًا بحيث إنه إذا كان أناس في عالم آخـر يريدون مخاطبتنا في هذا العالم فإن هذه الآلة تكـون أوفـى

بهذا الغرض من تحريك الموائد أو النقر عليها أو غير ذلـك من الوسائل السخيفة المعروفة.

والحق يقال إن سخافة هذه الوسائل هي التـي تحملنـي على الشك في صحة مناجاة الموتى التي يـدعونها. فلسـت أدري لم يضيع الأشخاص الذين في العالم الآخر وقتهم فـي تحريك مثلث من الخشب على مائدة عليها حروف الهجـاء. وما غرضهم من تحريك الموائد. هذا كله يظهـر لـي مـن الأعمال الصبيانية حتى لا أستطيع أن أبحث فيه بعين الجـد والاهتمام. وعندي أنه إذا شئنا أن نتقدم تقـدما حقيقيـا فـي البحث العقلي وجب أن نقدم عليه بالآلات العلمية وبـالطرق العلمية كما نفعل في الطب والكهربائية والكيمياء وغيرها.

أما ما أريد أن أعمله فهو أن أجهز الباحثين في المباحث العقلية النفسية بآلة تلبس عملهم لباسا علميا. وهذه الآلة ستكون مثل مصراع أو تشبه مفتاحا صغيرا يستطيع به رجل واحد ضعيف القوة أن يفتح مصراعا تدار به آلة قوتها ٥٠ ألف حصان. وستكون آلتي على هذا المثال حتى أن أصغر قوة تكبر بها كثيرا فتساعدنا على بحثنا. ولا أقول أكثر من ذلك عن ماهيتها. وقد مضت علي مدة وأنا أشتغل بتفاصيلها

وكان يعاونني في عملي هذا صديق فتوفي منذ حين. ولما كان يعلم ما أنا ساع إليه فالواجب أن يكون أول من يقدم على استعمال هذه الآلة إن استطاع ذلك.

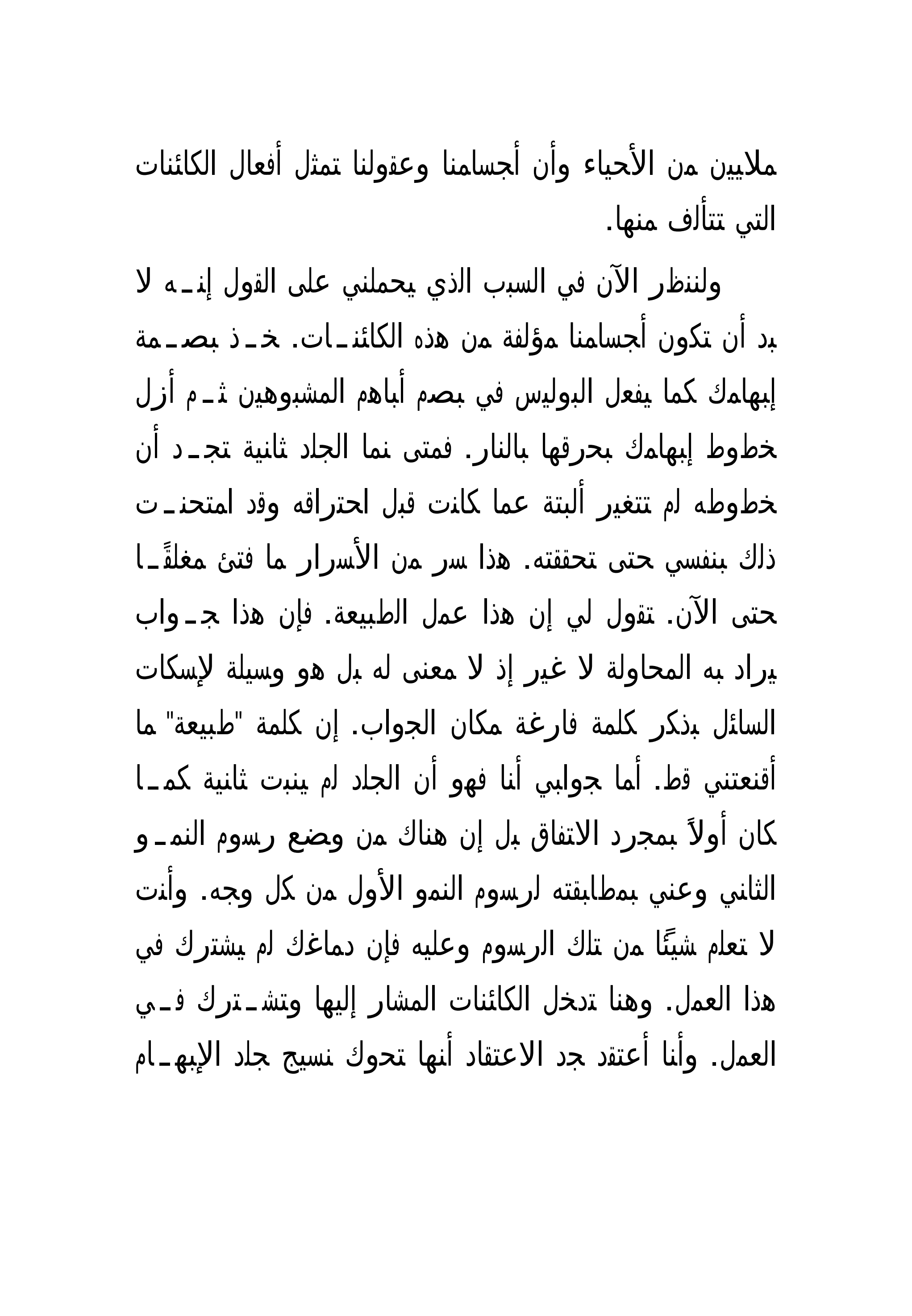
واعلم أني لا أدعي أني أعلم شيئًا عن بقاء الشخصيات بعد الموت ولا أعد بمخاطبة الذين انتقلوا من هـذا الوجـود وإنما أقول إني ساع في تجهيز الباحثين النفسيين بآلـة قـد تساعدهم في عملهم كما يساعد الميكروسكوب رجال الطـب في مباحثهم. وإذا عجزت هذه الآلة عن أن تكشف لنا شـيئًا خارق العادة فإني أفقد كل ثقة وإيمان ببقاء الشخصيات بعـد الموت كما نعرفه في هذا الوجود".

ومما يقال عن المستر أديسن أنه لا يصـدق المـذاهب المعروفة في الحياة والموت لأنه يعتقد أنها فاسدة الأسـاس. قال لي باسطًا مذهبه فيهما "عندي أن الحياة كالمادة غير قابلة للفناء. فقد كان في هذا العالم مقدار معين من الحيـاة علـى الدوام وسيبقى هذا المقدار كما هـو علـى الـدوام، فإنـك لا تستطيع خلق الحياة ولا إبادتهـا ولا مضـاعفاتها. وفـي اعتقادي أن أجسامنا مركبة من ملايين من الكائنات المتناهية في صغرها وكل منها حي مفرد ويـرتبط بعضـها بـبعض

لتكوين الإنسان. ونحن نقول عن أنفسنا إن كلاً منا شـخص واحد قائم بنفسه ونتكلم عن الهـرة أو الفيـل أو الحصـان أو السمكة كأن كلاً منها فرد قـائم برأسـه ولكنـي أرى أن طريقة التفكير هذه فاسدة الأساس فإن هذه الأشياء كلها تظهر أنها بسيطة مفردة لأن الكائنات الحية التي تتألف منها أصغر من أن ترى حتى بأعظم المكبرات.

وقد يعترض على هذا الرأي بأنه إذا كانت هذه الكائنات صغيرة إلى هذا الحد فلا يمكن أن تكون مؤلفة من أعضاء مختلفة تستطيع القيام بالأعمال التي سأذكرها. فأقول في الرد على ذلك أنه لا حد لصغر الأشياء كما أنه لا حد لكبرها واكتشاف الإلكترون خير جواب على مثل هذا الاعتراض. فقد ظهر لي بالحساب أنه يمكن وجود حي متقن التركيب والتنظيم مؤلف من ملايين من الالكترونات الصغيرة التي لا ترى بما نعرف من المكبرات.

وهناك دلائل كثيرة تدل على أننا نحن الخلائق البشرية يتصرف كل منا تصرف جماعة من الأحياء لا تصرف حي واحد. وهذا ما يحملني على الاعتقاد أن كلا منا يحتوي على



ملايين من الأحياء وأن أجسامنا وعقولنا تمثل أفعال الكائنات التي تتألف منها.

ولننظر الآن في السبب الذي يحملني على القول إنـه لا بد أن تكون أجسامنا مؤلفة من هذه الكائنـات. خـذ بصـمة إبهامك كما يفعل البوليس في بصم أباهم المشبوهين ثـم أزل خطوط إبهامك بحرقها بالنار. فمتى نما الجلد ثانية تجـد أن خطوطه لم تتغير ألبتة عما كانت قبل احتراقه وقد امتحنـت ذلك بنفسي حتى تحققته. هذا سر من الأسرار ما فتئ مغلقاً حتى الآن. تقول لي إن هذا عمل الطبيعة. فإن هذا جـواب يراد به المحاولة لا غير إذ لا معنى له بل هو وسيلة لإسكات السائل بذكر كلمة فارغة مكان الجواب. إن كلمة "طبيعة" ما أقنعتني قط. أما جوابي أنا فهو أن الجلد لم ينبت ثانية كمـا كان أولاً بمجرد الاتفاق بل إن هناك من وضع رسوم النمـو الثاني وعني بمطابقته لرسوم النمو الأول من كل وجه. وأنت لا تعلم شيئًا من تلك الرسوم وعليه فإن دماغك لم يشترك في هذا العمل. وهنا تدخل الكائنات المشار إليها وتشـترك فـي العمل. وأنا أعتقد جد الاعتقاد أنها تحوك نسيج جلد الإبهـام

بمزيد العناية مستعينة على رسم التفاصيل الدقيقة بـ ذاكرتها العجيبة.

ولزيادة الإيضاح أقول. لنفرض أن كائنًا مـ ن سـ كان المريخ هبط إلى هذه الأرض. ولنفرض أن بصره ليس دقيقًا كبصرنا وأن أصغر شيء يمكنه أن يراه بعينيه هـ و جسـ ر (كوبري) مثل جسر بروكلين وعليه فإنه لا يرى أجسامنا وقد يحسب الجسر المذكور شيئًا طبيعيا كما نحسب نحن العشـ ب أو الرمل أو المعادن وغيرها من الأشياء الطبيعية. ولنفرض أن هدم جسر بروكلين وذهب ثم عاد بعد سنين فمر من هناك فوجد جسرا جديدا مكان القديم وعلى مثاله فهل يقوده الفكـ ر الصحيح إلى افتراض أن الجسر الجديد نما بنفسه مكان القديم وعلى مثاله أو افتراض أنه مد ثانية بفعل فاعـ ل عاقـ ل. لا ريب أن الفرض الثاني أقرب إلى العقل.

هذا هو الموقف الذي يجب أن نقفه نحن بإزاء الكائنات الحيوية. والمسألة كلها مجرد افتراض وتخمين كما لا يخفى. فقد يكون ٩٥ في المائة من تلك الكائنات التي تتألف أجسامنا منها عمالاً والخمسة الباقية مديرة للعمل وقد تكون غير ذلك.

ومهما يكن الأمر فإن مجموعها هو الذي يكون شكل أجسامنا الطبيعي وصفاتنا العقلية وشخصياتنا وما أشبه ذلك.

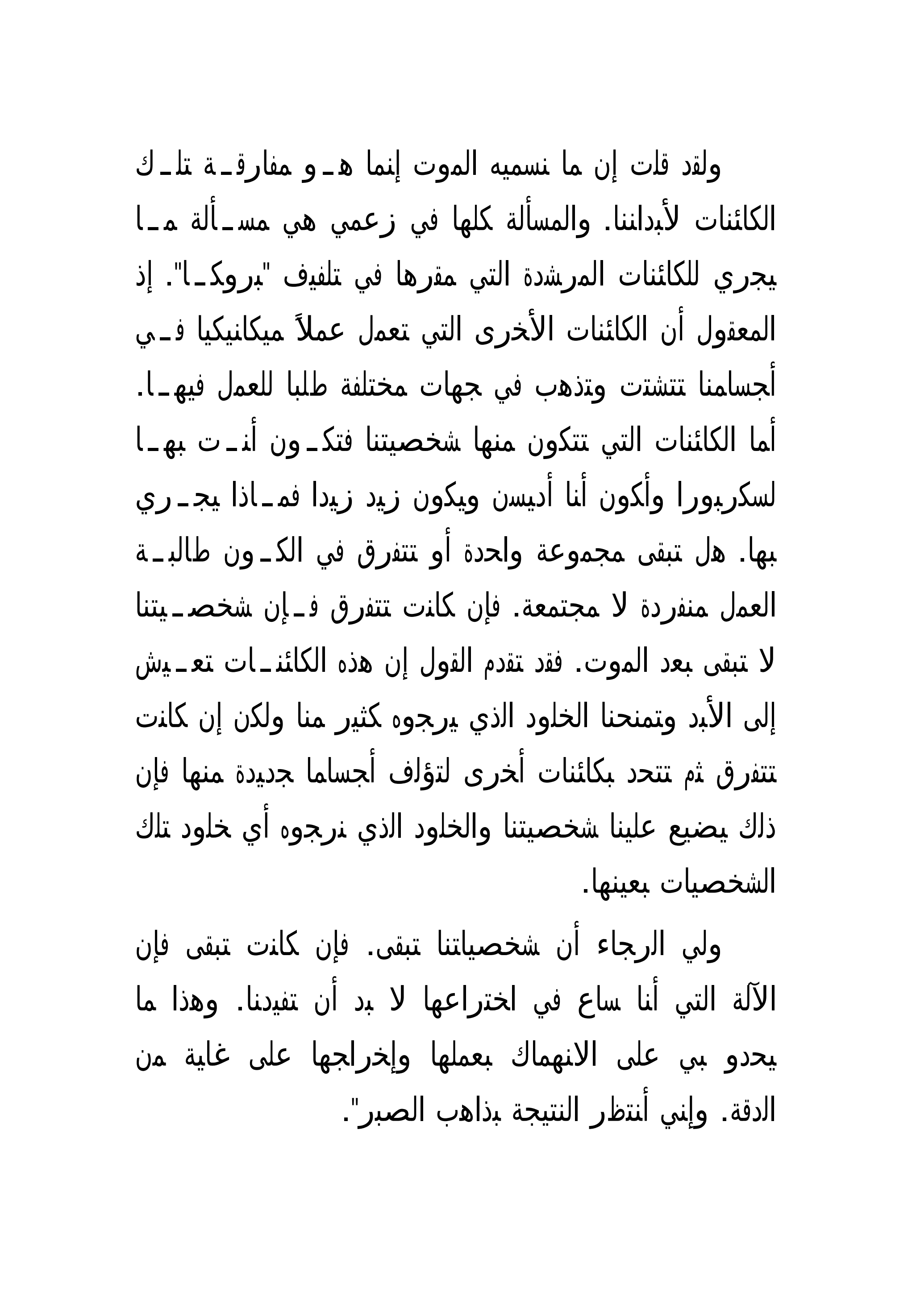
وهذه الكائنات هي الحياة بعينها وهي لا تفتأ تعمل وترمم أنسجة أجسامنا وتشرف على وظائف أعضائنا. فإذا أصيب الجسم بطارئ أفضى إلى موته كأن يكون مرضا عضالاً أو عارضا أو هرما فإن هذه الكائنات تفارقه ولا تترك وراءها إلا بناء خاويا خاليا. ولما كانت عمالاً لا تكل ولا تمل فإما أن تدخل جسم إنسان آخر أو تبدأ العمل في صورة أخرى من صور الحياة وأشكالها. وسواء كان هذا أو ذاك فإن هذه الكائنات محدودة العدد وهي نفسها عملت كل شيء في عالمنا هذا ولكن تعدد التراكيب التي تتألف منها هو الذي أوقعنا في الخطأ فحسبنا أن لكل مولود حياة جديدة.

وهذه الكائنات خالدة لا تموت فإنك لا تستطيع إفناءهـا كما لا تستطيع إفناء المادة وجهد ما هناك أنك تستطيع تغيير صورة المادة لا غير. فقد كـان مقـدار الـذهب والحديـد والكبريت والأكسجين وغيرها في بدء العالم كما هو الآن بلا زيادة ولا نقصان. نعم إننا نسـتطيع التغييـر فـي تركيـب

مركبات هذه العناصر ولكننا لم نظفر بتغير نسـبها بعضـها إلى بعض.

وهذا هو حال الكائنات الحيوية فإننا لا نستطيع إفناءهـا بل نغير صورها وأشكالها. وقدرتها متعددة الضروب حتـى يصعب علينا تمييز أعمالنا في كل الأحوال. وعليه لم يستطع العلماء حتى الآن أن يرسموا حدا بين الأشياء الحية وغيـر الحية. وقد يكون أن هذه الكائنات تمتد إلى الجماد وتعمل فيه وإلا فما هو الشيء الذي يجعل البلورات تتكون على أشـكال هندسية محدودة.

والآن نأتي إلى مسألة الشخصية. أنت لسكربورا (اسـم الكاتب) وأنا أديسن لأن في كل منا مجموعا مـن الكائنـات يختلف عن مجموع الآخر. فقد أثبت الطب باثنتين وثمـانين عملية جراحية شهيرة عملت حتى الآن أن مركز شخصـيتنا هو في تلفيف من تلافيف الدماغ اسمه تلفيف "بروكا". ومـن العقل والصواب أن نفرض أن مركز مقر الكائنات التي تدير حركاتنا وتشرف عليها إنما هو في ذلك التلفيف. فهو الـذي يشعرنا بالتأثيرات العقلية وبشخصيتنا.



ولقد قلت إن ما نسميه الموت إنما هو مفارقة تلك الكائنات لأبداننا. والمسألة كلها في زعمي هي مسألة ما يجري للكائنات المرشدة التي مقرها في تلفيف "بروكا". إذ المعقول أن الكائنات الأخرى التي تعمل عملاً ميكانيكيا في أجسامنا تتشتت وتذهب في جهات مختلفة طلبا للعمل فيها. أما الكائنات التي تتكون منها شخصيتنا فتكون أنت بها لسكربورا وأكون أنا أديسن ويكون زيد زيدا فماذا يجري بها. هل تبقى مجموعة واحدة أو تتفرق في الكون طالبة العمل منفردة لا مجتمعة. فإن كانت تتفرق فإن شخصيتنا لا تبقى بعد الموت. فقد تقدم القول إن هذه الكائنات تعيش إلى الأبد وتمنحنا الخلود الذي يرجوه كثير منا ولكن إن كانت تتفرق ثم تتحد بكائنات أخرى لتؤلف أجساما جديدة منها فإن ذلك يضيع علينا شخصيتنا والخلود الذي نرجوه أي خلود تلك الشخصيات بعينها.

ولي الرجاء أن شخصياتنا تبقى. فإن كانت تبقى فإن الآلة التي أنا ساع في اختراعها لا بد أن تفيدنا. وهذا ما يحدو بي على الانهماك بعملها وإخراجها على غاية من الدقة. وإني أنتظر النتيجة بذاهب الصبر".

هذا ما جاء في كتاب المقتطف "رسائل الأرواح" والذي صدر عام ١٩٢٨ ولم نعد نسمع شيئًا عن محاولة أديسن، ولعلها أبرز المحاولات التي فشل فيها، لأن مجالها يجاوز عبقريته، وهو بالنسبة للمسلمين أمر مفهوم، ولكنه قد يكون لدى غيرهم دليلاً على عدم وجود الأرواح...

ماذا رأت شيرلي ماكلين؟

شيرلي ماكلين، كما قد يعرف بعض القراء، راقصة ومغنية وممثلة أمريكية رزقت شهرة مدوية في هذه المجالات خلال الستينات، وقد يعجب البعض أن نزج بها في كتاب إسلامي، ولكن المؤمن قد يضع صدقته في يد بغي ويثاب عليها، وشعارنا الذي نردده دائما، هو "المقولة" لا "القائل" فلا يهمنا القائل، وإنما تهمنا مقولته. فإذا كانت مقولته صائبة، فلا يعنينا القائل في شيء. وقد قامت شيرلي ماكلين برحلات عديدة إلى آسيا، وأفريقيا وقد ألفت عددا من الكتب ومعظمها من أكثر الكتب انتشارا، والكتاب الذي نقتبس منه إشارتنا يتضمن صفحات عديدة عن حياتها الخاصة وغرامها ورواياتها وأغنياتها مما لا يهمنا هنا، ولكنه تضمن أيضا وصفًا دقيقًا لتجارب روحية، ومناقشة علمية لها استشهدت

فيها بشواهد من أينشتين وغيره، بل ظهر أنها اطلعت على أبحاث عالم المخ" ويلدر بنفيلد" الذي استشهدنا به في إحدى الفقرات السابقة في هذا الفصل وهذا القسم هو ما يهمنا هنا. وما نرى فيه إضافة جديدة للموضوع خاصة وأن جزءا منها يتفق تماما مع بعض ما جاء في القرآن الكريم.

وكتابها الذي نشير إليه هـو "الـرقص فـي الضـياء Dancing in Light.

تقول شيرلي ماكلين إنها ذهبت إلى سانتا في (المكسيك) لتعالج على يدي سيدة متخصصة في العلاج النفسـي عـن طريق الإبر الصينية الذهبية تدعى "كريست جريسكون" تقوم على أساس أن وخز بعض المناطق الحساسة أو الخلايا يطلق ذاكرة الخلية فتطرح ما مر بها من تجربة. وهي تـؤمن أن كل ما يحدث لنفس الإنسان ينطبع علـى جسـده، وتحـتفظ خلاياه به. فإذا وضعت الإبر في مواضع معينة مثل منطقـة العين الثالثة وهي وسط الجبهة، أو وراء الأذنـين أو علـى الكتفين يمينًا ويسارا، فإن الإنسان يستعيد مشاهد من حياتـه الماضية إذ تبدأ الصور تظهر أمام "عين عقلـه" بقـدر مـا تثيرها الإبر. وأكدت الطبيبة أن هذه الصور ليسـت خيـالاً

صوره عقلها، ولكنها تجارب سابقة. وإن طاقة الجسم الإنساني مثل الموجات الكهربائية – المغناطيسية (إلكترومانجيك) وأنها تنطلق من الجسم والعقل.

وقد يمكن للذين يتقدمون روحيا الاتصال بهذه الموجات كما يحدث في جهاز راديو.

وأمضت شيرلي ماكلين جلستين طويلتين كانت في حالة لا تشبه أبدا التنويم المغناطيسي، إذ كانت تشعر أنها تتلقى وتلاحظ في الوقت نفسه، وأنها تعمل على مستويين من الوعي في وقت واحد.

في الجلسة الأولى، وبعد وضع الإبر في أماكنها، وبعد فترة من الاسترخاء أخذت الصور تتراءى. فرأت مرة سيدة مصرية قديمة تلبس رداءا ذهبيا أرجوانيا وكأنها ملكة، ثم رأت أفريقية فقيرة تبكي وعلى صدرها طفلة جائعة، ثم رأت رياضيا يونانيا أو رومانيا قوي الجسم يجري برأس مرفوعة.. ورأت في هذا كله صورة لأمها في عصور مختلفة، ثم رأت هرما من الكريستال يبرز من البحر شرقي الولايات المتحدة، يلمع في الشمس، وتحس أن الجو رطب وأن حبيبات من الرطوبة تغلف الهواء، ورأت أبوابا من

الكريستال وأبهاء وقاعات كلها خالية وسط صحراء بلقع، ثم تغير المنظر فرأت حدائق وأنهار ونافورات وقصـورا مـن الكريستال، وأناس يذهبون ويجيئون، وحيوانات وطيور، وبدا وكأنهم يتخاطبون بطريقة غير محسوسة، والألوان برتقاليـة ووردية، كأنها قوس قزح، وسألت طبيبتها فقالت لها إن مـا تراه هو "أتلانتس" قبل أن تندثر، وإن الكريستال خاصـة إذا استخدم في لباس الرأس يسـاعد علـى الاتصـال بـالوعي الأعلى. وأن الصورة التي شاهدتها عند الأبواب المهجـورة هي لها بعد اندثارها، وإن هذا يمكن أن يحدث لحضارتنا.

وكانت شيرلي ماكلين خلال الجلسـة، وكـذلك خـلال الجلسة الثانية تخاطب الطبيبة عما ترى فتسألها فترد عليهـا الرد المناسب.

وفي الجلسة الثانية وبعد غرس إبرة إضافية في منطقـة الحنجرة، وبعد بعض التعب شاهدت شيرلي صورة لشخص أقرب إلى الرجولة منه إلى الأنوثة. قويـا، جمـيلاً ودودا، وعندما سألته من هو قال لها "أنا أنت! أنـا نفسـك الأعلـى Higher Self. ودار حديث طويل بدا فيه وكأنـه روحهـا، أو نفسها مجسمة، وقال إن صورته أقرب إلى الذكورة منها إلى

الأنوثة، لأن الذكورة إيجابية والأنوثة سلبية، الذكورة تعطي، والأنوثة تتلقى (وقد كان في هذا الرد ما أقنع شيرلي ماكلين عن تساؤل كان يخطر لها دائما، لماذا كان الأنبيـاء جميعـا ذكورا ولم يكن منهم نساء) وسألت شيرلي "نفسها الأعلـى" عما إذا كان يمكنه أن يوقف اهتزاز أغصان شجرة تـراءت لها من النافذة، فقال لها "اطلبي منها الإذن أولاً" وقالت "وهل تحس الشجرة" فقال لها "إن كل صور الحياة تنبض بالشعور. وسألت شيرلي الشجرة أن توقف أغصانها عـن الاهتـزاز. وبعد فترة قصيرة سكنت الأغصان دون أي حركة أو نأمة..

قد يكون في هذا كله شـيء مـن الهلوسـة والخلـط، ومعروف أن عالم الأرواح حافل بالأرواح الشريرة والطيبـة على السواء، ولكن هذا لا ينفي أمرين يستحقان النظـر فـي كتاب شيرلي، وصفحاته تنوف علـى أربعمائـة. الأول أن بعض ما جاء فيها يتفق مع ما جاء به القرآن. فهي تؤمن أن كل خلية من خلايا أعضاء الجسم لها ذاكرة ويمكن أن تطلق ما عرض لها من تجربة.. "أخذت أنظر إلى ساقي وقدمي في البانيو وأقول إن لهما ذاكرة خاصة بهما".

إن هذا قريب جدا مما جاء في القرآن الكريم من شهادة الأيدي والأرجل والجلود على أصحابها يوم القيامة ﴿حتى إِذَا ما جاءوها شَهد علَيهم سمعهم وَأبصارهم وجلُودهم بِما كَانُوا يعملُون* وقَالُوا لِجلُودِهِم لِم شَهدتم علَينا قَالُوا أَنطَقَنا ا ُ الذِي أَنطَقَ كُل شَيءٍ وهو خَلَقَكُم أَولَ مرةٍ وإِلَيهِ تُرجعون﴾ (٢٠ – ٢١ فصلت)

وكذلك ما جاء عن الشجرة، أنها تؤكد أن ما من شيء إلا يسبح ا ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم.

وثمة فقرة تذكر الإنسان بحديث "إن الميت يعذب ببكاء أهله الذي اختلف فيه المحدثون". وهي تتعلـق بزميـل لهـا يدعي كريستوفر. كان في الثلاثين من عمره عندما أصـيب بالسرطان وتنبأ له الأطباء بالموت الوشيك. ولكـن شـيرلي ماكلين أخذت تحثه على التشبث بالحياة، وتبعد عنـه فكـرة الموت عندما ظهر لها "نفسها الأعلى" وخاطبها غاضبا "لماذا ترين لنفسك الحق في الإصرار على بقاء كريسـتوفر حيـا بالجسم، عندما يكون أمامه ما يشغله في الأبعاد العليا، أنـت تعلمين أنه لن يموت حقًا فدعيه يمضي لطيته. إن أحدا مـن الناس لا يمكن أن يعلم ماذا يريد الآخر أو ماذا يعمله.."

فأجابته أن كريستوفر يريد أن يحيا بالبدن فقال لهـا إن جزءا منه فحسب هو الذي يريد هذا – ولكن "نفسه الأعلـى" يريده. وأنت لا تفهمين هذا لأنك إنما تقـدرين الحيـاة فـي البدن. فدعيه يمضي في هدوء.

بعد هذا كفت عن أن تشجع زميلها، أو تأسى له، وبعد ستة أسابيع عندما آوت إلى فراشها مبكرة أحست بشعاع من نور كأنه نسيم. فظنت أن الشمس قد أشرقت، ولكن الظلام كان مطبقًا على الغرفة. ومع هذا ظلت تحس بالنور في رأسها وكانت تشعر أنه يحيط بها. فعلمت أن كريستوفر قد مات. وعندما تلقت مكالمة تليفونية بعد ذلك بموته قالت لمحدثها "لقد علمت بالفعل..".

والثاني تأملاتها الخاصة فيما انتهى إليه تطـور علـوم الطبيعة (الفيزياء) خاصة بعد نظرية الكوانتم التي كانت أشبه بصدمة هزت وزلزلت كيـان الرياضـات السـابقة عليهـا وتطورت حتى أوجدتها عالما جديدا أبرز ما فيـه "الـوعي" الذي لا يقتصر على الإنسان، ولكن على كل شيء، بما فـي ذلك جزئيات ما تحت المادة **subatomic Particles** والفوتون **Photon** وأن الكون من ناحية محكوم بقوانين دقيقة تضـبط

حركات الأجرام السماوية.. ولكنه من ناحية أخرى يـرفض "الميكانيكية" فتظهر خوارق وسـلوكيات تـنم عـن إرادة لا تخضع للقوانين العليا التي تحكم الكون، ويمكن أن تفسر من مدخل صوفي أكثر مما تفسر بمدخل علمي، إذ أنه لا يوجـد علم مضبوط Science exact على ما قال ورنر هيزنبـورج صاحب نظرية "اللاحتمية" وأن رياضيات الكوانتم تقودنا إلى المكان الوحيد الذي علينا أن نذهب إليه وهو "أنفسنا".

وأشارت شيرلي إلى أن بعض كهنـة "اللامـا" كـانوا يثقبون في الماء المتجمد ثغرة يدخلون فيها. ويتأملون حتـى يذوب الثلج ويتصاعد البخار من أجسامهم. وقـالوا ببسـاطة إنهم كثفوا أو استحثوا الطاقة الإليكتروماجيك للذرات داخـل أجسامهم. وهم يقولون إن معدل الطاقة الإليكتروماجيك يمكن أن تغير من طبيعة الأشياء الثابتة كحرق النار أو تجمد الثلج، فليس هناك قوانين ثابتة بالنسبة للوعي.

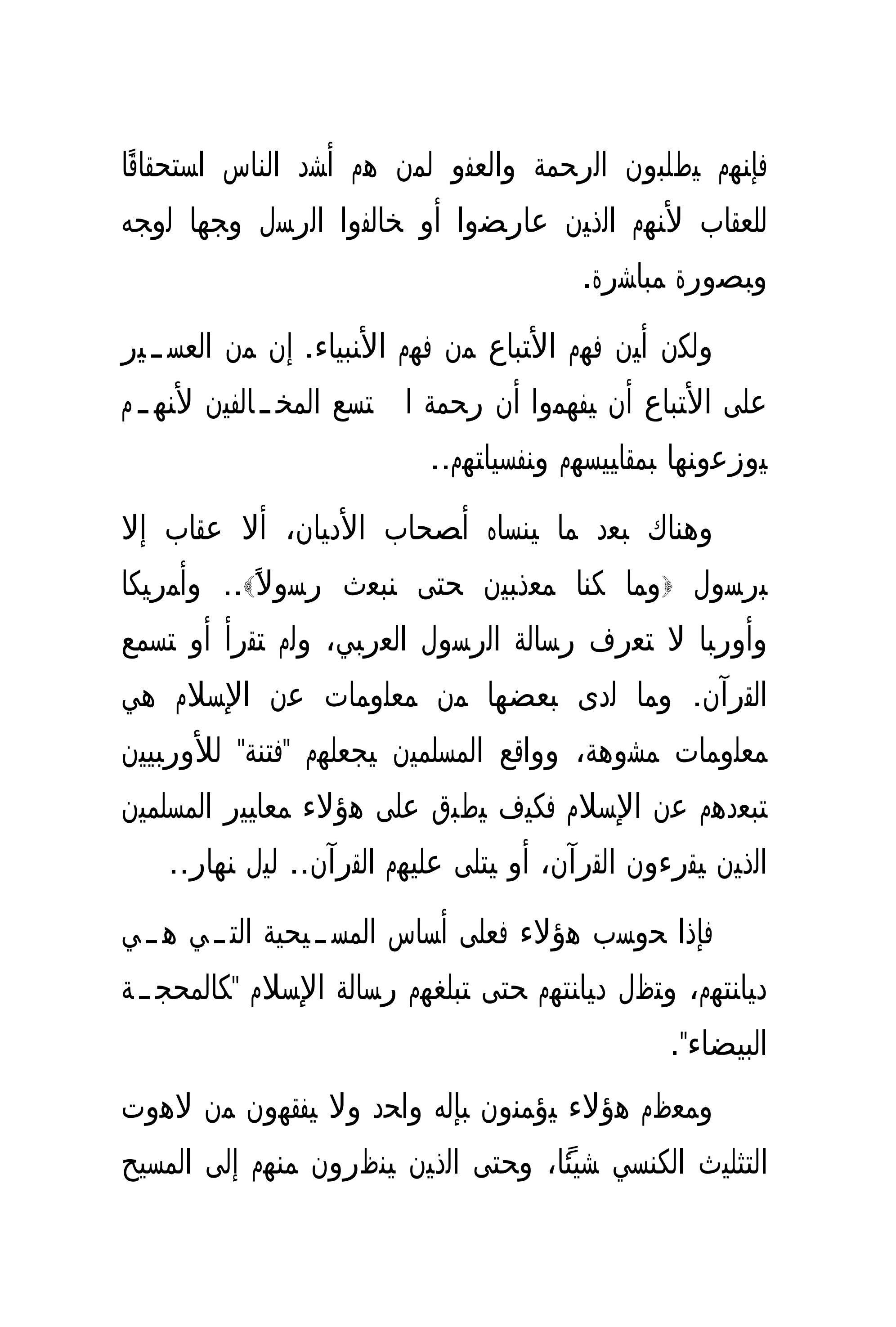
والفكرة الرئيسية التي تسيطر على شيرلي ماكلين هي اتفاق العلم والدين بالنسبة لقضية الروح وا تعالى وهي تؤمن إيمانًا لا يخالجه شك في وجود ا تعالى وخلود الروح. وإيمانها ينبثق من العلم والدين معا، وهي تأخذ

منطلقها من الطاقة التي يمكن أن تكون وعيا وروحا كما يمكن عندما تتجمد أن تصبح مادة وجسما. وهي تؤمن أن رجل العلم ورجل الدين سيتلاقيان عند قمة جبل المعرفة يوما ما. لأن مدخل كل واحد منهما وإن اختلف في الوسيلة فهو يستهدف هدفًا واحدا هو الحقيقة وبهذا يكملان بعضهما بعضا. والدين عقيدة دون علم والعلم برهان دون عقيدة والمدخل الروحي لحقائق الكون وما فيه من اتساق يعترف بالأبعاد غير المرئية داخل وعينا، والمدخل العلمي يعترف بالأبعاد نفسها من خارجنا. وقد قارب العلم الحديث أن يقول إنهما شيء واحد. وإن الوعي يجمعهما.. وإن المدخلين ضروريان للمعرفة الشاملة.

السؤال الذي قد يتبادر إلى ذهن القارئ المسلم بعد قراءة ما جاء عن عالم الأرواح هو "أين الإسلام في هذا؟" بمعنى أن عالم الأرواح، كما عرضناه، لا يفرق بين مسلمين، وغير مسلمين، ومعظم ما أوردناه، أو كل ما أوردناه هو عن أقوال أوربيين مثل ما شاهدته شيرلي ماكلين، وما قامت به الجمعية العلمية في بريطانيا، وهي كلها لا تشير إلى أي أثر للأديان سواء كانت مسيحية أو إسلامية.

وقد يرى البعض أن ما أوردناه، وإن كان يثبت خلود الروح، فإنه يضع علامة استفهام كبرى عن مدى تجاوب ذلك مع التراث الإسلامي والمفهوم التقليدي لعالم ما بعد الموت.. وهي شبهة قوية، ويمكن ألا تقتصر على المسلمين، ولكنها تمتد إلى المؤمنين بالأديان الأخرى.. ولا بد من تصفيتها لأنها تمثل أحد الرواسب العميقة في نفوس المؤمنين على اختلاف أديانهم.

فالسبب الأول لها يعود إلى ما قرره القرآن ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إِذًا لأمسكتم خشية الإنفاق ﴾ فالإنسان تغلب عليه الأثرة والأنانية وضيق الأفق والانطلاق من منطلق ذاتي فلا يرى لغيره، وبالأكثر لغير المؤمنين بدينه، حقًا في رحمة ا أو دركًا لمغفرته ولأنه يعيش فى عالم "ندرة الموارد" فإن فكرة الندرة وما تثيره من نجل وأثره على نفسية الناس وهم لا يتصورون عالما آخر لا تحكمه الندرة. مع أن أنبياء الديانات على اختلافهم التمسوا من ا تعالى الرحمة للمخالفين، فهذا إبراهيم يقول ﴿ومن عصاني فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ وهذا رسولنا محمد "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".. وكما سنشير في موضع لاحق



فإنهم يطلبون الرحمة والعفو لمن هم أشد الناس استحقاقًا للعقاب لأنهم الذين عارضوا أو خالفوا الرسل وجها لوجه وبصورة مباشرة.

ولكن أين فهم الأتباع من فهم الأنبياء. إن من العسـير على الأتباع أن يفهموا أن رحمة ا تسع المخـالفين لأنهـم يوزعونها بمقاييسهم ونفسياتهم..

وهناك بعد ما ينساه أصحاب الأديان، ألا عقاب إلا برسول ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾.. وأمريكا وأوربا لا تعرف رسالة الرسول العربي، ولم تقرأ أو تسمع القرآن. وما لدى بعضها من معلومات عن الإسلام هي معلومات مشوهة، وواقع المسلمين يجعلهم "فتنة" للأوربيين تبعدهم عن الإسلام فكيف يطبق على هؤلاء معايير المسلمين الذين يقرءون القرآن، أو يتلى عليهم القرآن.. ليل نهار..

فإذا حوسب هؤلاء فعلى أساس المسـيحية التـي هـي ديانتهم، وتظل ديانتهم حتى تبلغهم رسالة الإسلام "كالمحجـة البيضاء".

ومعظم هؤلاء يؤمنون بإله واحد ولا يفقهون من لاهوت التثليث الكنسي شيئًا، وحتى الذين ينظرون منهم إلى المسيح

كابن ا   فباعتبار المعنى المجازي الذي قد يؤديه الأثر "الناس عيال ا ".

وقد تكون أخلاق هؤلاء أقرب إلى خلق الإسلام من كثير من المسلمين، ومعاملاتهم أشد إتقانًا، ونظمهم السياسية أقرب إلى القيم الأدبية والمعنوية التي هي في أصل الأديان جميعا، فحتى لو أعطينا أنفسنا سلطة الحكم، فإن كفتهم قد لا تكون المرجوحة.

وقد عالج الغزالي وضع الناس بعد بعثة الرسول فقال إنهم أصناف ثلاثة:

١) من لم تبلغهم دعوته. ولم يسمعوا به أصلاً. أولئك مقطوع لهم الجنة.

٢) من بلغتهم دعوته وظهور المعجزات على يديه وما كان عليه من الأخلاق العظيمة والصفات الكريمة. ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانينا. أولئك مقطوع لهم النار.

من بلغتهم دعوته ، وسمعوا به، ولم يمتثلوا أوامـره ونواهيه. وهؤلاء أرجو لهم الجنة إذا لم يسمعوا ما يـرغبهم في الإيمان به.

ويشرح الشيخ عبد العال شاهين الفقرة الأخيرة فيقول "يريد الغزالي بهذا أنهم سمعوا عنه أخبارا مكذوبة وعن دينه أخبارا لا تنطبق على حقيقته كالتشويه في أخبار الرسول أنه مزواج مطلاق. وأن دينه دين وثنية لأنه كان يسجد للكعبة. وأنه خالف جميع الأنبياء واتجه إليها ولم يتجه إلى بيت المقدس إلى نحو ذلك مما يقولون. وهم لا يعقلون إلا ترهات وأباطيل "[٤١].

وكلام الغزالي صريح في أن من لم تبلغه دعوته، ولم يسمعوا به أصلاً "مقطوع لهم الجنة" "ومعظم الأوربيين والأمريكيين والآسيويين (من هنود أو صينيين أو يابانيين) يدخلون في هؤلاء إذا لم يدخلوا في الفئة الثالثة التي "يرجو لها الجنة".

---

[١] جريدة الجمهورية في يوم ١٩٨٤/٧/٥.

وأهم من كلام الغزالى كلام ا تعالى، وقد وضح ا تعالى بصريح العبارة.

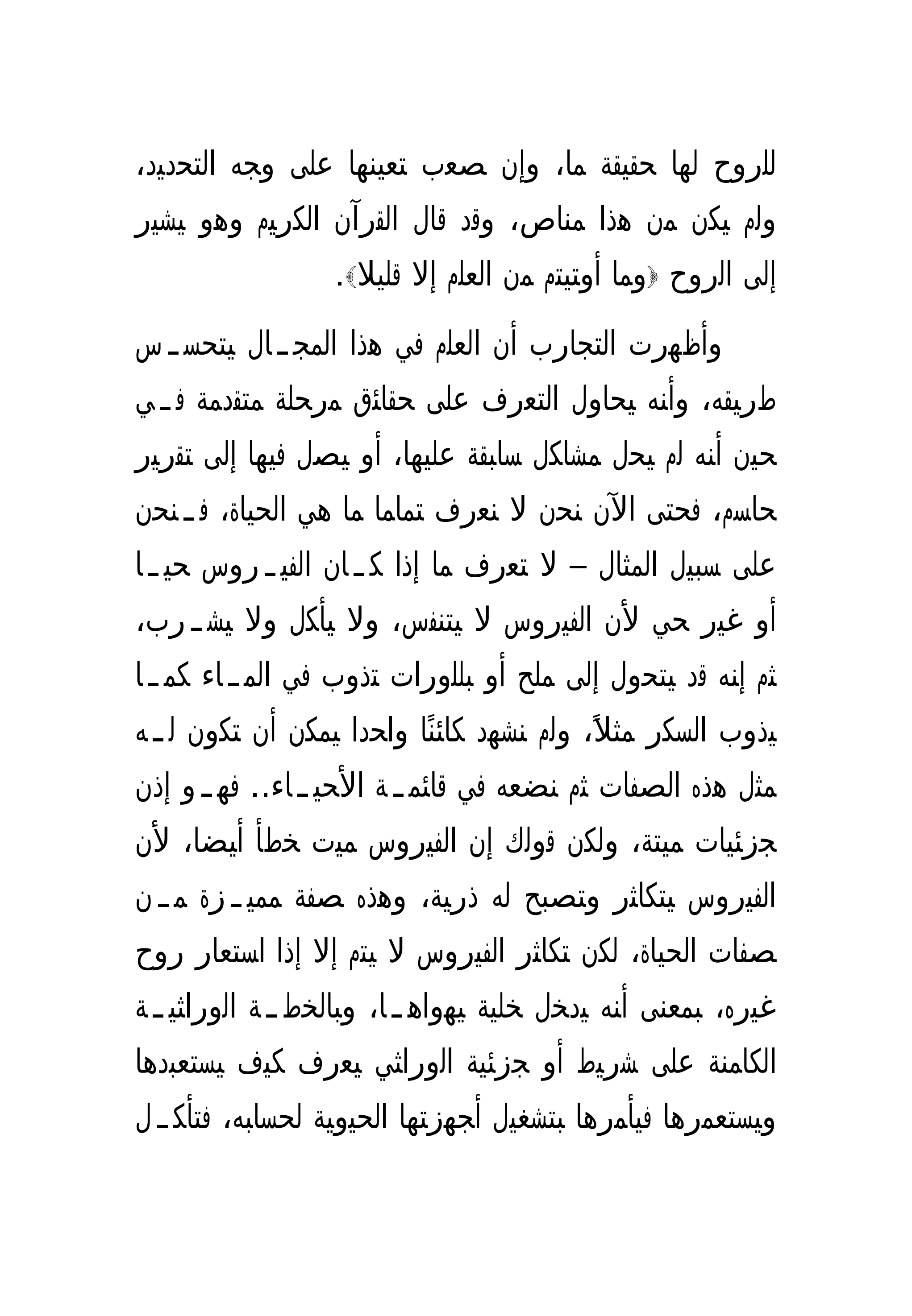
﴿إن الذين آمنُوا والذِين هادوا والصابِئين والنصارى والْمجوس والذِين أَشْركُوا إِن الله يفْصِلُ بينَهم يوم الْقِيامةِ إِن الله علَى كُل شَيءٍ شَهيد﴾. {١٧ الحج}..

﴿إن الذين آمنُوا والذِين هادوا والصابِئُون والنصارى من آمن بِاللهِ والْيومِ الآخِرِ وعمِلَ صالِحا فَلا خَوفٌ علَيهم ولا هم يحزنُون﴾. {٦٩ المائدة}

فالقضية محاولة.. وعلى المسلمين أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا غيرهم. وليدعوا غيرهم إلى ا لأنه تعالى هو الذي سيفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

خاتمة الفصل:

توصلت البحوث العلمية الأخيرة إلى وجود "روح" أو "عقل أو "إرادة" أو "وعي" لا يفنى بفناء الجسد المادي، كما أن التجارب الروحية وقفت على حافة العالم الأثيري الغامض الذي تختلط فيه الحقيقة بالوهم، وأظهرت أطياقًا



للروح لها حقيقة ما، وإن صعب تعينها على وجه التحديد، ولم يكن من هذا مناص، وقد قال القرآن الكريم وهو يشير إلى الروح ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾.

وأظهرت التجارب أن العلم في هذا المجال يتحسس طريقه، وأنه يحاول التعرف على حقائق مرحلة متقدمة في حين أنه لم يحل مشاكل سابقة عليها، أو يصل فيها إلى تقرير حاسم، فحتى الآن نحن لا نعرف تماما ما هي الحياة، فنحن على سبيل المثال – لا نعرف ما إذا كان الفيروس حيا أو غير حي لأن الفيروس لا يتنفس، ولا يأكل ولا يشرب، ثم إنه قد يتحول إلى ملح أو بللورات تذوب في الماء كما يذوب السكر مثلاً، ولم نشهد كائنًا واحدا يمكن أن تكون له مثل هذه الصفات ثم نضعه في قائمة الأحياء.. فهو إذن جزئيات ميتة، ولكن قولك إن الفيروس ميت خطأ أيضا، لأن الفيروس يتكاثر وتصبح له ذرية، وهذه صفة مميزة من صفات الحياة، لكن تكاثر الفيروس لا يتم إلا إذا استعار روح غيره، بمعنى أنه يدخل خلية يهواها، وبالخطة الوراثية الكامنة على شريط أو جزئية الوراثي يعرف كيف يستعبدها ويستعمرها فيأمرها بتشغيل أجهزتها الحيوية لحسابه، فتأكل

له وتتنفس له، وتصنع له "حياته" وذريته على حساب حياتها هي، ولكي تبعث ذرية بالعشرات أو المئات من داخلها كـان لا بد أن تموت هي ليخرج هو.. ليس كفيروس واحـد بـل فيروسات كثيرة لتسلك سلوك الأموات، فإذا عادت إلى الخلية دبت فيها بعض خصال الأحياء.

وقل مثل هذا عن الطاقة والمادة، والموت والحياة، كما أننا أحيانًا لا نستطيع أن نحدد إن كانت بعـض المخلوقـات نباتات أو حيوانات، فهناك كائنات أولية بسيطة لا تـرى إلا بالميكروسكوبات، وعندما تنظر إليها تريد بذلك تصـنيفها أو وضعها في مملكتها الصحيحة، عندئذ لا تسـتطيع أن تحـدد ذلك. ففيها صفات النبات جنبا إلى جنب صـفات الحيـوان. ومن أجل هذا ترى علماء النبـات يضـعونها فـي كتـبهم ومراجعهم، وكذلك يكون الحال مع علماء الحيـوان، فهـي نبات في حيوان أو حيوان في نبات [42].

---

[1] انظر مقالاً بعنوان "الحائرون الثلاثة" بقلم الدكتور عبد المنعم صالح في مجلة العربي العدد ٢٣٢ مارس ١٩٧٨ ص ٣٩.

ولم يتصور الإنسان حياة نشطة في غير الصورة العضوية التي تقوم على لحم ودم سواء كان في الإنسان أو الحيوان أو الطيور أو الأسماك. ولكن الإسلام يحدثنا عن مخلوقات من نور كالملائكة. وعن شياطين "من مارج من نار".

فالدين أوسع آفاقًا من العلم في هذا المجال، وبالطبع فنحن لا نعلم شيئًا عن حياة مخلوقات من نور أو نار. ولكن المهم أن الصورة العضوية ليست هي الصورة الوحيدة للحياة، التي يتصورها الإنسان، والتي جعلته عندما يتصور مخلوقات فضائية يعطيها صورة قريبة من صورته، وإن تفاوتت طولاً وعرضا، الأمر الذي يوضح أن الإنسان رغم كل تقدمه فإنه لم يستطع تصور حياة مختلفة عن حياته الخاصة.

فإذا كنا لا نعرف الحياة تماما، فنحن أيضا لا نعرف الموت تماما وهل هو "نوم طويل بدون أحلام" – إن النائم المسجى على سريره هو – إلى حد ما – كالميت الممدد في كفنه فلا هو يسير، أو يتكلم أو يأكل أو يشرب أو يمارس نشاطًا مما يمارسه الإنسان في حياته، ولا يملك قوة تدفع عنه

الأذى والفرق الأعظم بين الموت.. والنوم.. هي اليقظة في الصباح ففي حالة الموت، لا يأتي هذا الصباح – كما يتصور المنكرون للبعث – أو يأتي بعد فترة – قد تكون ألوف السنين، عند البعث، ولكنها بالنسبة للميت عندما يبعث "يوما أو بعض يوم" لأن مدلول الزمن مفقود في حالتي النوم.. والموت...

وفي هذا النوم، والعيون مغلقة، والبطاطين مسدلة، ترينا الأحلام عالما سحريا.. رجالا، ونساء، وبلادا وحيوانات، وحوادث.. ويقولون إنها "العقل الباطن". وهل يرى العقل الباطن ويقطع المسافات ويؤلف الروايات، ويظهر للعين المغلقة الرؤى والمشاهد. دع عنك صدق كثير من الأحلام، سواء في المستقبل أو الماضي. وهي حالات متواترة في الشرق والغرب. في الحديث والقديم - ... وقد أجاز أبو بكر وصية ثابت بن قيس التي ذكرها في المنام لأحد إخوانه. وهي واقعة مؤكدة، ومذكورة في معظم كتب الحديث[٤٣].

---

(١) انظر على سبيل المثال " سر الروح للإمام البقاعي الشافعي" وكان ثابت قد قتل يوم اليمامة وعليه درع نفيسة، فمر رجل من

ولقد يبدو قياس الموت على النوم فجا، ولكن الظـواهر التي تكتنف الزمن تسمح لنا به، بل وتجاوزه، كما أن حقيقـة أن المادة طاقة مختزنة محبوسة، وأن الطاقة مادة متحـررة منطلقة، جعل التحول من مادة إلى طاقة – أو العكس – ليس مستحيلاً من الناحية النظرية، حتى فـي صـورة لا تكـاد تصدق. **وقد نال مدرس مصري درجة الدكتوراه من كليـة الهندسة حول ذلك الموضوع ويومها قال إنه نظريا يمكـن إرسال إنسان باللاسلكي بواسطة جهاز إلى أمريكا في جزء من الثانية واستقباله هنـاك بجهـاز آخـر يعيـده بشـرا سويا"[٤٤].** "وقال بعض علماء الطبيعة: إننا لـو تصـورنا إنسانًا يعيش على أحد الأجرام السماوية التـي تبعـد عـن

المسلمين. فأخذها. فجاء ثابت لرجل من المسلمين في المنام وقال له "أوصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه" ثم وصف له مكان درعه، وأين خبأها من أخذها – ثم أوصاه إذا قدم على أبي بكر بالمدينة أن يسد دينه وأن يحرر بعض عبيده إلخ.." فأخبر الرجل خالدا فأرسل فأحضر الدرع ثم لما ذهب الرجل إلى المدينة ذكر لأبي بكر رؤياه فأجاز أبو بكر ما جاء بها وقالوا: "لا نعلم أحدا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس".

(٢) انظر مقالاً في العدد ١٢٥٦ من مجلة صباح الخير في ١٩٨٠/١/٣١ "استعدوا للسفر في الفضاء". ص ٥٠.

الأرض أربعة آلاف سنة ضوئية، ولو تصورناه يملك منظارا ضخما يمكنه أن يرى ما يجري على الأرض لاستطاع هـذا الإنسان أن يرى الآن في هذه الساعة الحوادث التـي كانـت تجري على الأرض منذ أربعـة آلاف سـنة – أي لـرأى المصريين القدماء وهم يبنون معبد الكرنك أو لرأى تحـتمس أو رمسيس الثاني وهما يخوضـان معاركهـا فـي كـادش ومجدو"[1].

وثمة ظـاهرة طبيعيـة معروفـة تـدعى "الانسـلاخ" **Metamorphosis** تحدث لبيضة دودة القز "التي تنقـف عـن دويدة صغيرة تنمو حتى تصير يسروعا يلتهم أضعاف وزنه من ورق التوت الغض، فإذا بلغ أشده واكتمل حجمه فكـان حوالي ثلاث بوصات طولاً – تأبى وأمسك عن وليمته تلك، وحل بسلوكه تحول ظاهر، يرفع رأسه ويمضـي متراوحـا قدما طورا، ورجعا آخر، وما يلبث أن يمج من مغزال فـي فكه الأسفل خيطًا حريريا دقيقًا يثبته إلى غصـين أو حامـل آخر راسخ مطمئن، ومن ثمة يأخذ في الغزل التفافًا ثم التفافًا

---

(١) الإسلام ورسوله بلغة العصر للأستاذ أحمد حسين ص ٨٨.

في دورة على صورة الرقم الإفرنجي 8 بضعة أيام، فيقيم من حول نفسه كسوة طول خيوطها ألف ياردة أو أكثر من حرير ثمين حتى يصبح محويا في داخل فيلجة بيضاء.

ثم يخيم السكون المطلق، ويظهر اليسروع بمظهر المأخوذ بالنعاس ملفوفًا في كفن من الحرير.. قد أسمي هذه الحال نوعا من النوم، ولكن في داخل حشوته البدنية، تبدأ استحالة من نوع باهر عجيب، فإن كثيرا من أعضائه وأنسجته تأخذ في التقشر ثم تنبذ، ومن مادتها تتخلق أبنية جديدة مختلفة تماما عن أصلها، هي أعضاء البعوضة المجنحة، كما لو أن هذا الكائن العضوي هو في جملته حيوانان مختلفان خلق الثاني من الأنقاض البدنية المتخلفة عن الأول[٤٦] ".

فهل هناك ما هو أكثر إثارة للدهشة والعجب من أن يتحول اليسروع المكفن في فيلجة بيضاء من الحرير إلى بعوضة مجنحة تنطلق في الفضاء؟ إنه ليروق للإنسان أن

---

(٢) حياة الروح في ضوء العلم ص ٥٤.

يتصور أرواح الشهداء هكذا وقد انطلقت من أجسامهم حتى تتعلق بأطيار الجنة.

إننا لا نستطيع أن نجزم بعدم وجود أرواح، بـل نحـن نجزم بوجودها، ولكننا لا نستطيع أن نعرف عنها المعرفـة المحددة التي تتشهاها الطلعة الإنسانية. أو يرتضـيها العلـم ومقاييسه، وكما قلنا، فإنه لم يكن من هذا بـد.. لأن الـروح تظل من أمر ا ، ويظل علمنا مهما كثر.. قلـيلاً أمامهـا.. وعلينا أن نقنع بالمبدأ العام الرئيسي الذي يمكن.. لولا التعنت والتمحك.. أن تتلاقى عليه العقلانية والإسلام. وهـو خلـود الأرواح – ولكن دون معرفة دقيقة لحالها..

وقد يقنعنا في هذه الحياة الدنيا أن ما كنا نحبه في مـن فقدناهم من أم أو زوجة أو ابن أو أب، وما كان يذكرنا بهـم ويأخذ بألبابنا من حركة وسكنة، ونغمة في الصوت وومضة في العين "ولازمة" عند القول أو العمل، بل حتـى ملامـح الوجه واتساق الأعضاء.. إلـخ إن هـذه أصـلها صـفات والصفات لا تموت بموت أعزائنا.. ويمكن أن نحتفظ بحبنـا لها، ويمكن أن نتلمسها في آخرين – كنوع من الإحياء لها –

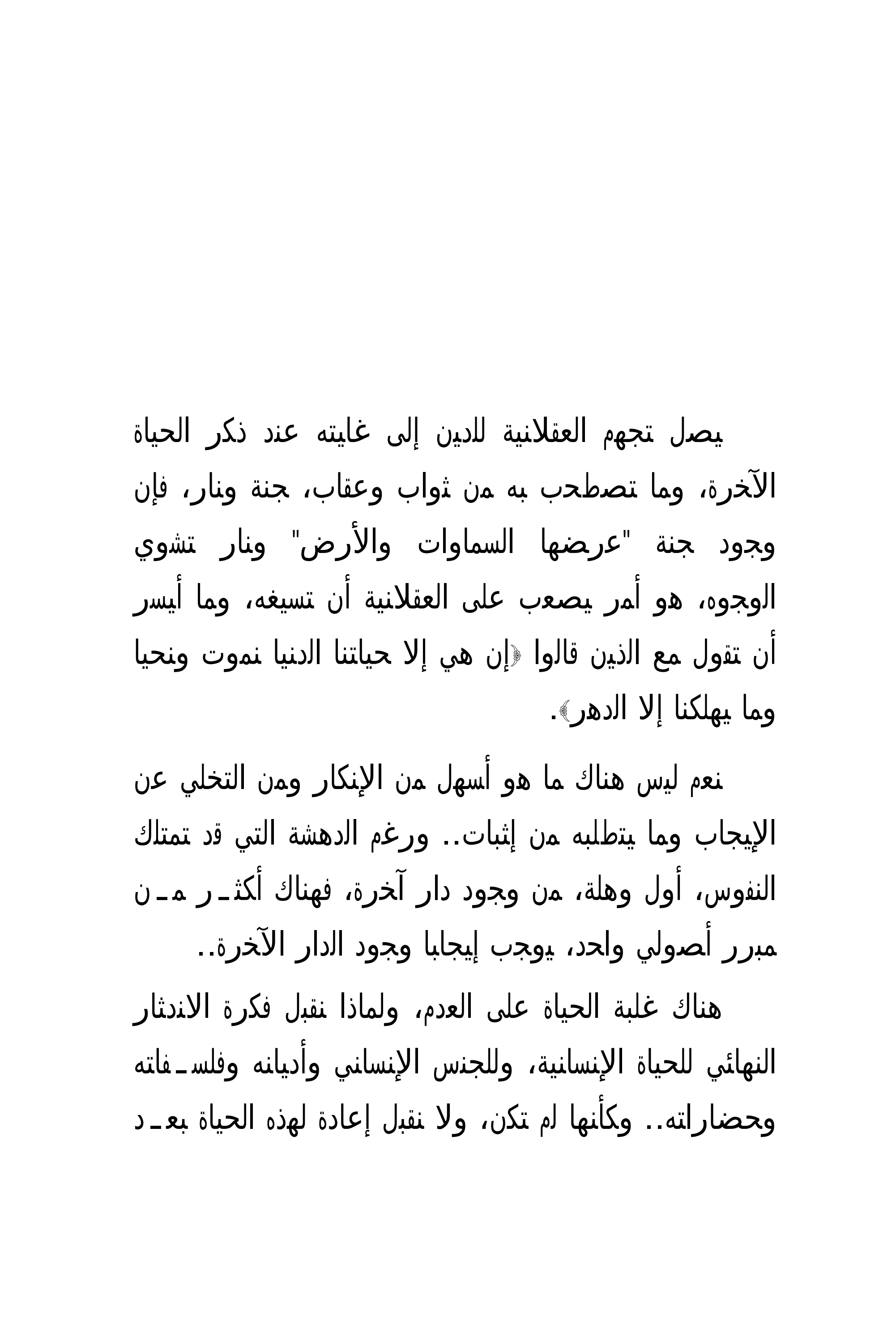
ويمكن أن يكون حبنا لهذه الصفات معبرا مـا بـين الحيـاة والموت.

قال أحد الكتاب :

"كان لأمي تأثير كبير جدا في حياتي، فقد كنت أحبها: أحب كل ملامح وجهها، وأنغام صوتها، ولمحات عينيها، ثم انتبهت ذات يوم إلى أن ما كنت أراه فيها ليس هو ذاتيتها، وأن صفاتها الحقيقية هو ما فيها من حب وعطف ورحمة، وهذه الصفات ليست ما يرى بالعين".

الفصل الثالث

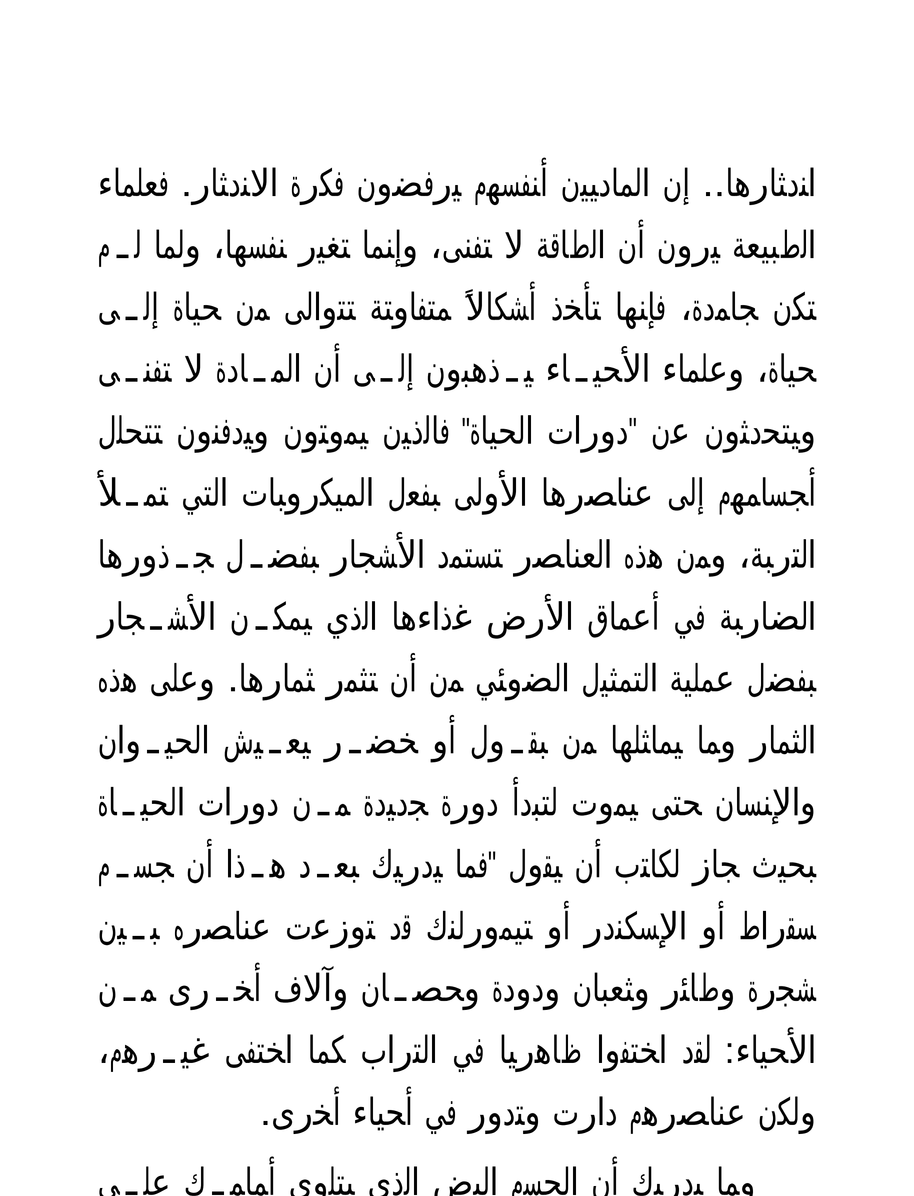
الدار الآخرة



يصل تجهم العقلانية للدين إلى غايته عند ذكر الحياة الآخرة، وما تصطحب به من ثواب وعقاب، جنة ونار، فإن وجود جنة "عرضها السماوات والأرض" ونار تشوي الوجوه، هو أمر يصعب على العقلانية أن تسيغه، وما أيسر أن تقول مع الذين قالوا ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾.

نعم ليس هناك ما هو أسهل من الإنكار ومن التخلي عن الإيجاب وما يتطلبه من إثبات.. ورغم الدهشة التي قد تمتلك النفوس، أول وهلة، من وجود دار آخرة، فهناك أكثـر مـن مبرر أصولي واحد، يوجب إيجابا وجود الدار الآخرة..

هناك غلبة الحياة على العدم، ولماذا نقبل فكرة الاندثار النهائي للحياة الإنسانية، وللجنس الإنساني وأديانه وفلسـفاته وحضاراته.. وكأنها لم تكن، ولا نقبل إعادة لهذه الحياة بعـد



اندثارها.. إن الماديين أنفسهم يرفضون فكرة الاندثار. فعلماء الطبيعة يرون أن الطاقة لا تفنى، وإنما تغير نفسها، ولما لم تكن جامدة، فإنها تأخذ أشكالاً متفاوتة تتوالى من حياة إلى حياة، وعلماء الأحياء يذهبون إلى أن المادة لا تفنى ويتحدثون عن "دورات الحياة" فالذين يموتون ويدفنون تتحال أجسامهم إلى عناصرها الأولى بفعل الميكروبات التي تملأ التربة، ومن هذه العناصر تستمد الأشجار بفضل جذورها الضاربة في أعماق الأرض غذاءها الذي يمكن الأشجار بفضل عملية التمثيل الضوئي من أن تثمر ثمارها. وعلى هذه الثمار وما يماثلها من بقول أو خضر يعيش الحيوان والإنسان حتى يموت لتبدأ دورة جديدة من دورات الحياة بحيث جاز لكاتب أن يقول "فما يدريك بعد هذا أن جسم سقراط أو الإسكندر أو تيمورلنك قد توزعت عناصره بين شجرة وطائر وثعبان ودودة وحصان وآلاف أخرى من الأحياء: لقد اختفوا ظاهريا في التراب كما اختفى غيرهم، ولكن عناصرهم دارت وتدور في أحياء أخرى.

وما يدريك أن الجسم البض الذي يتلوى أمامك على خشبة المسرح راقصا رقصات تثير الإعجاب، ما يدريك أن

عناصره كانت من قبل موزعة بين جراثيم وأميبيا وخنـافس وسحال وثعابين وديدان وخنازير وكلاب وغير ذلـك. وقـد تظنون أنني أقصد بهذا تناسخ الأرواح، ولكن ما هذا قصدت، بل أعني تلك العجلة الضخمة التي تـدور بعناصـر الأرض وبأحيائها، فتحيل التراب حياة والحياة ترابا[٤٧]".

فهذا نمط من "البعث" بالتعبير القرآني في صورة مادية وإذا كان ا تعالى قد وضع سننًا تجري بها هذه الدورات في صورة متكررة آلية غير محسوسة، وتحمل مع هذا صـورة من صور الإعجاز والخلق، فما هي الغرابة في أن ينشئ ا نشأة أخرى يوم تبدل السماوات غير السـماوات والأرض.. عندما يحدث عارض يودي بالكرة الأرضية أو يـؤدي إلـى فناء الجنس البشري عليها..

أما كيف يبعث ا تعالى العظام وهي رميم فهو السؤال الذي ردده المشركون في القديم، ويردده الماديون في الحديث، وقد رد عليه القرآن ردا منطقيا ﴿ وضرب لَنَا مثَلاً

---

[١] دورات الحياة للدكتور عبد المحسن صالح – المكتبة الثقافية يناير ١٩٦٣ – ص ٥٠.

ونَسِي خَلْقَه قَالَ من يحيِي الْعِظَام وهِي رمِيم* قُلْ يحيِيها الذِي أَنْشَأَها أَولَ مرةٍ وهو بِكُل خَلْقٍ علِيم﴾ (٧٨ يس)

﴿ وهو الذِي يبدأُ الْخَلْقَ ثُم يعِيده وهو أَهون علَيهِ ولَه الْمثَلُ الأعلَى فِي السماواتِ والأَرضِ وهو الْعزِيز الْحكِيم﴾ (٢٧ الروم)

* * *

وليس الإسلام وحده هو الذي يقول هذا الكلام، إن اليهودية والمسيحية تذهب إليه أيضا وبنفس الألفاظ تقريبا "فالقيامة" – وهو التعبير المسيحي للدار الآخرة لدى المسلمين – موضوع مقرر، ومقدس، وليس هناك ما هو أكثر تأثيرا ولمسا للنفس من عبارة "رقد على رجاء القيامة" التي نراها على شواهد قبور المسيحيين، أو نقرأها في صفحات الوفيات.

جاء في كتاب الخلود للدكتور سيد عويس:

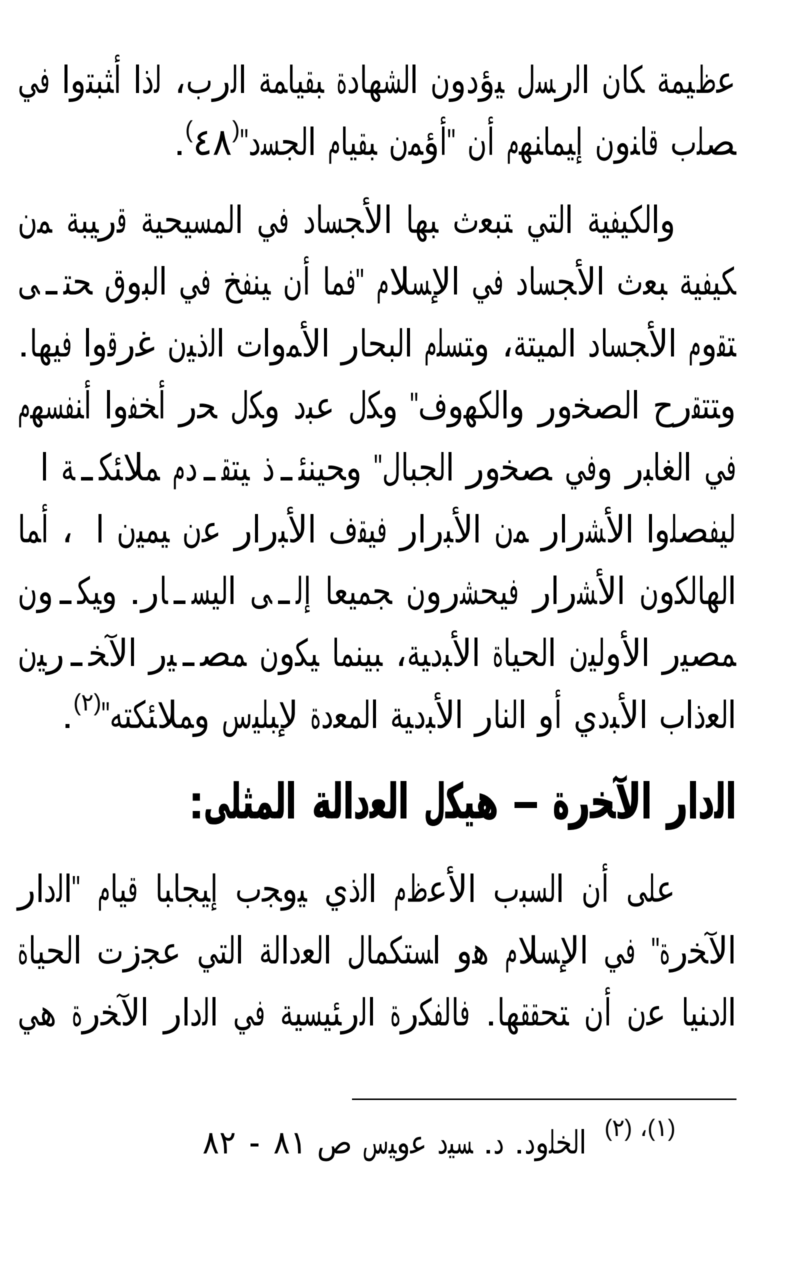
وقد وجه العهد القديم النظر إلى القيامة. فقد جـاء فيـه "تحيا أمواتك تقوم الجثث استيقظوا ترنموا يا سكان التـراب (إكو ١٥ – ١٣ – ٢٤) وكثير من الراقـدين فـي تـراب

الأرض يستيقظ هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العـار للازدراء الأبدي. والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والـذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور"، ولمـا لـم يؤمن اليهود بهذا، وقالوا إن عظامنا قد صارت أرضا وفنيت "هاهم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا. فقـد انقطعنـا، كانت الإجابة على ذلك.. قل لهم هكذا: قال السـيد الـرب: هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي وآتي بكـم إلى أرض إسرائيل. فتعلمون أني أنا الرب عند فتحي قبوركم وإصعادي إياكم من قبوركم يا شعبي وأجعل روحـي فـيكم فتحيون وأجعلكم في أرضكم فتعلمون أني أنا الرب تكلمـت وأفعل" (حز ٣٧ : ١٢ – ١٤).

وقد أكثر كتبة العهد الجديد من ذكر القيامـة المجيـدة للأجساد إيذانا بمركزها العظـيم بـين المبـادئ المسـيحية وتعظيما لفوائدها. حيث وردت كلمة "قيامة" مـع مشـتقاتها نحوا من مائة وإحدى وعشرين مرة. منها إحدى وعشـرون تختص بالقيامة الوقتية، والمائة بالقيامة الأخيرة. هـذا عـدا مترادفاتها كالحياة وغيرها ومستلزماتها كالدينونة ونحوها.

وكان الرسل الأماجد في خطـبهم العامـة والخاصـة، يجتهدون في أن يجلوا موضوع القيامة مقررين إياه بوضوح، كما أثبت ذلك "لوقا الإنجيلي" في سفر الأعمال. ففي خطابات "بطرس" الخمسة، قرر هذه الحقيقة عشـر مـرات، وفـي خطابات "بولس" الستة، ذكرها في خمسة منها عشر مـرات أيضا، كما أن خطاباته التي ألقاها ولم يسجل نصها، كانـت مرتكزة عليها. منها خطبه الثلاث التي ألقاهـا فـي مجمـع تسالونيكي، كانت تعلن بوضوح هذه الحقيقة، "فدخل بـولس إليهم (مجمع اليهود) حسب عادته وكان يحاجهم ثلاثة سبوت من الكتب – موضحا ومبينًا أنه كان ينبغي أن المسيح يتـألم ويقوم من الأموات (١ ع ١٧ : ٢ – ٣) ، وكان موضـوع بشراه في أثينا، نفس هذا الحق "يبشرهم بيسوع والقيامـة (١ ع ١٧ :١٨). ومن فحوى خطابه الخاص لـ "فيلكس" نـرى أنه لم يغفل عن الإلمام إلى هذه الحقيقـة بطريـق الكنايـة "الدينونة العتيدة" (١ ع ٢٤ :٣٥).

وما ذلك إلا لكون الرسل اعتبروا أن القيامة هي الموضوع الجوهري، الذي شعروا بمسئوليتهم نحوه بالشهادة الصريحة في كل حين بمنتهى الشجاعة والتضحية: "وبقوة



عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيامة الرب، لذا أثبتوا في صلب قانون إيمانهم أن "أؤمن بقيام الجسد"(٤٨).

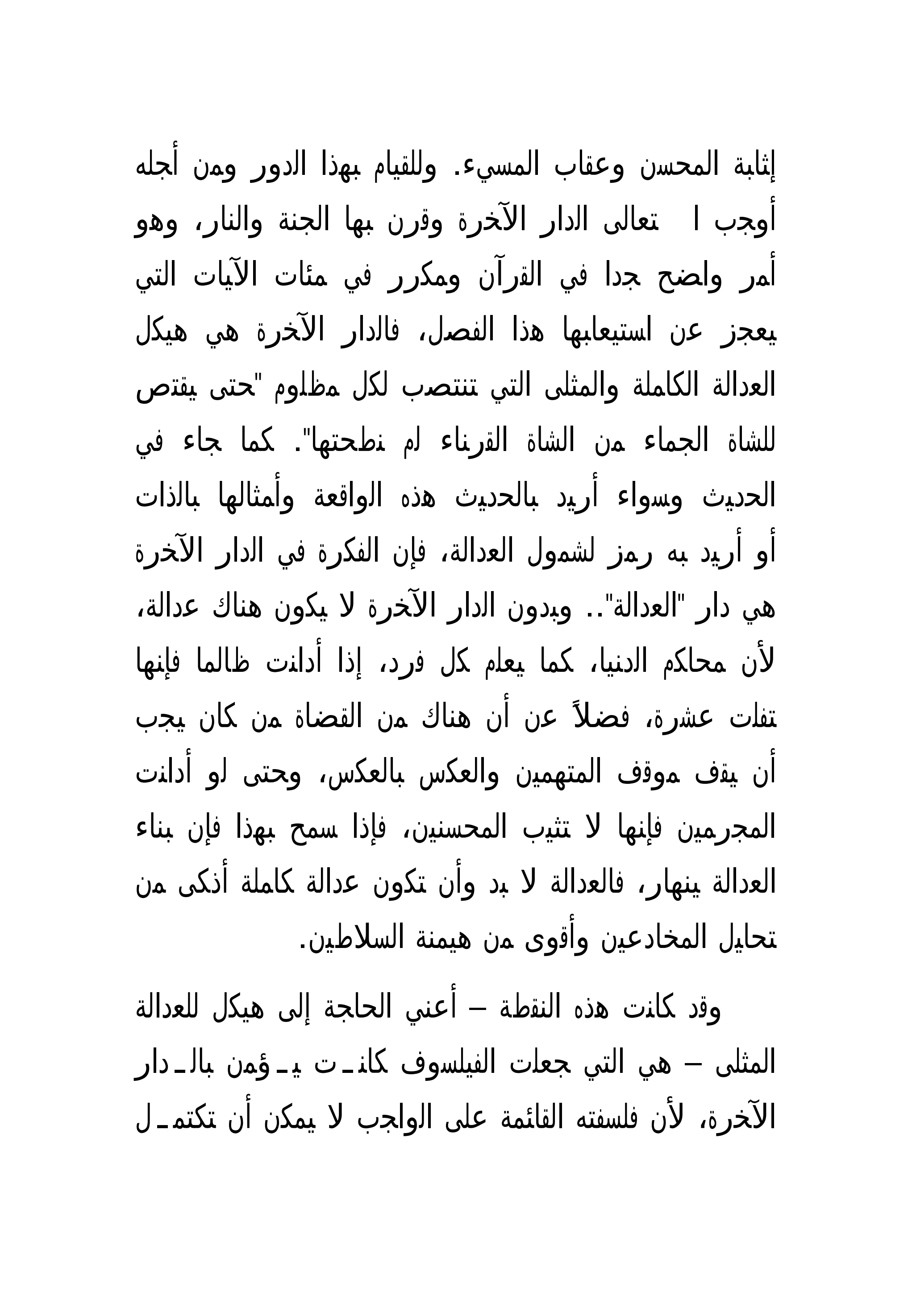
والكيفية التي تبعث بها الأجساد في المسيحية قريبة من كيفية بعث الأجساد في الإسلام "فما أن ينفخ في البوق حتـى تقوم الأجساد الميتة، وتسلم البحار الأموات الذين غرقوا فيها. وتتقرح الصخور والكهوف" وكل عبد وكل حر أخفوا أنفسهم في المغابر وفي صخور الجبال" وحينئـذ يتقـدم ملائكـة ا ليفصلوا الأشرار من الأبرار فيقف الأبرار عن يمين ا ، أما الهالكون الأشرار فيحشرون جميعا إلـى اليسـار. ويكـون مصير الأولين الحياة الأبدية، بينما يكون مصـير الآخـرين العذاب الأبدي أو النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته"[٢].

الدار الآخرة – هيكل العدالة المثلى:

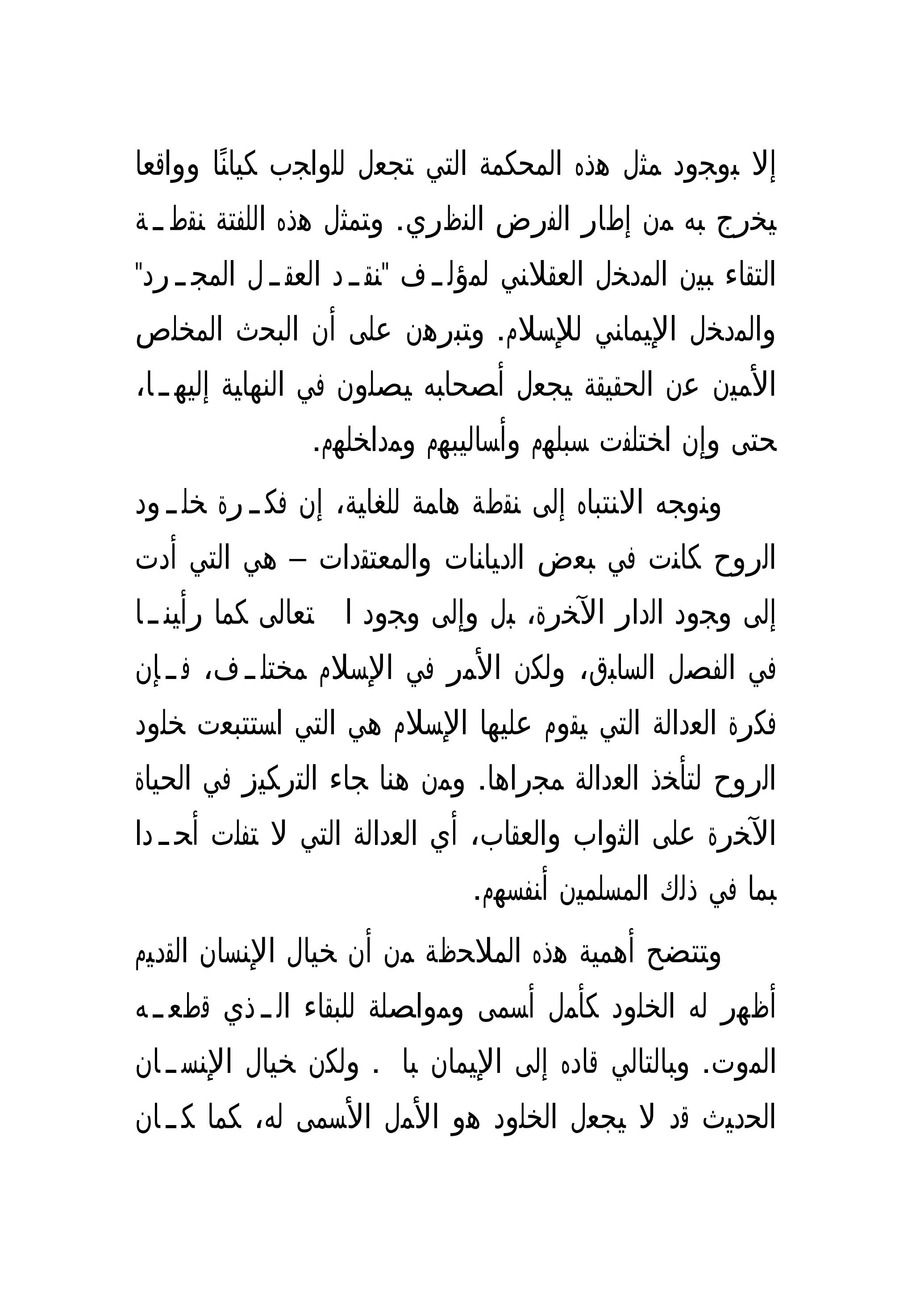
على أن السبب الأعظم الذي يوجب إيجابا قيام "الدار الآخرة" في الإسلام هو استكمال العدالة التي عجزت الحياة الدنيا عن أن تحققها. فالفكرة الرئيسية في الدار الآخرة هي

---

[١]، [٢] الخلود. د. سيد عويس ص ٨١ - ٨٢


إثابة المحسن وعقاب المسيء. وللقيام بهذا الدور ومن أجله أوجب ا تعالى الدار الآخرة وقرن بها الجنة والنار، وهو أمر واضح جدا في القرآن ومكرر في مئات الآيات التي يعجز عن استيعابها هذا الفصل، فالدار الآخرة هي هيكل العدالة الكاملة والمثلى التي تنتصب لكل مظلوم "حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء لم نطحتها". كما جاء في الحديث وسواء أريد بالحديث هذه الواقعة وأمثالها بالذات أو أريد به رمز لشمول العدالة، فإن الفكرة في الدار الآخرة هي دار "العدالة".. وبدون الدار الآخرة لا يكون هناك عدالة، لأن محاكم الدنيا، كما يعلم كل فرد، إذا أدانت ظالما فإنها تفلت عشرة، فضلاً عن أن هناك من القضاة من كان يجب أن يقف موقف المتهمين والعكس بالعكس، وحتى لو أدانت المجرمين فإنها لا تثيب المحسنين، فإذا سمح بهذا فإن بناء العدالة ينهار، فالعدالة لا بد وأن تكون عدالة كاملة أذكى من تحايل المخادعين وأقوى من هيمنة السلاطين.

وقد كانت هذه النقطة – أعني الحاجة إلى هيكل للعدالة المثلى – هي التي جعلت الفيلسوف كانـت يـؤمن بالـدار الآخرة، لأن فلسفته القائمة على الواجب لا يمكن أن تكتمـل



إلا بوجود مثل هذه المحكمة التي تجعل للواجب كيانًا وواقعا يخرج به من إطار الفرض النظري. وتمثل هذه اللفتة نقطـة التقاء بين المدخل العقلاني لمؤلـف "نقـد العقـل المجـرد" والمدخل الإيماني للإسلام. وتبرهن على أن البحث المخاص الأمين عن الحقيقة يجعل أصحابه يصلون في النهاية إليهـا، حتى وإن اختلفت سبلهم وأساليبهم ومداخلهم.

ونوجه الانتباه إلى نقطة هامة للغاية، إن فكـرة خلـود الروح كانت في بعض الديانات والمعتقدات – هي التي أدت إلى وجود الدار الآخرة، بل وإلى وجود ا تعالى كما رأينـا في الفصل السابق، ولكن الأمر في الإسلام مختلـف، فـإن فكرة العدالة التي يقوم عليها الإسلام هي التي استتبعت خلود الروح لتأخذ العدالة مجراها. ومن هنا جاء التركيز في الحياة الآخرة على الثواب والعقاب، أي العدالة التي لا تفلت أحـدا بما في ذلك المسلمين أنفسهم.

وتتضح أهمية هذه الملاحظة من أن خيال الإنسان القديم أظهر له الخلود كأمل أسمى ومواصلة للبقاء الـذي قطعـه الموت. وبالتالي قاده إلى الإيمان با . ولكن خيال الإنسـان الحديث قد لا يجعل الخلود هو الأمل الأسمى له، كما كـان

بالنسبة للإنسان القديم(٤٩) ومن ثم لا يكون هناك مبرر لأن تأخذ الدار الآخرة الصورة الصارمة التي أخذتها في الإسلام، بل لقد يفضل الكثيرون ألا توجد أصلاً، لأن الخـوف مـن عذاب النار قد يفوق الأمل في نعيم الجنة.

والعدالة في حقيقتها تعني الحق، فهـي الحـق مطبقـًا، والحق هو الأسـاس لكـل شـيء، وللأديـان وللسـماوات والأرض، بل هو أعظم، هو اسم من أسماء ا تعالى، وهو رمز تعالى. واقرأ إذا شئت:

﴿ثم ردوا إلى ا مولاهم الحق ألا له الحكم﴾

(٦٢ الأنعام)

﴿ فتعالى ا الملك الحق﴾ (١١٤ طه)

﴿ ذلك بأن ا هو الحق وأنه يحيي الموتى﴾ (٦ الحجر)

---

[١] أنظر ما جاء في كتاب "الخلود للدكتور سيد عويس" عن ملاحظة وليام أوسلام من أن أقلية من المحتضرين كانوا يرغبون في حماس في حياة بعد الموت. وأن أقلية أخرى كانوا يأملون في الفناء النهائي، أما الأغلبية من هؤلاء الأشخاص فقد كانوا غير مكترثين ص ٥٨.

﴿ ذلك بأن ا هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾

(٣٠ لقمان)

﴿ ألم تر أن ا خلق السماوات والأرض بالحق﴾

(١٩ إبراهيم)

﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾

(٨٥ الحجر)

وقد يتشدق البعض.. هذا فرض.. وليس دليلاً ، ونحن نقول إن كل الحقائق تبدأ بفروض وتنتهي بالحقائق والوقائع. وهذا هو العقل أما الحس فهو يعجز عن الوصول إلى الأدلة، وجدير بالعقلانيين أن يؤمنوا بما يوجبه العقل. لا الحس، وإذا وصلت السفسطة بنا إلى إنكار "الحق" و "العدل" وما يوجبانه فلا فائدة.

وليس يصح في الأفهام شيء

إذا احتاج النهار إلى دليل

والحقيقة التي لا يماري فيها أحد هي أن نظمنا الدنيوية عجزت عن تحقيق العدالة، وحتى عندما تدعي بعض الـ دول

أنها تطبق الشريعة فإما أنها لم تفهم الشريعة حق الفهم... أو أنها أساءت التطبيق بحيث أصبحت الدنيا دار ظلم أكثر مما هي دار عدل. فهناك الملايين الذين يكدون ويشقون ويعملون ليل نهار في صمت ولا ينالون ما يكفل لهم الحياة الكريمة أو يتيح لهم حظًا من الاستمتاع، فهم يعيشون ويموتون يلفهم الجحود والنكران، كجنود مجهولين في جيش جرار طواه الزمان، وفي مقابل ذلك يظفر الدهاة والمنافقون وأبناء الأغنياء وورثة الحكام بالذكر والشهرة ويتمتعون بكل طيبات الحياة. وقد يكون منهم من لم يعمل عملاً صالحا في حياته أو يحسن شيئًا، وقد يكون بينهم من يستحق السجن أو يكون قد ارتكب من الموبقات ما لو قطع إربا لما نال ما يستحق، ونجد الغادرين من الساسة.. والقتلة من العسكريين يتصدرون قوائم الشرف ويشغلون مناصب الرئاسة، وعندما يموتون يشيعون بمواكب مهيبة.. فإذا جاز أن يستمر هذا وأن يقف الأمر عنده لما كانت هناك عدالة، ولما كان هناك حق، ولكان كل هذا الوجود باطلاً..

وقد يقول قائل.. ولماذا سمح ا تعالى بكل هذه المظالم في الحياة الدنيا، وكان يمكنه تعالى أن يحول دونها بادئ

ذي بدء ولا يكون هناك حاجة لإستئناف. والذي يسأل هـذا السؤال هو كمن يسأل لماذا لم يجعل ا تعالى للناس عينًا في ظهورهم ليروا بها ما خلفهم أو يجعل بـدلاً مـن أقـدامهم المنبسطة دائرة كالعجلة.. إلخ هذه السفسطات والأسئلة التـي لا تقف عند حد. إن ا تعالى أوجد الحياة الدنيا تبعا لنواميس معينة، وجعلها اختيارا ومسرحا للفتنة من ناحية والإيمان من ناحية أخرى. ولم يجعل الإنسان ملاكًا ، وكان يمكنه ذلـك، فلا يخطئ ولا يذنب، وسلح كل واحد بالهداية كما سلط عليه الفتنة. وصورة الحياة الدنيا على ما فيها من نقص وقصـور أكثر روعة من حياة الملائكة الذين لا يفتنون ومـن ثـم لا يذنبون ولا يحاسبون، شرط أن يتم الإنصـاف فـي الحيـاة الأخرى حتى لا يكسب الظالمون مـن ظلمهـم، ولا يغمـط المحسنون إحسانهم.

الجنة والنـار:

إذن الحياة الآخرة في جوهرها "محكمة عدالة" لإثابة المحسن.. ولعقاب المسيء.

كيف يثاب الأول؟.. وكيف يعاقب الثاني؟

أوجد الإسلام جنة للأولين.. وجحيما للآخرين.

وعلى الذين يعجبون أو ينكرون أن يقولوا لنا ماذا كان يمكن أن يوجد للثواب والعقاب غير هذين؟

وقد لا يكون هناك اعتراض على إيجاد الجنة والنار، خاصة وأن الإسلام لم ينفرد بهما، فهما في معظم الأديان، وإن تميز الإسلام بتأكيدهما بصفة لا توجد في الأديان الأخرى باستثناء الديانة المصرية القديمة.

ففي المسيحية جنة ونار، وبالنسبة للجنة، استخدمت المسيحية التعبير الذي استخدمه الإسلام تقريبا " ما لم تر عين ولم تسمع أذن. ولم يخطر على بال إنسان ما أعده ا للذين يحبونه" (أكو ٢: ٩) وجعلت المتعة العظمى في الجنة الأنس بلقاء ا تعالى (كما في الإسلام) أما النار فهي نار حقيقية مستعرة – كالتنور – إلى الأبد.

وإنما يكون اعتراض المعترضين على ما اقترنت بـه الجنة والنار من صفات، ففي الجنة حور عين، ولحم طيـر، وأنهار من عسل ولبن وأساور من ذهب وإستبرق وفي النار جحيم ومهل يشوي الوجوه وسلسلة ذرعها سبعون ذراعـا..

إلخ، واعتراض المعترضين ينصب على "حسية" النعيم في الجنة و "وحشية" العذاب في النار..

وهي شبهات روج لها المستشرقون وأعداء الإسلام ولكنها قد تخطر لغيرهم من الذين لم يلموا بالأبعاد الكاملة لهذه القضية، فيحكمون عليها بالظواهر أو بما يتطرق إلى النفس أول وهلة، دون تحقيق فكر أو إنعام نظر..

والرد على هذه الشبهات متعدد الوجوه، وهو في النهاية يمحوها تماما.. ولا يدع لها أثرا..

فأول شيء.. إن علينا أن نفهم طبيعة الخطاب القرآني وهدفه..

فالقرآن الكريم ليس قصة لها بداية تبدأ منها.. ولها نهاية تنتهي بها ثم يسدل الستار عليها، وليس هو سردا لتاريخ أو إنباء بمعلومة.. لا يترك أثرا.. ولا هو مجرد إعلام ببعض الظواهر أو الوقائع، أو المبادئ.. إن القرآن كتاب هداية وموضوعه الإنسان وهدفه هو هداية هذا الإنسان، وهذه الهداية تتطلب عادة كفاحا وجهادا وقوة وعزيمة كي ينتقل الإنسان من عالم الضلالة إلى عالم

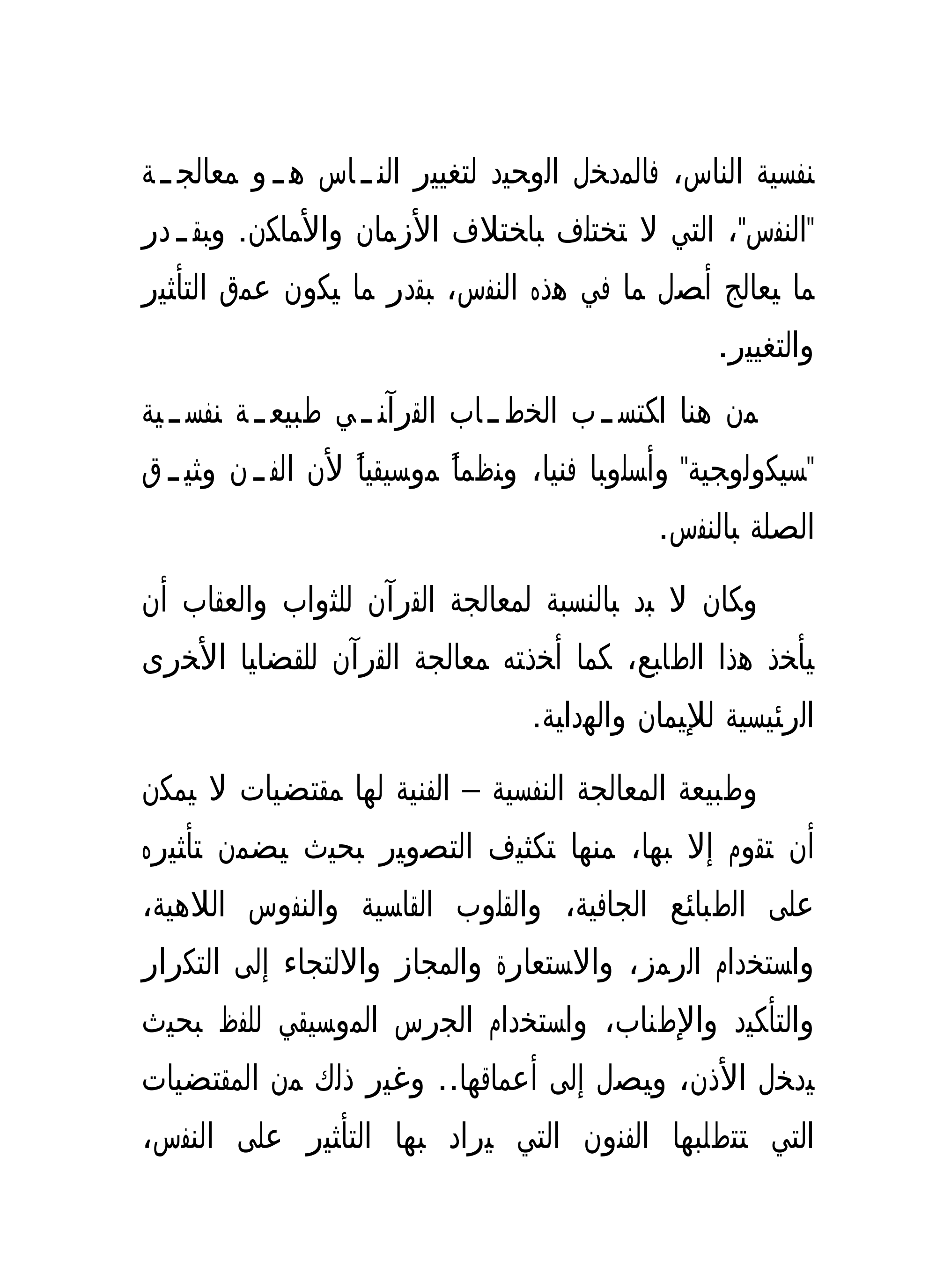
الهداية. خاصة إذا اقترن عالم الضلالة بالشهوات وبما تهوى الأنفس، وبما خلفه الآباء وما تقره الأوضاع القائمة بالفعل.

والإنسان هنا اسم جنس كما يقولون.. أي أن المقصود به الإنسان في كل زمان ومكان.

علينا أن نقدر مدى صعوبة المهمة التي تصدى لها القرآن والتي لا تماثلها فيما نعلم مهمة ثانية حتى بالنسبة للأديان الأخرى التي كانت مقصورة على أناس دون أناس، وعلى زمن دون زمن.

والقرآن كما هو معروف نظم لكلمات، ولا يملك قوة أخرى غير هذه الكلمات. فكان يجب أن تكون هذه الكلمات من القوة بحيث تصيب من الإنسان الموضع المؤثر والوتر الحساس، وبالتالي يمكن أن تغير وتحقق الهداية.

وهذا أمر لا يتأتى بسرد، أو بإعلام، أو بتقرير حقـائق علمية وحسابية، فلو جاء القرآن بأن ناتج ضرب ٢  ٢ هو ٤ ، أو أن أطول أضلاع المثلث أقصر من ضلعيه الآخـرين لما لمس هذا نفسية الناس. فلم يحدث أبدا أن قامت ثورة لمثل هذا الهدف، أو تحركت الجماهير لتحقيقه، أو غير شيئًا مـن

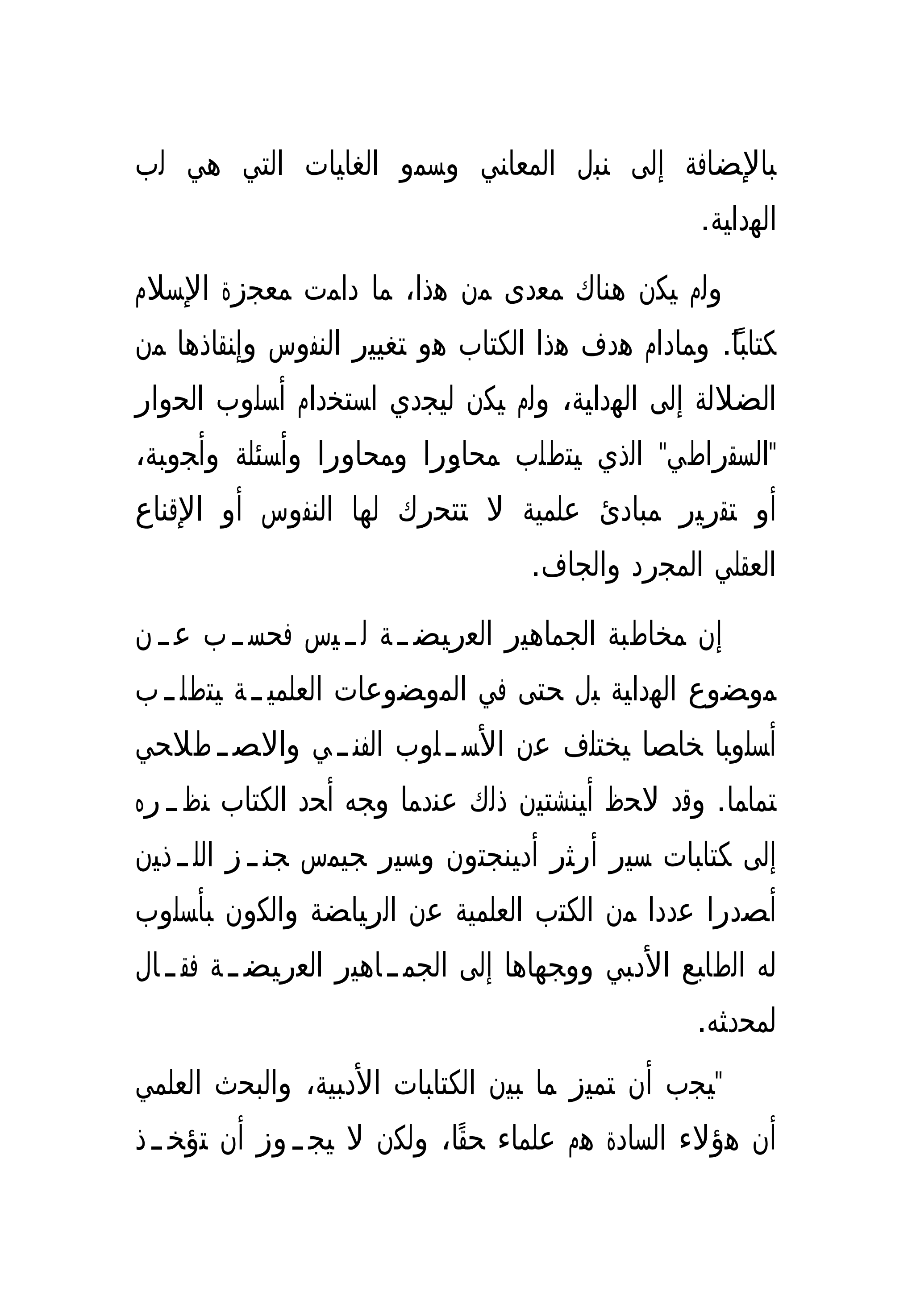


نفسية الناس، فالمدخل الوحيد لتغيير النـاس هـو معالجـة "النفس"، التي لا تختلف باختلاف الأزمان والأماكن. وبقـدر ما يعالج أصل ما في هذه النفس، بقدر ما يكون عمق التأثير والتغيير.

من هنا اكتسـب الخطـاب القرآنـي طبيعـة نفسـية "سيكولوجية" وأسلوبا فنيا، ونظماً موسيقياً لأن الفـن وثيـق الصلة بالنفس.

وكان لا بد بالنسبة لمعالجة القرآن للثواب والعقاب أن يأخذ هذا الطابع، كما أخذته معالجة القرآن للقضايا الأخرى الرئيسية للإيمان والهداية.

وطبيعة المعالجة النفسية – الفنية لها مقتضيات لا يمكن أن تقوم إلا بها، منها تكثيف التصوير بحيث يضمن تأثيره على الطبائع الجافية، والقلوب القاسية والنفوس اللاهية، واستخدام الرمز، والاستعارة والمجاز والالتجاء إلى التكرار والتأكيد والإطناب، واستخدام الجرس الموسيقي للفظ بحيث يدخل الأذن، ويصل إلى أعماقها.. وغير ذلك من المقتضيات التي تتطلبها الفنون التي يراد بها التأثير على النفس،


بالإضافة إلى نبل المعاني وسمو الغايات التي هي لب الهداية.

ولم يكن هناك معدى من هذا، ما دامت معجزة الإسلام كتاباً. ومادام هدف هذا الكتاب هو تغيير النفوس وإنقاذها من الضلالة إلى الهداية، ولم يكن ليجدي استخدام أسلوب الحوار "السقراطي" الذي يتطلب محاورا ومحاورا وأسئلة وأجوبة، أو تقرير مبادئ علمية لا تتحرك لها النفوس أو الإقناع العقلي المجرد والجاف.

إن مخاطبة الجماهير العريضـة لـيس فحسـب عـن موضوع الهداية بل حتى في الموضوعات العلميـة يتطلـب أسلوبا خاصا يختلف عن الأسـلوب الفنـي والاصـطلاحي تماما. وقد لاحظ أينشتين ذلك عندما وجه أحد الكتاب نظـره إلى كتابات سير أرثر أدينجتون وسير جيمس جنـز اللـذين أصدرا عددا من الكتب العلمية عن الرياضة والكون بأسلوب له الطابع الأدبي ووجهاها إلى الجمـاهير العريضـة فقـال لمحدثه.

"يجب أن تميز ما بين الكتابات الأدبية، والبحث العلمي أن هؤلاء السادة هم علماء حقًا، ولكن لا يجـوز أن تؤخـذ

تعبيراتهم الأدبية على أساس أنها تقرير علمي.. إنهـم فـي كتبهم "رومانتيكيون" وغير منطقيين، ولكنهم فـي أبحـاثهم يعملون بالمنطق العقلي الدقيق"[(١)].

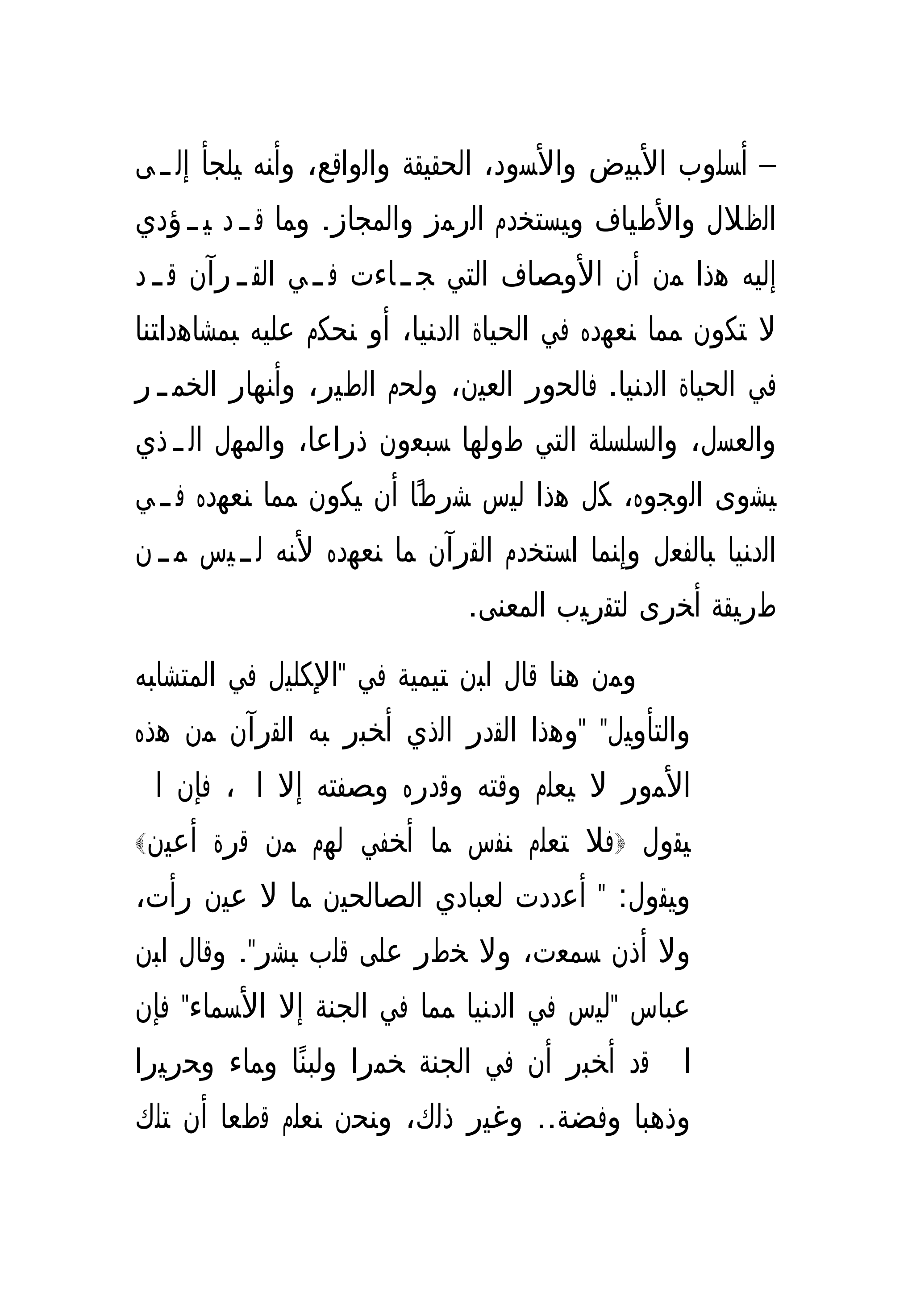
ومن غير المفهوم أن تمدح الفنون كالموسيقى والشـعر والقصة والرسم، وأن توضع في أعلى منجزات الإنسان، ثم تذم إذا استخدمها القرآن لهداية الناس.

ما نريد أن نصل إليه هو أنه لما كان هدف القرآن هـو الهداية، ولما كانت الهداية لا تتأتى بالصـورة الجماهيريـة ولكل الناس في كل العصور، إلا بالمعالجة السـيكولوجية – الفنية للطبيعة الإنسانية، ولما كانت الوسائل الأخرى – بمـا في ذلك الإقناع العقلي المجرد – تعجز عن ذلك. فقد تعـين على القرآن أن يستخدم هذا الأسلوب، وقد استخدمه ونجـح في الهدف – وهو الهداية، وخلق الإنسان خلقًا جديدا.

ولا يمكن محاسبة هذه الوسيلة – مادامت هي الوحيـدة التي تحقق الهداية. لأن أسلوبها يختلف عن الأسلوب العقلاني

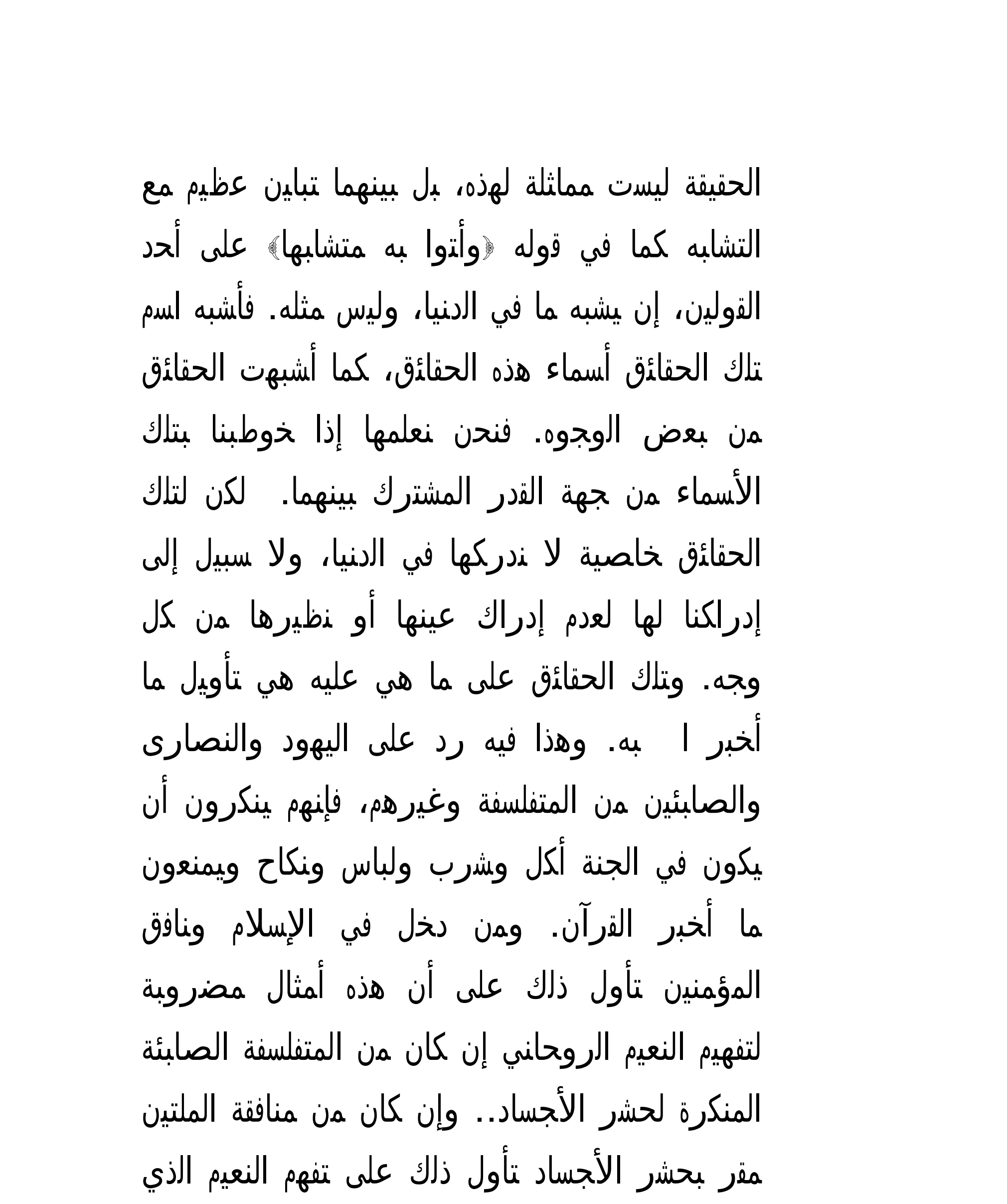
---

(١) دورات الحياة للدكتور عبد المحسن صالح – المكتبة الثقافية يناير ١٩٦٣ – ص ٥٠

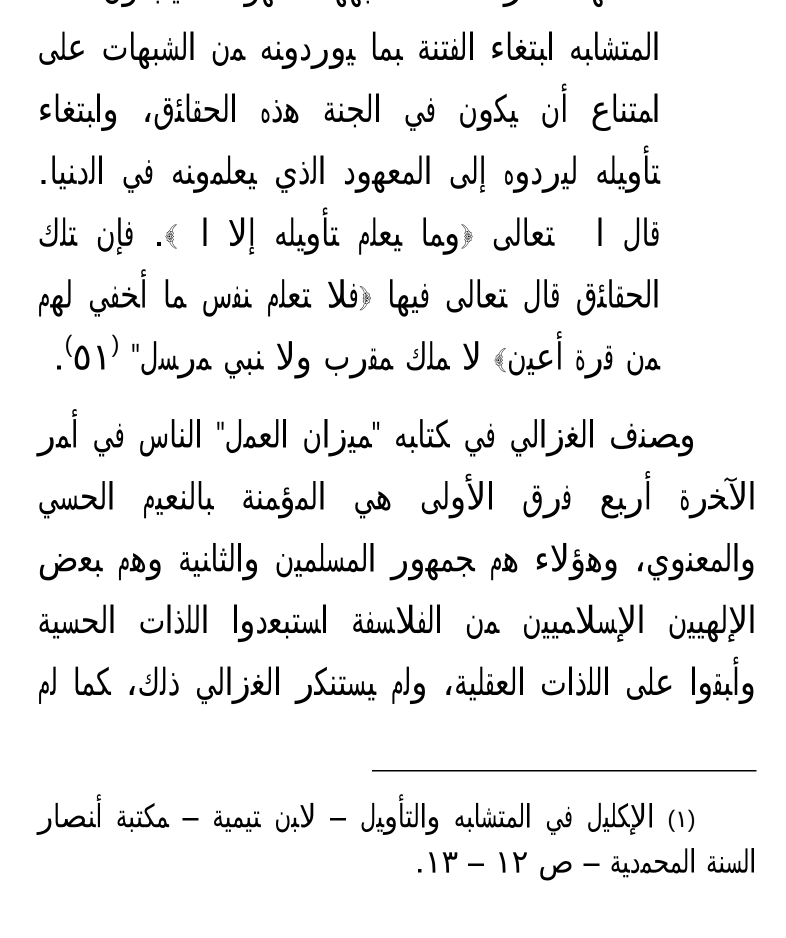


– أسلوب الأبيض والأسود، الحقيقة والواقع، وأنه يلجأ إلى الظلال والأطياف ويستخدم الرمز والمجاز. ومما قد يؤدي إليه هذا من أن الأوصاف التي جاءت في القرآن قد لا تكون مما نعهده في الحياة الدنيا، أو نحكم عليه بمشاهداتنا في الحياة الدنيا. فالحور العين، ولحم الطير، وأنهار الخمر والعسل، والسلسلة التي طولها سبعون ذراعا، والمهل الذي يشوى الوجوه، كل هذا ليس شرطًا أن يكون مما نعهده في الدنيا بالفعل وإنما استخدم القرآن ما نعهده لأنه ليس من طريقة أخرى لتقريب المعنى.

ومن هنا قال ابن تيمية في "الإكليل في المتشابه والتأويل" "وهذا القدر الذي أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدره وصفته إلا ا ، فإن ا يقول ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ ويقول: " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر". وقال ابن عباس "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء" فإن ا قد أخبر أن في الجنة خمرا ولبنًا وماء وحريرا وذهبا وفضة.. وغير ذلك، ونحن نعلم قطعا أن تلك



الحقيقة ليست مماثلة لهذه، بل بينهما تباين عظيم مع التشابه كما في قوله ﴿وأتوا به متشابها﴾ على أحد القولين، إن يشبه ما في الدنيا، وليس مثله. فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق، كما أشبهت الحقائق من بعض الوجوه. فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما. لكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها في الدنيا، ولا سبيل إلى إدراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه. وتلك الحقائق على ما هي عليه هي تأويل ما أخبر ا به. وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم، فإنهم ينكرون أن يكون في الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ويمنعون ما أخبر القرآن. ومن دخل في الإسلام ونافق المؤمنين تأول ذلك على أن هذه أمثال مضروبة لتفهيم النعيم الروحاني إن كان من المتفلسفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد.. وإن كان من منافقة الملتين مقر بحشر الأجساد تأول ذلك على تفهم النعيم الذي في الجنة من الروحاني والسماع الطيب والروائح



العطرة كل ضال يحرف الكلم عن مواضعه إلى ما اعتقد ثبوته. وكان في هذا متبعا للمتشابه، إذ الأسماء تشبه الأسماء والمسميات تشبه المسميات. ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها، فهؤلاء يتبعون هذا المتشابه ابتغاء الفتنة بما يوردونه من الشبهات على امتناع أن يكون في الجنة هذه الحقائق، وابتغاء تأويله ليردوه إلى المعهود الذي يعلمونه في الدنيا. قال ا تعالى ﴿وما يعلم تأويله إلا ا ﴾. فإن تلك الحقائق قال تعالى فيها ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل" (٥١).

وصنف الغزالي في كتابه "ميزان العمل" الناس في أمر الآخرة أربع فرق الأولى هي المؤمنة بالنعيم الحسي والمعنوي، وهؤلاء هم جمهور المسلمين والثانية وهم بعض الإلهيين الإسلاميين من الفلاسفة استبعدوا اللذات الحسية وأبقوا على اللذات العقلية، ولم يستنكر الغزالي ذلك، كما لم

---

(١) الإكليل في المتشابه والتأويل – لابن تيمية – مكتبة أنصار السنة المحمدية – ص ١٢ – ١٣.

ير فيه ما يؤدي إلى فتور الطلب. والثالثة رأت أن استخدام القرآن لصور النعيم المألوفة في الدنيا هو من باب التشبيه والتقريب لعدم استطاعة إدراك نعيم الجنة حقًا فمثله القرآن بما في الدنيا، ولم يستنكر الغزالي ذلك أيضا، بل روى ما يقوله بعض مشايخ الصوفية "من يعبد ا لطلب الجنة أو للحذر من النار فهو لئيم وإنما مطلب القاصدين إلى ا أشرف من هذا، ومن رأى مشايخهم وبحث عن معتقداتهم وتصفح كتب المصنفين منهم فهم هذا الاعتقاد من مجاري أحوالهم على القطع"[52] والفرقة الرابعة وهي الوحيدة التي استنكرها، بل ونبذها هي التي لا تؤمن ببعث أو نشور، وترى أن الإنسان يرجع إلى العدم بعد موته كما كان قبل وجوده" [53].

وفيما نرى، فإن الناس أمام نعيم الجنة وعذاب النار أنماط ثلاثة.

---

(١) ميزان العمل للغزالي طبعة محمد علي صبيح سنة ٦٣ ص٦.

(٢) ميزان العمل للغزالي طبعة محمد علي صبيح سنة ٦٣ ص٦.

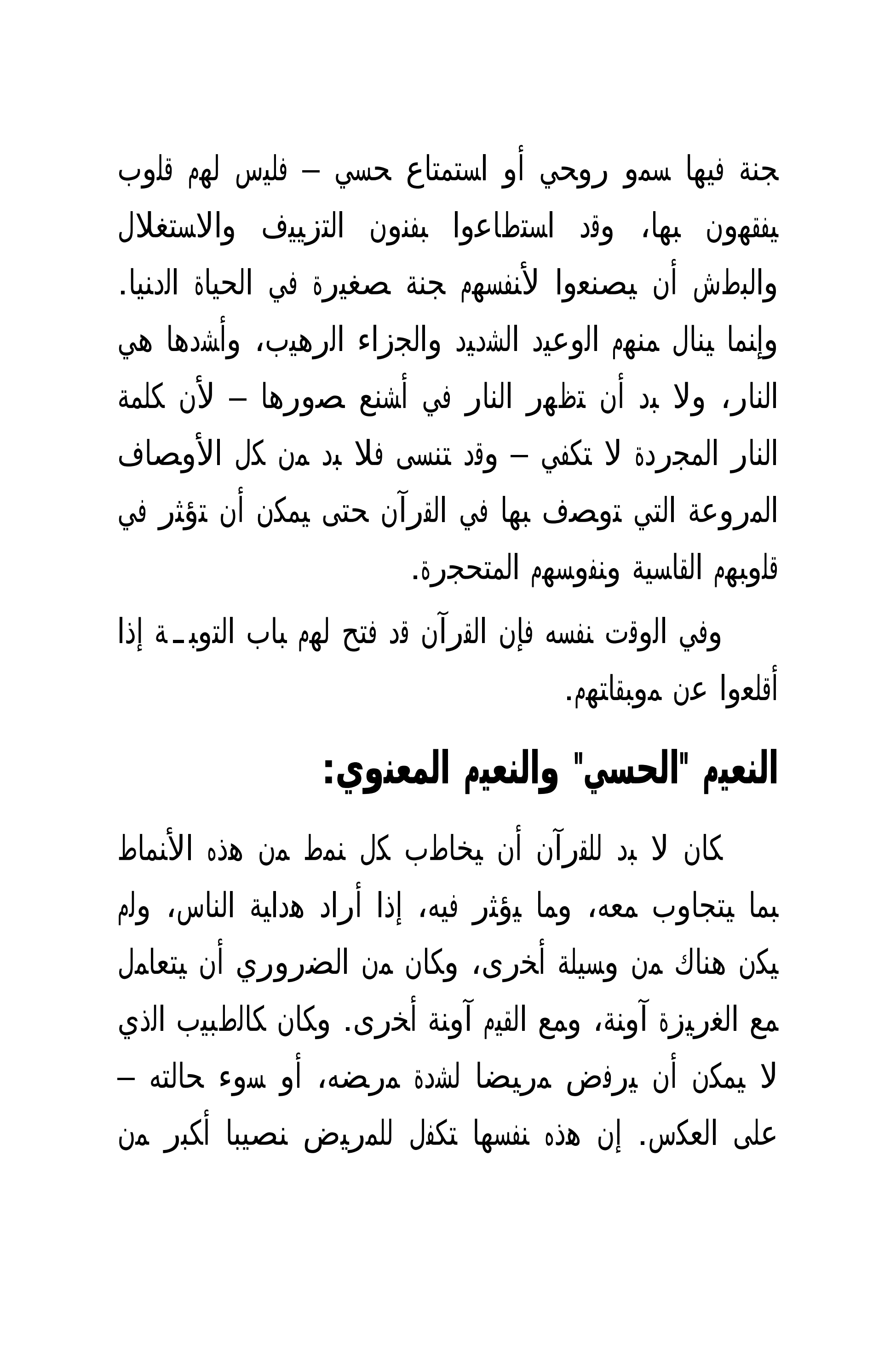
النمط الأول: الذين صفت مداركهم ورقت حواسهم، وصحت طبيعتهم ووصلوا إلى درجة كبيرة من الفهم، وسواء كان ذلك بحكم ملكاتهم الفائقة أو وضعهم الثقافي المميز. وهؤلاء يتجاوبون مع ما جاء به القرآن من أن الجنة هي رحمة ا "ففي رحمة ا هم فيها خالدون" و "تحيتهم فيها سلام" و "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة"، وهذه الإشارات تلمس المعاني التي تملك نفوسهم وتتجاوب مع مشاعرهم، وفيها ما يرضيهم ويقنعهم، وليسوا هم بحاجة إلى حوافز المتاع الحسي.. أو كوابح العذاب البدني..

ومن الواضح بالطبع أن هؤلاء أقلية نادرة في المجتمع البشري، ومثلهم مثل علي بن أبي طالب ورابعة العدوية وكبار الواصلين الذين يعبدون ا إيمانًا وحبا لا رغبة في جنة ولا خوفًا من نار.

النمط الثاني: جمهور الناس وأغلبيتهم الكاسحة، الذين يكدحون طول حياتهم، ولا تدع لهم ضرورات العمل ومطالب المعيشة الملحة فراغًا للفكر أو مجالاً للاستمتاع، وحياتهم رحلة شقاء وحرمان، وأملهم الأسمى هو أن تتاح لهم فرصة الاستمتاع بما حرموا منه والراحة مما شقوا به..

والجنة بالنسبة لهم هي الملاذ الذي يكفل لهم طيبات تماثل طيبات الحياة الدنيا التي حرموها. ومن هنا فإن الشيء الوحيد الذي يلمس نفوسهم هو ما جاء بالقرآن من إشارات إلى السندس والإستبرق والحور العين وأنهار العسل والخمر حتى وإن كانت حقيقتها غير ما هي في الدنيا.. مما لا يعلمه (ملك مقرب أو نبي مرسل) بتعبير ابن تيمية.

النمط الثالث: الذين تضافرت عليهم ظروف معينة بحيث جعلتهم ذوي طبيعة عدوانية أنانية شريرة، فطباعهم جافية، وقلوبهم قاسية، وقد تحكمت فيهم الأنانية فلم يروا إلا أنفسهم، فعملوا كل حياتهم للوصول إلى أعلى المناصب بالنفاق والخداع والكذب والتزييف والاستغلال، ومنهم الذين يشبعون نزعاتهم الشريرة ونفوسهم المريضة بإذلال الناس وتعذيبهم، ومنهم أكابر المجرمين من رجال السياسة والحروب وأصحاب الأعمال "وأبطال الإمبراطوريات".. إلخ.. الذين سفكوا الدماء وحكموا بالحديد والنار، وحرموا شعوبهم الحرية والعزة.. وجعلوا بلادهم سجنًا كبيرا وتفننوا في التعذيب هم وأتباعهم – من وزراء الداخلية.. حتى أصغر جندي اشترك معهم.. إلخ.. وهؤلاء لا ينفع فيهم حديث عن

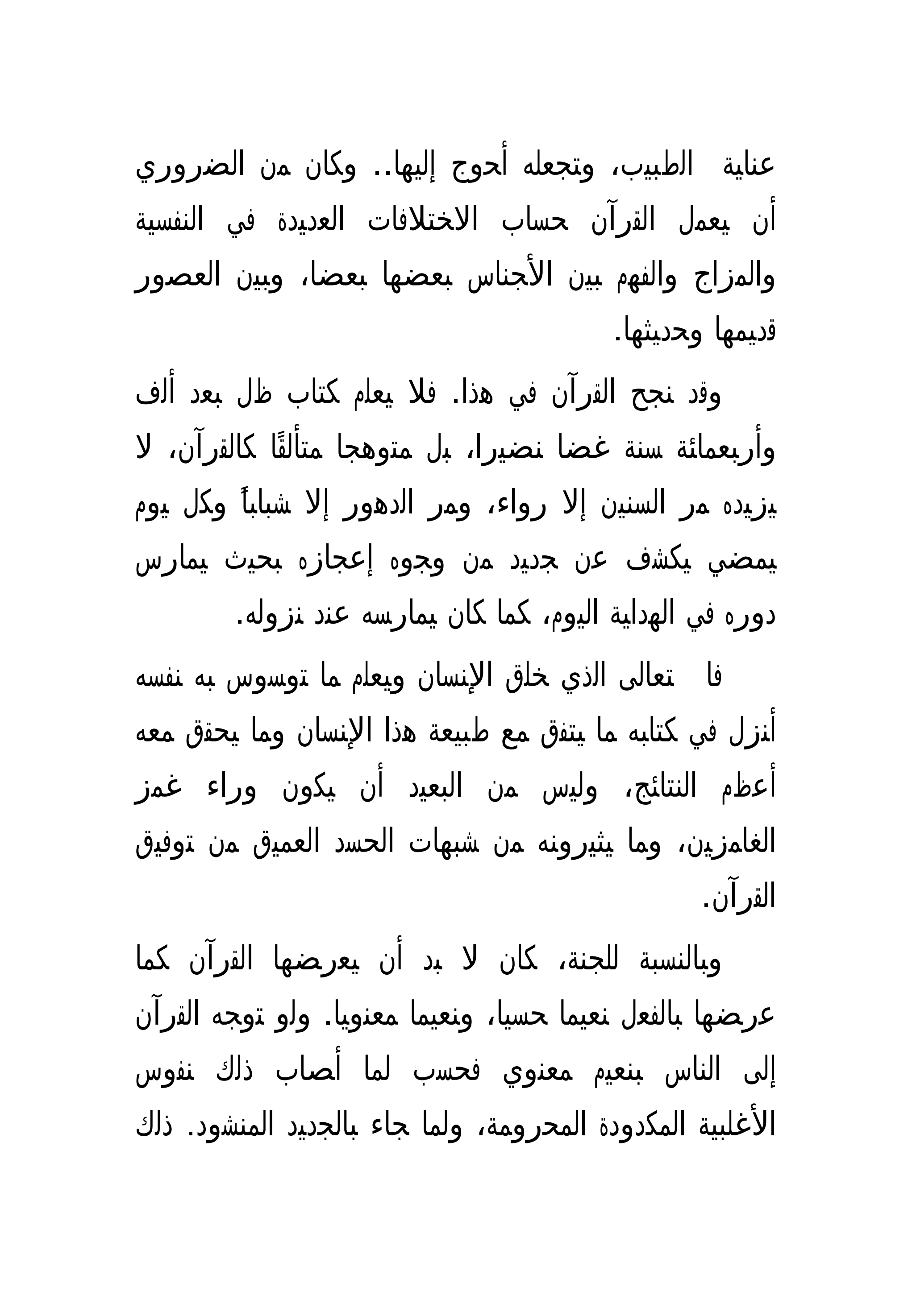


جنة فيها سمو روحي أو استمتاع حسي – فليس لهم قلوب يفقهون بها، وقد استطاعوا بفنون التزييف والاستغلال والبطش أن يصنعوا لأنفسهم جنة صغيرة في الحياة الدنيا. وإنما ينال منهم الوعيد الشديد والجزاء الرهيب، وأشدها هي النار، ولا بد أن تظهر النار في أشنع صورها – لأن كلمة النار المجردة لا تكفي – وقد تنسى فلا بد من كل الأوصاف المروعة التي توصف بها في القرآن حتى يمكن أن تؤثر في قلوبهم القاسية ونفوسهم المتحجرة.

وفي الوقت نفسه فإن القرآن قد فتح لهم باب التوبـة إذا أقلعوا عن موبقاتهم.

النعيم "الحسي" والنعيم المعنوي:

كان لا بد للقرآن أن يخاطب كل نمط من هذه الأنماط بما يتجاوب معه، وما يؤثر فيه، إذا أراد هداية الناس، ولم يكن هناك من وسيلة أخرى، وكان من الضروري أن يتعامل مع الغريزة آونة، ومع القيم آونة أخرى. وكان كالطبيب الذي لا يمكن أن يرفض مريضا لشدة مرضه، أو سوء حالته – على العكس. إن هذه نفسها تكفل للمريض نصيبا أكبر من



عناية الطبيب، وتجعله أحوج إليها.. وكان من الضروري أن يعمل القرآن حساب الاختلافات العديدة في النفسية والمزاج والفهم بين الأجناس بعضها بعضا، وبين العصور قديمها وحديثها.

وقد نجح القرآن في هذا. فلا يعلم كتاب ظل بعد ألف وأربعمائة سنة غضا نضيرا، بل متوهجا متألقًا كالقرآن، لا يزيده مر السنين إلا رواء، ومر الدهور إلا شباباً وكل يوم يمضي يكشف عن جديد من وجوه إعجازه بحيث يمارس دوره في الهداية اليوم، كما كان يمارسه عند نزوله.

فا تعالى الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه أنزل في كتابه ما يتفق مع طبيعة هذا الإنسان وما يحقق معه أعظم النتائج، وليس من البعيد أن يكون وراء غمز الغامزين، وما يثيرونه من شبهات الحسد العميق من توفيق القرآن.

وبالنسبة للجنة، كان لا بد أن يعرضها القرآن كما عرضها بالفعل نعيما حسيا، ونعيما معنويا. ولو توجه القرآن إلى الناس بنعيم معنوي فحسب لما أصاب ذلك نفوس الأغلبية المكدودة المحرومة، ولما جاء بالجديد المنشود. ذلك

أن فرص الاستمتاع النفسية والروحية والمعنوية، أصبحت في هذا العصر متاحة للجميع تقريبا بفضل التقدم في وسائل الإعلام، فيمكن للجميع الاستماع إلى ألحان موزار وسيمفونيات بيتهوفن.. ورؤية لوحات روبنز وفان جوخ ورافائيل إلخ.. ورؤية أو شهود الأوبرا التي لم يكن يشهدها إلا النبلاء. ومشاهد الجمال الطبيعي مبذولة دوما للجميع، وقد أصبحت السياحة متاحة لأوساط الناس، وأهم من هذا كله أن أسمى وسيلة للاستمتاع الأدبي والتذوق الفني هي قراءة القرآن والاستماع إلى جرسه ونغمه، وما فيها من اتساق وموسيقى، وتدبر معانيه الرائعة وتشبيهاته الرائقة.. وهذا كله متاح لكل الناس دون حاجة إلى جنة في الآخرة.

ولو كان الاستمتاع الروحي والنفسي كافيا، لعكف كبار الفلاسفة والكتاب والمفكرين والفنانين على فنونهم، وهي من النسق الأعلى، وهم سادتها، ولما ضعف كثير منهم أمام المرأة الجميلة، وخضعوا لها فنجد نيتشه يستجدي رضاء يهودية لعوب ومكسيم جوركي يتقرب إلى ممثلة ترفضه، ونابليون تخدعه زوجته الأولى فيحب امرأة لا تَفْضل الإوزة السمينة.. وأوجست كونت يتوله في حب امرأة معلقة اختفى

زوجها من حياتها، ولما ضحى الزعيم الألماني "لاسال" بحياته في سبيل المرأة التي أحبها.. ولما فقد بارنل وبولانجيه [1] مستقبلهما السياسي لعلاقاتهما النسائية، ولما ضحى إدوارد الثامن بعرش الإمبراطورية البريطانية للاحتفاظ بمطلقة جميلة.. وغير هؤلاء كثيرون.

إننا لسنا مثل منافقي العهد الفيكتوري، ولا يخجلنا أن نقول إننا نسعد بالمتع الحسية، وأن الاستمتاع بالجمال هو من أعظم صور الاستمتاع، وأن أروع صور الجمال تأثيرا هي ما جسدته القدرة الإلهية في الجسم الإنساني، وأن أعمق صور التعاطف هي ما يجمع الرجل بالمرأة. إن كل الفنون من أقدم الآباد حتى الآن تدور حول الحب، الذي لا يكون حبا إلا عندما تمتزج فيه العاطفة بالغريزة، فإذا كان فيها ما يشين المجتمع، فلماذا جعلها محور الثقافة والآداب ونبع فنون التمثيل والسينما والموسيقى والشعر.. إلخ.

---

(١) بارنل سياسي أيرلندي، وبولانجيه سياسي فرنسي وصل كلاهما إلى قمة الشهرة، ولكنهما خسراها لتورطهما في علاقات نسائية.

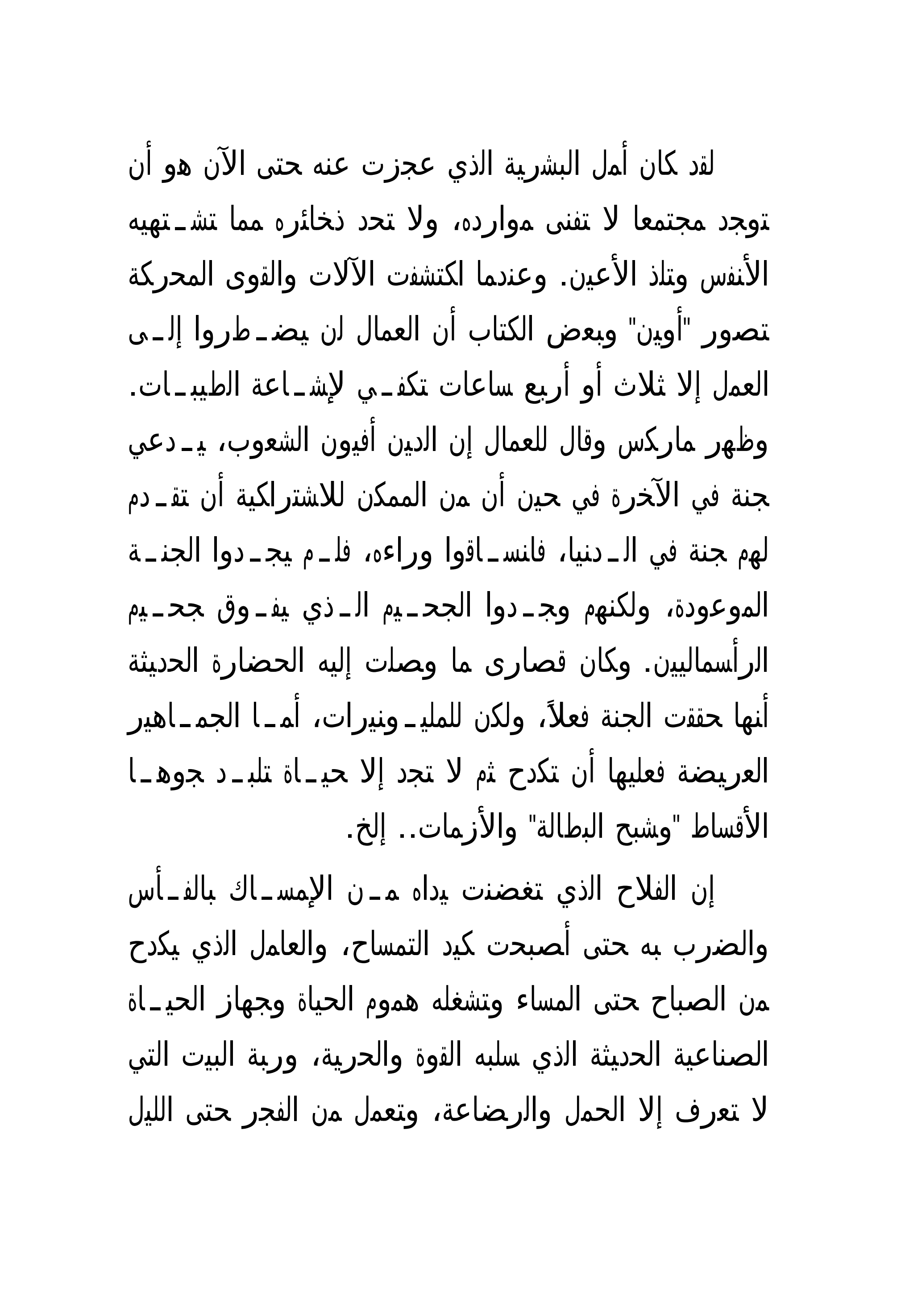
إن مسلك الأوربيين والأمـريكيين وادعـاءاتهم تثيـر العجب فهم يتهمون المسلمين "بالشهوانية" في حين أن حياتهم كلها تدور حول الشهوة والجنس، وهـم يتسـافدون تسـافد الحيوانات وتبدأ الحياة الجنسية من المراهقة حتى السـبعين، وتجد المرأة الأمريكية في السبعين متأنقة تمـارس "الحـب" وتسعى لقضاء وقت طيب!! ولكل زوجة عشيق، ولكل زوج عشيقة(٥٥)...

إن العلاقة بين الرجل والمرأة اكتنفتها في الحياة الدنيا مخاطر عضوية لم تجعلها صفوا دائما. وقد انتفت هذه المخاطر في الجنة، فالمرأة في جنة الإسلام مبرأة من كل ما فرضته الضرورات البيولوجية عليها في الحياة الدنيا، فهل يؤخذ على الإسلام أنه يبرز صورة "محسنة" للمرأة في الجنة، وهذا هو أمل الفنانين والمثالين، والمرأة نفسها؟

وماذا عن الطيبات الحسية الأخرى.. لحم طير، فاكهة، أنهار من عسل مصفى.. إلخ.

---

(١) قد لا ينطبق هذا على الجميع، أو قد لا يحدث بصفة دائمة ولكنه واقع واقع..



لقد كان أمل البشرية الذي عجزت عنه حتى الآن هو أن توجد مجتمعا لا تفنى موارده، ولا تحد ذخائره مما تشـتهيه الأنفس وتلذ الأعين. وعندما اكتشفت الآلات والقوى المحركة تصور "أوين" وبعض الكتاب أن العمال لن يضـطروا إلـى العمل إلا ثلاث أو أربع ساعات تكفـي لإشـاعة الطيبـات. وظهر ماركس وقال للعمال إن الدين أفيون الشعوب، يـدعي جنة في الآخرة في حين أن من الممكن للاشتراكية أن تقـدم لهم جنة في الـدنيا، فانسـاقوا وراءه، فلـم يجـدوا الجنـة الموعودة، ولكنهم وجـدوا الجحـيم الـذي يفـوق جحـيم الرأسماليين. وكان قصارى ما وصلت إليه الحضارة الحديثة أنها حققت الجنة فعلاً، ولكن للمليـونيرات، أمـا الجمـاهير العريضة فعليها أن تكدح ثم لا تجد إلا حيـاة تلبـد جوهـا الأقساط "وشبح البطالة" والأزمات.. إلخ.

إن الفلاح الذي تغضنت يداه مـن الإمسـاك بالفـأس والضرب به حتى أصبحت كيد التمساح، والعامل الذي يكدح من الصباح حتى المساء وتشغله هموم الحياة وجهاز الحيـاة الصناعية الحديثة الذي سلبه القوة والحرية، وربة البيت التي لا تعرف إلا الحمل والرضاعة، وتعمل من الفجر حتى الليل

في الكنس والغسل والطهي ورعاية الأبناء وشئون البيـت.. إن هؤلاء جميعا يمضون حياتهم في عناء وشقاء ولا يكـون لهم ذرة أمل في استمتاع ما لم يدركهم ا برحمته فيوجد لهم جنة تعوضهم عن كل ما حرموا منه في الحياة الدنيا وتكافئهم عن عملهم وكفاحهم. فلماذا يعد هذا شيئًا شـاذًا أو غريبـا، وأصول العدالة توجبه، وقدرة ا لا تضـيق بـه.. أم أن " الكحكة في يد اليتيم عجبة " كما يقول المثل المصري.. وإن الجنة لا توجد إلا في الحياة الـدنيا، وإلا بالنسـبة للأغنيـاء والأثرياء و "سيدات الصالونات".

إن الحضارة الأوربية لا تخفي فخرها بإتاحة الطيبـات من الرزق الأكل – الشرب – الملبس – الاستمتاع المـادي والجنسي، لكل من يستطيع أن يدفع، فهل يلام الإسـلام لأن جنته تقدم كل هذا مجانًا. وللمستحقين.

ومع هذا..

فقد اتسع نعيم الجنة الحسي للذي يريد أن يشبع هوايته في الزرع، وإن كان الزرع من أروع ما تقدمه الجنة، ومن ثم فيمكن لذوي الهوايات أن يشبعوا هواياتهم الأخرى،

واقترن نعيمها الحسي والمادي بمتعة روحية يصغر أمامها كل المتع الأخرى، ألا وهي رؤية ا تعالى، هذا الأمل الذي تقطعت دونه أعناق الفلاسفة والمفكرين.. إن المؤمنين يسعدون به بصورة ما نعجز عن تكييفها، لأن ا تعالى "لا تدركه الأبصار" حتى وإن كانت نفوس المؤمنين شاخصة ووجوههم إليه ناظرة.. وحتى لو كان هناك حديث نبوي عن الرؤية "كرؤية القمر" وعلى كل حال فإننا لا نرى من القمر إلا نوره..

حقيقة التعذيب "الوحشي" في النار:

أوضحنا في الفقرات السابقة أن الطبيعة النفسية الفنية للخطاب القرآني المنبثقة من هدفه "وهو الهداية" اقتضت أن يبرز النار إبرازا رهيبا مروعا بحيث يؤثر على ذوي القلوب القاسية الذين أريدوا بهذا الإبراز، وبدون هذا ما كان يمكن أن يحقق الأثر المطلوب، وأن هذا هو سر التشبيهات والتصويرات المروعة.

وأوضحنا – كذلك – أن الخطاب النفسي/ الفني اقتضى أن ما تتضمنه من تصويرات قد لا تتفق مع مشـاهدنا فـي

الدنيا، وأن القرآن، كان لا بد وأن يستخدم هذه التصويرات لأنها الوحيدة التي نعلمها، ويمكن عبرها أن نتفهم المضمون شأنها في هذا شأن ما جاء عن الجنة أو مـا جـاء عـن ا تعالى..

وفي هذا وذاك ما يغير الصورة التي تبدو للوهلة الأولى – عن تعذيب رهيب في نار جهنم.

وبالإضافة إلى هذا، فيجب عند عرض هذه الصور من العذاب، والآيات عن الجحيم أن نعرض أيضا للآيات العديدة عن رحمة ا تعالى "وهو أرحم الراحمين" وأن رحمة ا تفوق بمراحل رحمة الإنسان.. وحسب القرآن أن كل آياته تتوج باسم ا "الرحمن الرحيم" وما من تأكيد للرحمة كهذا التأكيد، فضلاً عن أن الرسول ما أرسل "إلا رحمة للعالمين"، وأن الرسالة كلها "هدى ورحمة" ﴿أَو تَقُولُوا لَو أَنا أُنْزِلَ علَينَا الْكِتَاب لَكُنا أَهدى مِنْهم فَقَد جاءكُم بينَةٌ من ربكُم وهدى ورحمةٌ﴾ (١٥٧ الأنعام)

﴿ ولَقَد جِئْنَاهم بِكِتَـابٍ فَصلْنَاه علَى عِلْمٍ هـدى ورحمةً لقَومٍ يؤْمِنُون﴾ (٥١ الأنعام)

﴿ ونَزلْنَا علَيـك الْكِتَاب تِبيانًا لكُل شَيءٍ وهدى ورحمةً وبشْرى لِلْمسلِمِين﴾ (٨٩ النحل)

﴿ هذَا بصائِر مِن ربكُم وهدى ورحمةً لقَـومٍ يؤْمِنُـون﴾ (٢٠٣ الأنعام)

﴿ مِن بعدِ ما أَهلَكْنَا الْقُرون الْأُولَى بصائِر لِلناسِ وهدى ورحمةً لعلهم يتَذَكرون﴾ (١٣ القصص)

﴿ هدى ورحمة للمحسنين﴾ (٣ لقمان)

وكذلك

﴿ قُل لو أَنْتُم تَملِكُون خَـزائِن رحمةِ ربي إِذًا لأَمسـكْتُم خَشْيةَ الإِنْفَاقِ﴾ (١٠٠ الإسراء)

﴿ قُلْ يا عِبادِي الذِين أَسرفُوا علَى أَنْفُسِهِم لاَ تَقْنَطُوا مِن رحمةِ ا ِ إِن ا َ يغْفِر الذنُوب جمِيعا إِنه هو الْغَفُور الرحِيم﴾ (٥٣ الزمر)

﴿ قَالَ عذَابِي أُصِيب بِهِ من أَشَاء ورحمتِي وسِعتْ كُل شَيءٍ فَسأَكْتُبها لِلذِين يتقُون ويؤْتُون الزكَاةَ والذِين هم بِآياتِنَا يؤْمِنُون﴾ (١٥٦ الأعراف)

فضلاً عن الآيات التي وصفت ا تعالى بأنه غفور رحيم، ويضيق المجال عن ذكرها. والآيات التي حرم فيها الظلم على الناس تحريما شديدا، فكيف نظن با تعالى بعد ذلك أثارة من ظلم.. إن ا لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها.

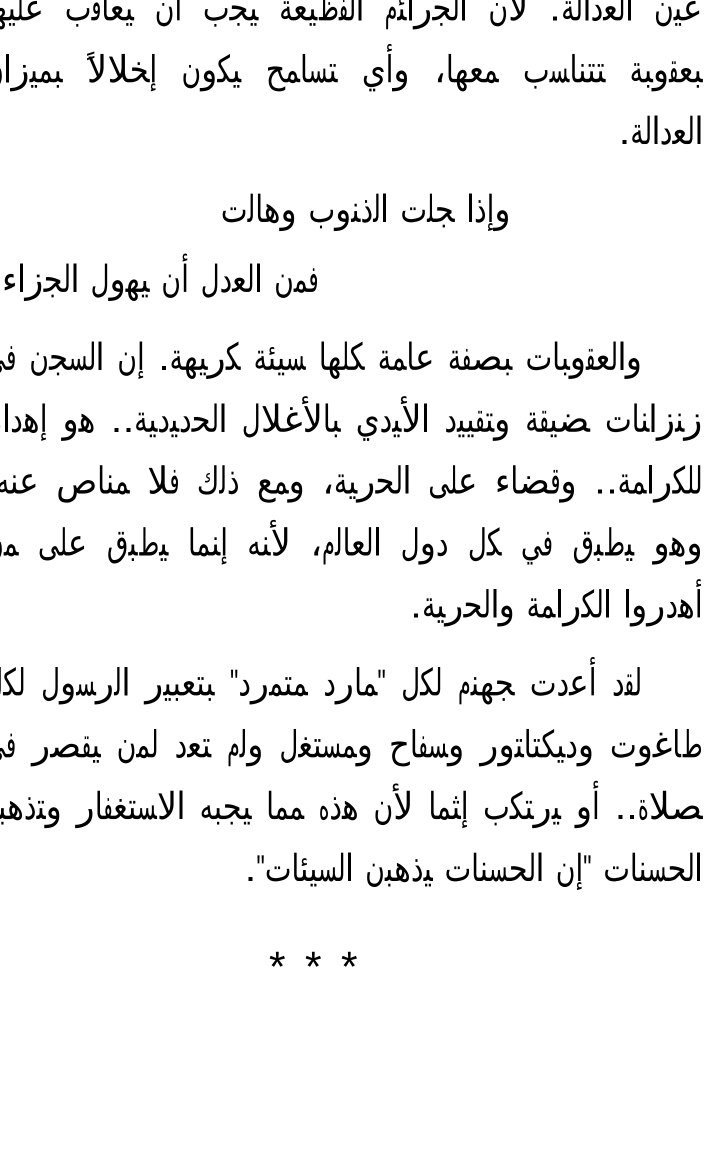
والحقيقة أنه ما دامت الدار الآخرة هي أصلاً هيكل عدالة، فالمفروض أن يستبعد بداهة أي ظلم، لأنها إنما قامت لاستبعاد الظلم، وتعويض المظلومين، فكيف نظن أن يرتكب فيها ظلم، أو أن يكون العلاج هو الداء نفسه.

وقد كنت أبحث عن مبرر العدالة في آية مثل ﴿ كُلما نَضِجتْ جلُودهم بدلْنَاهم جلُودا غَيرها لِيذُوقُوا الْعذَاب﴾ (٥٦ النساء) دون أن أهتدي إليه حتى تنبهت إلى ما اقترفه "أكابر المجرمين" من الذين حكموا البشرية من فراعنة مصر، حتى الآشوريين الذين أقاموا "أهرامات" من الجماجم، حتى فظائع الرومان، ثم فظائع التتار الذين كانوا يهلكون الحرث والنسل ولا يدعون طفلاً أو شيخًا أو رجلاً أو امرأة، ويتترسون بالأسرى ثم ما قامت به محاكم التفتيش من أساليب للتعذيب تقشعر الجلود لمجرد قراءته، وما قام به قادة الاستعمار من

استعباد للأفريقيين. ونهب وسلب أفريقيا وآسيا، حتى نأتي إلى عهد الديكتاتوريين في العصر الحديث وساسة أوربا الذين تسببوا في حربين عالميتين قتل وشوه فيهما ما يزيد على مائة مليون فرد، حتى نصل إلى حمزة البسيوني وأمثاله من زبانية التعذيب في سوريا والعراق ومختلف دول العالم الثالث.

إن كل واحد من الملوك والأمراء والقادة والساسة وأتباعهم الذين طبقوا أوامرهم الوحشية تسبب في قتل وتعذيب وتشويه عشرات الألوف. إنه لم يسرق رغيفًا أو يفجر بامرأة. ولكنه قتل وشوه شعوبا بأسرها ومارس أسوأ صور التعذيب من سمل عيون، وقلع أظافر، وإحراق على نار بطيئة، وكان أسفه الوحيد أن الموت ينقذ ضحاياه.

ماذا فعلت عدالة البشرية لهم؟ إنها لا تزال تمجدهم ومن حكمت عليه فإن أقصى ما لديها أن تقضي عليه بالموت فهل من العدالة أن يتساوى في العقوبة من قتل فردا ومن قتل مليونًا؟ إن عدالة البشرية لا تستطيع أن تقتل مجرما إلا مرة واحدة. وعدالة نار الآخرة وحدها هي التي يمكن أن تعاقبهم بمقدار جرائمهم.



إنها صورة مروعة، ولكنها عدالة، وفظاعتها هي نفسها عين العدالة. لأن الجرائم الفظيعة يجب أن يعاقب عليها بعقوبة تتناسب معها، وأي تسامح يكون إخلالاً بميزان العدالة.

وإذا جلت الذنوب وهالت

فمن العدل أن يهول الجزاء

والعقوبات بصفة عامة كلها سيئة كريهة. إن السجن في زنزانات ضيقة وتقييد الأيدي بالأغلال الحديدية.. هو إهدار للكرامة.. وقضاء على الحرية، ومع ذلك فلا مناص عنه، وهو يطبق في كل دول العالم، لأنه إنما يطبق على من أهدروا الكرامة والحرية.

لقد أعدت جهنم لكل "مارد متمرد" بتعبير الرسول لكل طاغوت وديكتاتور وسفاح ومستغل ولم تعد لمن يقصر في صلاة.. أو يرتكب إثما لأن هذه مما يجبه الاستغفار وتذهبه الحسنات "إن الحسنات يذهبن السيئات".

* * *

ومع هذا...

فإذا تعاظمتنا تلك الآيات التي تصف عذاب النار، فلا بد أن نضع جنبا إلى جنبها آيات العفو والمغفرة والرحمة، واستبعاد الظلم، لأن القرآن يكمل بعضه بعضا. فإذ حدث هذا لرجحت كفة الرحمة، حتى على كفة العدالة. لأن ا تعالى يحكم بالعدل أولاً، ثم يتلطف برحمته.. لتنقذ كل من في نفسه ذرة من الخير.

فإذا قيل ألم يكن من الأفضل إغفال تلك الآيات المروعة والأوصاف الرهيبة، فإننا نقول، كلا.. كان لا بـد أن تـرد، لأن هناك من لا يفهم إلا هذه اللغة ولا يتأثر إلا بها.

والقضية بعد ليست جديدة، كما يظن، فقد عرضها على النبى نفسه أولى الناس بالدفاع وأقربهم إلى الرحمة: أم. فقـد روي عن ابن عمر قال كنا مع النبي في بعض غزواته، فمر بقوم فقال" من القوم" قالوا نحن المسلمون، وامرأة تحضـب (أي توقد) بقدرها ومعها ابن لها فإذا ارتفع وهج تنحت بـه، فأتت النبي فقالت "أنت رسول ا "؟ قال "نعم" قالـت "بـأبي أنت وأمي أليس ا أرحم الراحمين" قال "بلى" قالت "إن الأم

لا تلقي ولدها في النار" فأكب رسول ا يبكي ثم رفع رأسه إليها وقال "إن ا لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد الذي يتمرد على ا وأبى أن يقول لا إله إلا ا ". رواه ابن ماجة [٥٦]. فهذا الحديث وإن كان يثبت النار، إلا أنه يوضـح أن فهم كثير من المسلمين عن هذا الموضوع لا يتفق مـع مـا قدمه الرسول، وما قصر به النار على المارد المتمرد.

والذين يثيرون قضية النار ومعظمهم من المستشـرقين والذين يغمزون الإسلام ينسون أن هذه النقطة أدت إلـى أن يستبعد التشريع الإسلامي من عقوباته الحرق بالنـار "فـلا يحرق بالنار إلا خالقها". فوجود النار في الـدار الآخـرة.. أبعدها من الحياة الدنيا، على نقيض ما حدث للمسيحية، فلما كانت الكنيسة تمقت الدماء، **"ecclisia abhorreta sanguine"** متأثرة بما قيل عن الدم المسفوح للمسيح عند صـلبه، فـإن العقوبة المقررة أصبحت الإحراق.. فكانت الكنيسـة تسـلم المـدان إلـى السـلطان المدنيـة لإعدامـه بشـرط

---

[١] كتاب مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد ا الخطيب التبريزي – المكتب الإسلامي بيروت تحقيق الألباني ج٢ ص ٧٣٥ .

ألا يسفك دمه! وكان معنى هذا الحرق. وهذا هو سـر تلـك المواكب الرهيبة التي سيق فيها المخالفون والملحدون زمـرا إلى المحرقة وأطلـق عليهـا مواكـب الإيمـان **auts de fe** واستمرت من سنة ١٤٨١ حتى سنة ١٨١٣ في إسبانيا.

وقد أثار موضوع عذاب النار في نفوس بعض الفقهاء القدامى ما يثيره في نفوس بعض المحدثين، فارتأى معظمهم أنه لن يخلد في النار أحد من المسلمين – وتضمنت بعض الأحاديث وصفًا لآخر من يخرج من النار ويدخل الجنة، فضلاً عن أحاديث عديدة عن إخراج مئات الألوف برحمة ا . وأهم من هذا ما ذهب إليه بعض المفسرين من فناء النار نفسها. وفي تفسير الآية ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم.. ﴾ قال الشيخ محمد مصطفى المراغي "الأول: السابق في الوجود على جميع الموجودات.

والآخر: الذي يبقى بعد فناء جميع الموجودات. أما أنـه أول بهذا المعنى فأمره ظاهر، لأنه واجب الوجود، وجـوده مقتضى بذاته، أو هو الوجود الحق وكل ما عداه فهو هالـك في ذاته يحتاج في وجوده إلى إشراق الوجود الحق. وأما أنه آخر بهذا المعنى فليس موضع اتفاق، وأكثر العلمـاء علـى

خلافه، فمن النـاس من ذهب إلى أن كل شيء يفنى ويبقـى الله وحده ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربـك ذو الجـلال والإكرام﴾، ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ والله تعـالى يوصـل الثواب إلى أهل الثواب، والعقاب إلى أهل العقاب، ثم تفنـى الجنة وأهلها، والنار وأهلها، والعرش والكرسـي، والملـك والفلك، ولا يبقى مع الله شيء أبدا، ولا يعيد بعد ذلك شـيئًا أبدا، وكما كان الله ولا شيء معه سيكون الله ولا شيء معـه أبد الآباد. وهذا المذهب، إن صح هو تفسير الآخـر. ومـن الناس من جرى على هذا الرأي وخالف في الإعادة، فقال إن الله بعد أن يفني كل شيء ويبقى وحده، وبذلك يكـون آخـر يعيد كل شيء مرة أخرى ويبقيها أبدا، وقالوا: مما لا شـبهة فيه إمكان بقاء العالم وهناك إجماع من المسلمين على أبديـة الجنة والنار، فالآخرية التي وصف بها الله نفسه لا تتحقق إلا بعد فناء الجميع وبقائه وحده جل وعلا. وأبدية الجنة والنـار مجمع عليها لا تتحقق إلا إذا أعيدت الجنة وأهلهـا، والنـار وأهلها، وبقي الكل بعد ذلك أبد الآباد"(٥٧).

---

(١) الشيخ محمد مصطفى المراغي – حديث رمضان–كتاب

وجاء في رسالة "العصمة من الضلال" للعلامة الجـلال "إن الموصل إلى النار هو الشرك لا غير، وقال الجمهور بل وغيره من المخالفات على اتفاق الجميع على جـواز العفـو عقلاً قيل وشرعا، كما صرح به قول إبراهيم عليـه السـلام "ومن عصاني فإنك أنت العزيز الحكيم" وقول عيسى عليـه السلام "... وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكـيم" وقـول سيدنا محمد "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"(58).

نقول إن هذه الفقرة التي يمر عليهـا سـراعا الفقهـاء تتضمن الكثير. إن ثلاثة من أولي العزم من الرسل يبتهلـون إلى ا تعالى العفو عن المخالفين لهم. فما أبعد ذلـك عـن أقوال الفقهاء وتأكيدهم، إن المشركين لا بد وأن يقذف بهم في النار. حقًا لقد جاء في القرآن آيات مثل ﴿إن ا لا يغفـر أن

==الهلال – دار الهلال – نوفمبر ١٩٧٠ – ص ١٥٨ – ١٥٩..

(٢) انظر هذه الرسالة وهي الثالثة في مجموعة الصنعاني الرسائل اليمنية المطبوعة بالقاهرة – دار الطباعة المنيرية ص – ٢١ – والجلال مؤلفها هو الإمام المجتهد الحسن بن أحمد الجلال الحسني اليمني المتوفى بجران صنعاء سنة ١٠٨٤ بتعليقات الإمام الشهير محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني.

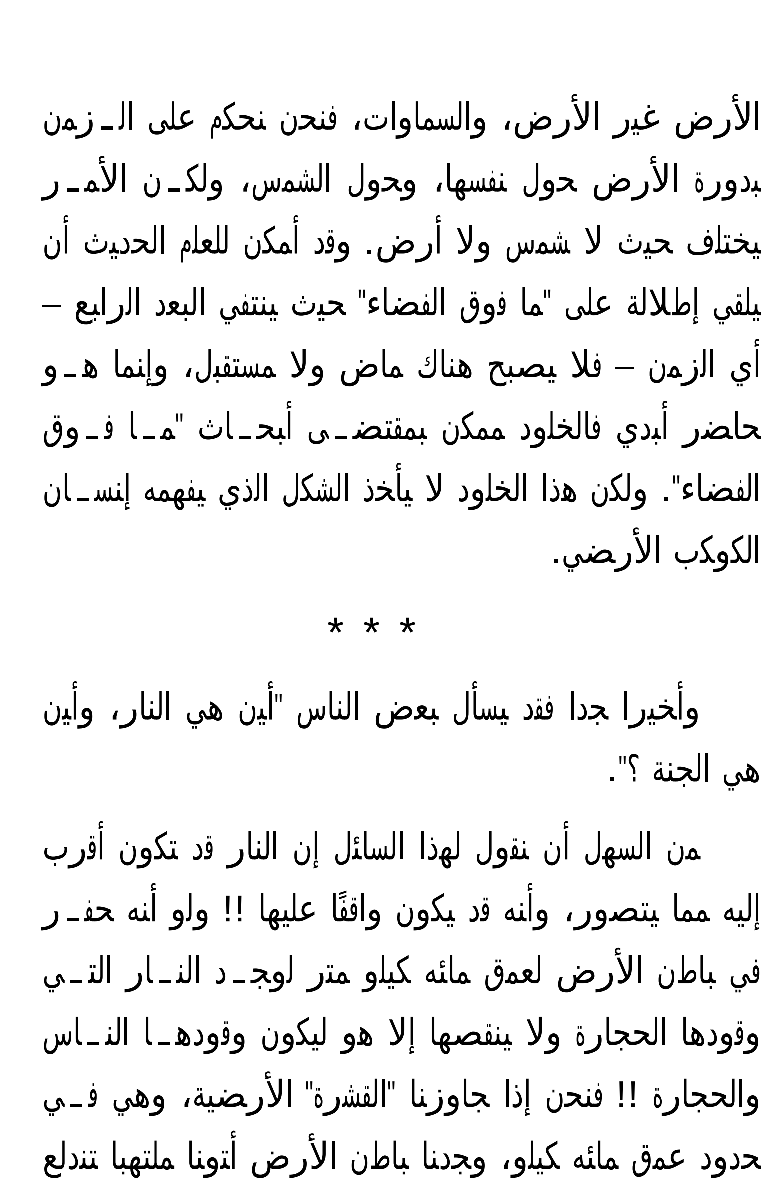
يشرك به ويغفر ما دون ذلك﴾.. ولكن هناك أضـعاف هـذه الآية عن رحمة "تسع كل شيء" وتمحو الذنوب جميعا.

واستطرد العلامة الجلال فأورد إشارة مـن قـال مـن الفقهاء بفناء النار "لأنها من عالم الفساد دون الجنة، إذ هـي من رحمة ا ، كما أطبق عليه المفسرون في قولـه تعـالى ﴿ففي رحمة ا هم خالدون﴾، والرحمة لا تفنـى، فـإذا رد عليهم ذلك بآيات الخلود والتأبيد، قيل إنما المقصود بها هـو اللبث الطويل ولا ينطبق هذا على الجنة لأن ا تعالى يقول "عطاء غير مجذوذ"، وهو خبر لا يكذب[٥٩].

ولعلنا اليوم أقدر على تفهم معنى الخلود بعد الدراسـات الجديدة عن الزمن، والنقص الرئيسي في فهمنا لمعنى الخلود يعود إلى أننا نحكم بمفاهيمنا "الأرضية" على العوالم الأخرى – في حين أن هذه العوالم الأخرى لا تنطبق عليها الأوضاع الخاصة بالكرة الأرضية. وطبيعي أن تتغير عنـدما تبـدل

---

[59] إن استخدام "التأبيد" بمعنى المكوث الطويل ليس مستنكرا. وهم يطلقون على من يحكم عليه بخمسة وعشرين عاما سجنًا السجن المؤبد أو أنه (عوقب بتأبيدة).



الأرض غير الأرض، والسماوات، فنحن نحكم على الزمن بدورة الأرض حول نفسها، وحول الشمس، ولكن الأمر يختلف حيث لا شمس ولا أرض. وقد أمكن للعلم الحديث أن يلقي إطلالة على "ما فوق الفضاء" حيث ينتفي البعد الرابع – أي الزمن – فلا يصبح هناك ماض ولا مستقبل، وإنما هو حاضر أبدي فالخلود ممكن بمقتضى أبحاث "ما فوق الفضاء". ولكن هذا الخلود لا يأخذ الشكل الذي يفهمه إنسان الكوكب الأرضي.

* * *

وأخيرا جدا فقد يسأل بعض الناس "أين هي النار، وأين هي الجنة ؟".

من السهل أن نقول لهذا السائل إن النار قد تكون أقرب إليه مما يتصور، وأنه قد يكون واقفًا عليها !! ولو أنه حفر في باطن الأرض لعمق مائه كيلو متر لوجد النار التي وقودها الحجارة ولا ينقصها إلا هو ليكون وقودها الناس والحجارة !! فنحن إذا جاوزنا "القشرة" الأرضية، وهي في حدود عمق مائه كيلو، وجدنا باطن الأرض أتونا ملتهبا تندلع فيه النيران التي تذيب المعادن والصخور. وهو جحيم حقيقي

نسير فوقه.. وتنبسط فوقه المحيطات بملايين الملايين مـن أطنان الماء وآلاف البواخر التي تمخرها.. وتحت هذا كلـه النار.

وليس معنى هذا أن النار التي جاء ذكرها في القرآن هي باطن الأرض، وإن كان باطن الأرض يصلح جحيما يسع المجرمين من البشرية منذ أن وجدت، ولكننا نريد فحسب أن نضرب المثل بمدى المفارقة.. وكيف أن هذا التساؤل هو مما لا محل له.. ففي الكون مليارات الكواكب التي لم تكشف عنها البشرية، ولن تستطيع أن تكشف عنها، لأن الكون يتمدد بأسرع مما يمكن لأي اتصال، وفي أي كوكب من هذه الكواكب يمكن أن تجد الجنة والنار.. ومن ذا يستطيع أن يثبت كذب هذا الكلام.. وانفساح الكون ووجود ملايين أو مليارات من الكواكب تسمح بوجود عشرات من صور الحياة التي تختلف عن حياتنا.. فأين الجنة؟؟.. وأين النار؟.. سؤال سخيف لا محل له..

دعوة الإحياء الإسلامى

"إيماننا "

(١)

نؤمن با   .إنه محور الوجود ورمز الكمال والعقل والغائية .وما ينبثق عنها من قيم، وبدونه يصبح الوجود عبثا، والكون تحت رحمة الصدفة الشرود، والإنسان حيوانا متطوراً أو " سوبر حيوان".

والإيمان با   الذي يكون قوة ملهمة هو ما يغرسه في النفس تصوير القرآن الكريم   تعالى، أما ما يرد في كتب التوحيد فلا يغنى شيئاً، بل قد يضر.

(٢)

الأنبياء هم القادة الحقيقيون للبشرية، ويجب جعلهم المثل في القيادة، واطراح أحكام الطاغوت من قادة جيوش أو أباطرة أو ملوك الخ ..وما وضعوه من سياسات القهر التي لوثت فكرة الحكم والقيادة وأساءت إلى البشرية.

والأديان هى الثورات التى حررت للجماهير، ووضعت أسس حضارة تقوم على الحرية، والخير، والعدل والمعرفة.

ونحن نؤمن أن الإسلام قد قدم الصورة المثلى   والرسول .على أننا نفهم الصور التي قدمتها الأديان الأخرى، لأن الدين أصلا واحد،

ولكن الشرائع متعددة، ونحن نؤمن بالرسل جميعاً، وان ا   تعالى أراد التعدد والتنوع (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة). وان الفصل في هذا التعدد هو إلى ا   تعالى يوم القيامة.

(٣)

ونؤمن أن الدين هو المقوم الأعظم للمجتمع العربي، وأنه يمثل التاريخ والحضارة والضمير، وأن تجاهله يقطع التواصل مع الشعب، ولا ينفي هذه الحقيقة أن تكون الفلسفة والآداب والفنون قد حلت محل الدين في المجتمع الأوربي فلكل مجتمع طبيعته الخاصة وقدره الذي لا يمكن التمرد عليه أو التنكر له، وفي الوقت نفسه – فإن هذا لا يحول يحول دون أن يكون للفلسفة والآداب والفنون وجود بجانب الدين ولا يمنع من تلاقح الأفكار وتحاور الحضارات، وتقارب الديانات لأن الحكمة ضالة المؤمن.

ونؤمن بكرامة الإنسان، وأن ا   تعالى هو الذي أضفاها على بنى آدم جميعا، فلا تملك قوة أن تحرمهم منها، وهي لكل الجنس البشرى من رجال ونساء، بيض وسود أغنياء وفقراء الخ ..وقد رمز القرآن لهذه الكرامة بسجود الملائكة لآدم، وتسخير قوى الطبيعة له.

ونؤمن أن الإسلام إنما أنزل للإنسان ولم يخلق الإنسان للإسلام، فالإنسان هو الغاية والإسلام هو الوسيلة.

ولما كان الإسلام قد جاوز - كما ونوعا - الاتفاقيات الدولية عن حقوق الإنسان، فإن أقل ما يجب أن يتم هو التطبيق الفوري لهذه الاتفاقيات.

(٤)

لما كان القرآن قد جعل مبرر سجود الملائكة لآدم هو تملكه المعرفة التي تميز الإنسان عن بقيه الكائنات، والتي تنقذه من الخرافة، فيفترض أن تكون المعرفة هدفا رئيسيا للمسلمين وما يتبع هذا من استخدام العقل، وما يثمره من علم وحكمة .ويجب على كل نظام إسلامي أن يشيع الثقافة والمعرفة، ويفتح النوافذ عليها، ويهيئ كل السبل التي تيسر للجماهير معارف ومهارات العصر.

أن الأديان ما لم تستصحب العقل والحكمة وتجعلانها أصولاً فإنها تكون أداة تأخر وانحطاط بدلاً من أن تكون أداة تقدم وازدهار لأن هذا يحل الخرافة محل الحقيقة، النقل محل العقل والجمود محل التقدم. وهذه هى المأساة التى وقع فيها المجتمع الإسلامى فترة تدهوره، ويجب أن لا نسمح بتكرارها.

إننا لا نستطيع أن ندخل القرن الواحد والعشرين بأمية أبجدية أو فكرية.

(٥)

نؤمن بحرية الفكر والتعبير، وأنها أساس كل تقدم، وأنه لا يجوز أن يقف في سبيلها شئ، ويكون الرد على ما يخالف ثوابت العقيدة بالكلمة لا

بالمصادرة أو الإرهاب أو التكفير وليس هناك تعارض بين حرية الفكر المطلقة والدين لأن الدين يقوم على إيمان، ولا إيمان بدون اقتناع وإرادة ولا إرادة أو اقتناع إلا في بيئة تسمح بالدراسة الحرة، والإرادة الطوعية والنظر الدقيق، وفي القرآن الكريم قرابة مائة آية تقرر حرية العقيدة بصفة مطلقة وان مردها إلى ا نفسه وأنها قضية شخصية لا دخل للنظام العام فيها مثل﴿ لا إِكْـراه فِي الديـن﴾. ﴿فَمن اهتَدى فَإِنما يهتَدِي لِنَفْسِهِ ومن ضل فَإِنما يضِل علَيها﴾. ﴿وقُلْ الْحق مِن ربكُم فَمن شاَء فَلْيؤْمِن ومن شاَء فَلْيكْفُر....﴾.

ولا توجد الحرية إلا بتقرير حرية إصدار الصحف والمطبوعات وتكوين الأحزاب والهيئات والنقابات وبقية مؤسسات المجتمع، وحرية هذه الهيئات في العمل لتطبيق أهدافها ما دام ذلك يتم بطرق سليمة.

ونحن نرفض تماما دعاوى التكفير والعقوبة على الردة، ونكلها إلى ا تعالى يفصل فيها يوم القيامة، كما قرر القرآن ذلك وطبقته ممارسات الرسول.

أما ما قد ينشأ من أخطار، فإن الحرية نفسها تفسح المجال لإصلاحه.

(٦)

يجب أن يكون العدل أساس التعامل بين الحكام والمحكومين، الرؤساء والمرؤوسين، الرأسماليين والعمال، الرجال والنساء الخ ..لأن كل ما يمت إلى عالم العمل والعلاقات لا يمكن أن يستقر إلا على أساس

العدل ولا يجوز إعطاء فئات ..سلطات تمكنها من أن تحيف على حقوق فئات أخرى .إن هذا نوع من الظلم يماثل الكفر، ويجب أن لا يسمح به.

وقد يتطلب تحقيق هذا إعادة النظر فى كل نصوص الشريعة الخاصة بالدنيويات، فى ضوء تحقيقها للعدل، لأن التطورات قد تنفى العلة التى من أجلها سنت بعض الأحكام فينتفى الحكم كما قد تتطلب تعديلها. ولا يعد هذا انتهاكا لها، ولكن تأكيد قيامها لما سنت من أجله – وهو العدل.

(٧)

إن التحدي العملي الذي يجابه الدول الإسلامية اليوم هو التخلف اقتصاديا وعسكريا وسياسيا واجتماعيا، ولا يمكن وقف هذا التخلف إلا بجعل "التنمية" معركة حضارية تتم تحت لواء الإسلام باعتبارها النمط المطلوب من "الجهاد" واستنفار كل أفراد الشعب للمشاركة فيها من وضع الخطة حتى متابعتها وتقييمها .ويجب أن تكون هذه التنمية إنسانية ..تبدأ من محطة العدالة الممكن تحقيقها لتصل إلى محطة الكفاية المطلوب تحقيقها، إن الإيمان وحده هو الذي يولد الطاقة المجانية اللازمة ويوظفها لدفع التنمية وتجاوز المعوقات دون حاجة للاستثمارات التي تفسح المجال للتبعية والسير في مسار وإسار الدول الكبرى.

وأي محاولة لتنمية تستسلم لادعاءات البنك الدولي أو تقلد النماذج الأوربية والأمريكية لن تسفر إلا عن مزيد من التخلف والفاقة والتخبط.

وبالمثل فإن أي محاولة لتنمية يضعها خبراء أو حكومات تتسم ببيروقراطية وجمود ودون أن تكون لها الأساس الإيماني والمشاركة الجماهيرية أو تستهدف مصلحة الأقلية على حساب الجماهير العريضة هي تنمية محكوم عليها بالفشل.

(٨)

إن الصورة النمطية لشخصية المسلم التي تتسم عادة بالسلبية والماضوية والتركيز على الطقوس والشعائر ليست صورة المسلم أيام الرسول، ويعود هذا الاختلاف إلى أن قصر مدة الرسالة النبوية والخلافة الراشدة لم تكن كافية لتعميق جذور الشخصية الإسلامية .ثم جاء الملك العضوض، وتدهورت الخلافة وسد باب الاجتهاد لأكثر من ألف عام، وغلبة الجهالة والاستبداد الخ ..وتمخض هذا كله عن الصورة المعروفة اليوم والتي تتقبلها وتبقي عليها المؤسسة الدينية والنظم الحاكمة لأسباب تتعلق بالقصور.. أو الإبقاء على المصالح المكتسبة.

ونحن نرفض هذه الصورة ونعمل لإحياء إسلامي

(٩)

لا يمكن تحقيق أي إحياء إلا بالعودة رأسا إلى القرآن الكريم، وإطراح التفاسير وضبط السنة بضوابط القرآن وعدم التقيد بما وضعه الأسلاف من فنون واجتهادات ومذهبيات تأثروا فيها بروح عصرهم وسيادة الجهالة واستبداد الحكام وصعوبات البحث والدرس، وانعكس هذا

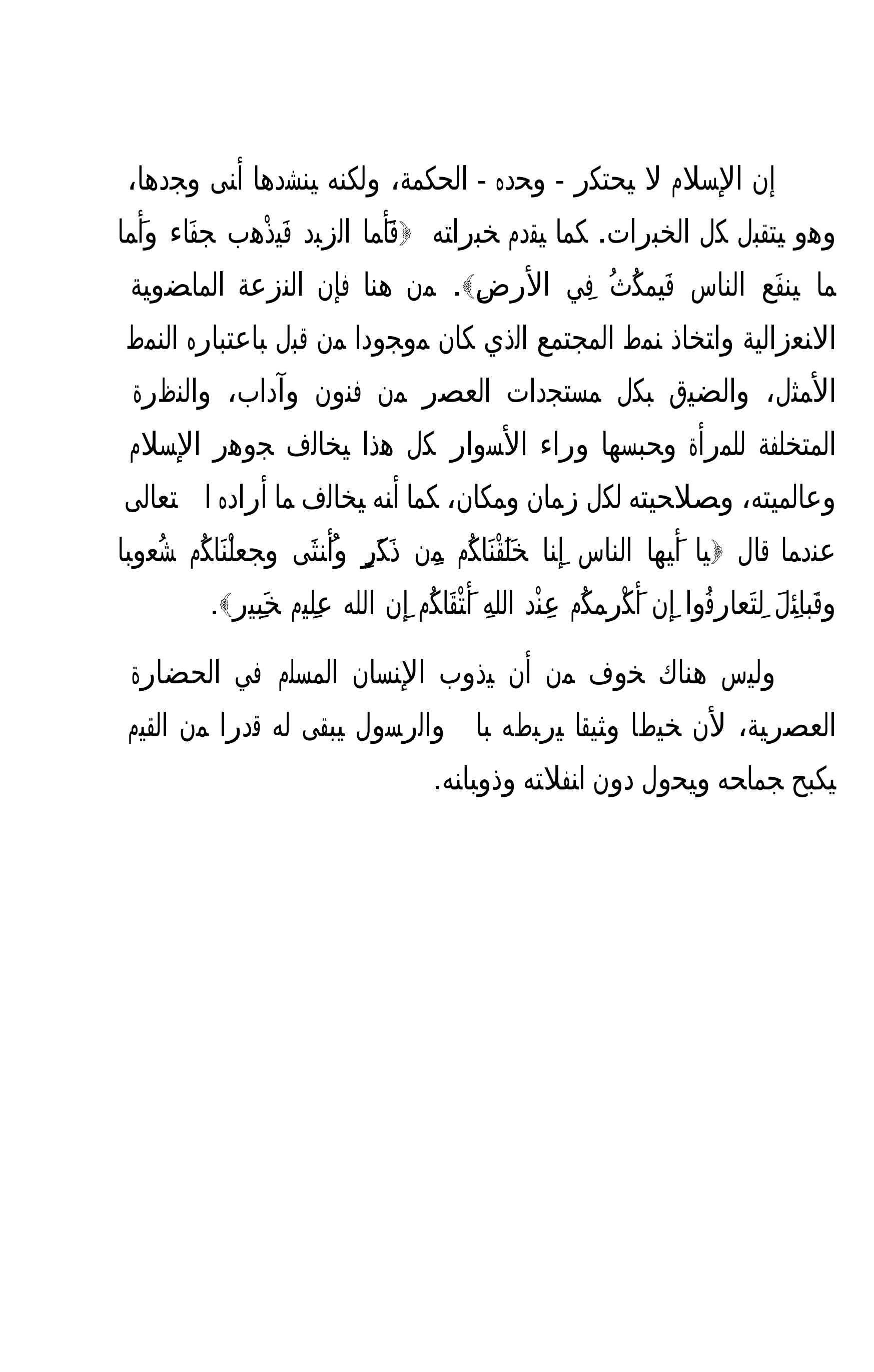
على تفاسير القرآن وأحكام الفقه وفنون الحديث وأقحم فيها مفاهيم دخيلة ومناقضة لروح الإسلام.

لقد كان الإسلام أصلا دعوة حضارية وثورة جماهيرية لإنقاذ الناس من الظلمات إلى النور، وإحلال "الكتاب والميزان" أي المعرفة والعدل محل الجهالة والظلم والطبقية وإشاعة قيم الخير، والعدل، والحرية، والعلم الخ ..التي هي روح الإسلام بينما تكون الطقوس والشعائر جسم الإسلام والاقتصار عليها - دون القيم - هو احتفال بجسم لا روح فيه.

بالنسبة لدعوة الإحياء الإسلامي، فليس المهم الآن تفسير القرآن، ولكن تثوير القرآن ..وهو ما دعا إليه الرسول وطبقه الصحابة، فإنهم لم يعكفوا على تفسير القرآن .وإنما هبوا كإعصار ليقوموا بأكبر حركة تغيير في العالم القديم ويضعوا أسس الحضارة الإلهية – النبوية – الإنسانية.

(١٠)

هناك حقيقة تصل إلى مستوى البدائه، وإن أخفتها الغشاوات الكثيفة . تلك هي أن على كل جيل أن يعيش عصره دون الإخلال بالقيم العظمى للإسلام .إن التطور الاجتماعي للأمم والشعوب هو كالنمو الجسدي للأفراد لا يمكن أن يقاوم .فضلا عن أنه علامة صحة وتطبيق لعالمية الإسلام وموضوعيته وصلاحيته لكل زمان ومكان.



إن الإسلام لا يحتكر - وحده - الحكمة، ولكنه ينشدها أنى وجدها، وهو يتقبل كل الخبرات. كما يقدم خبراته ﴿فَأَما الزبد فَيذْهب جفَاء وَأَما ما ينفَع الناس فَيمكُثُ فِي الأرضِ﴾. من هنا فإن النزعة الماضوية الانعزالية واتخاذ نمط المجتمع الذي كان موجودا من قبل باعتباره النمط الأمثل، والضيق بكل مستجدات العصر من فنون وآداب، والنظرة المتخلفة للمرأة وحبسها وراء الأسوار كل هذا يخالف جوهر الإسلام وعالميته، وصلاحيته لكل زمان ومكان، كما أنه يخالف ما أراده ا تعالى عندما قال ﴿يا أَيها الناس إِنا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وأُنثَى وجعلْنَاكُم شُعوبا وقَبائِلَ لِتَعارفُوا إِن أَكْرمكُم عِنْد اللهِ أَتْقَاكُم إِن الله عِلِيم خَبِير﴾.

وليس هناك خوف من أن يذوب الإنسان المسلم في الحضارة العصرية، لأن خيطا وثيقا يربطه با والرسول يبقى له قدرا من القيم يكبح جماحه ويحول دون انفلاته وذوبانه.